مكتبة

#932

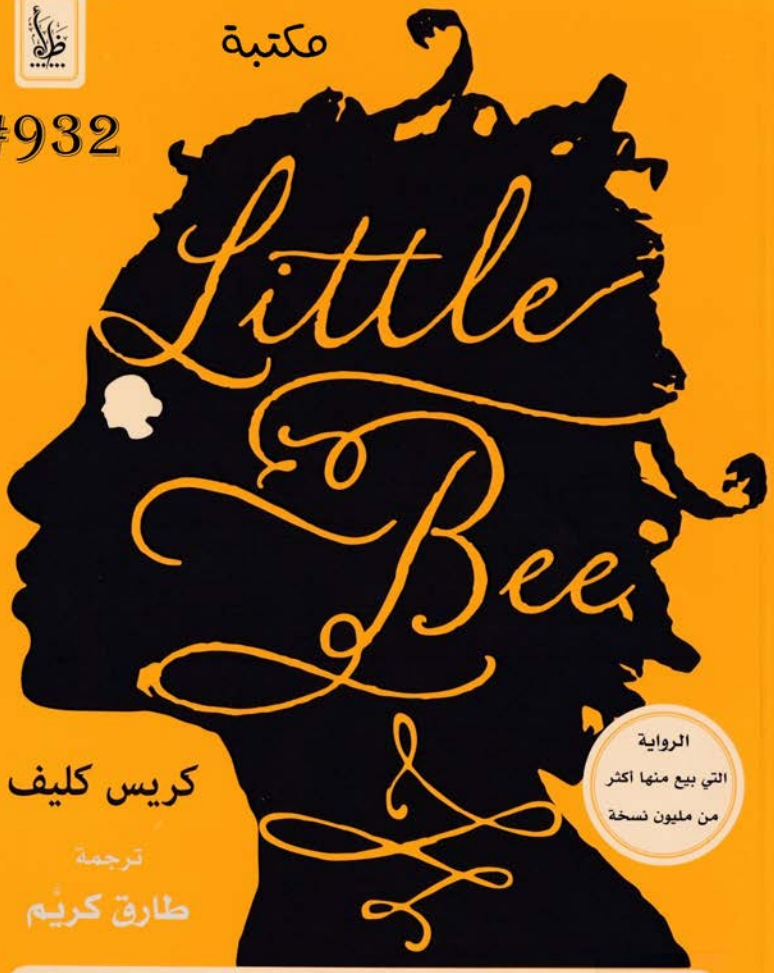

الرواية
التي بيع منها أكثر
من مليون نسخة

كريس كليف

ترجمة
طارق كريم

النحلة الصغيرة

مكتبة | سُر مَن قرأ

النحلة الصغيرة

مكتبة
t.me/t_pdf

الطبعة الأولى
٢٠١٧

littel Bee
النحلة الصغيرة

الموضوع: رواية

تأليف :كريس كليف

ترجمة: طارق كريّم

الإخراج الفني: لينه عامر

إخراج الغلاف: فيصل حفيان

978-9933-9174-8-7: ISBN

عدد الصفحات:٢٧٥ صفحة

عدد النسخ : ٢٠٠٠نسخة

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن

اتجاهات ومعتقدات تتبناها دار النشر»

دار ظمأ للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ السويداء ـ الشارع المحوري
هاتف : ٠٠٩٦٣-١٦-٢٣٠١٦١
فاكس : ٠٠٩٦٣-١٦-٢٢٢٠٩٨
fatenbookshop@yahoo.com

مكتبة | سُر مَن قرأ

النحلة الصغيرة

رواية

كريس كليف

#932

« **النحلة الصغيرة** من أكثر الشخصيات الروائية استفزازاً، شخصية لا تنسى، إن كليف يسرد قصتها بشكل رائع وينسجها بخفّة ونعومة، حتى في أحلك الظلمات، يرويها ببصيص من أمل مشرق »

بوستن غلوب

« رواية جريئة وطموحة، إن كليف يزجّ القارئ في عوالم شخصياته بثقة لا تتزعزع »

غارديان (UK)

«رواية آسرة تماماً، فقد قام الروائي كريس كليف، بعمل مدهش...أعجوبة رائعة ومشجعة في هذا الكتاب . . .»

سيتل بوست إينتيليجنسر

«رواية النحلة الصغيرة ستدهشك . . .رواية مثيرة ومفاجئة للغاية . . مرضية تماماً ومفطرة للقلب»

واشنطن بوست

« مدهشة»

بيبول (فور ستارز آند أ بيبول بيك)

« مرشحة لجائزة الكوستا لأفضل رواية لعام ٢٠٠٨م »

كريس كليف:

كاتب بريطاني، يعيش في لندن مع زوجته وأولاده الثلاثة.

من أشهر مؤلفاته رواية "الذهب" و"**النحلة الصغيرة**" وروايته الأولى "الحارقة" التي حازت على جائزة سومرست موغهام عام ٢٠٠٦ وقد تحولت إلى فيلم سينمائي من بطولة إيوان ماغريغور وميشيل ويليامز.

ترشحت رواية **النحلة الصغيرة** إلى جائزة الكوستا لأفضل رواية لعام ٢٠٠٨، وهي الآن قيد التنفيذ لتحويلها إلى إنتاج سينمائي.

إن روايتيّ "الحارقة" و"النحلة الصغيرة" قد تم نشرهما في أكثر من ٢٠ بلداً حول العالم.

إن كليف ليس كاتب روائي فقط، بل أنه يكتب في صحيفة الغارديان اللندنية.

ما قيل عن النحلة الصغيرة

« رواية **النحلة الصغيرة** ستدهشك، إنها رواية مثيرة ومفاجئة للغاية، مرضية ومفطرة للقلب تماماً، يتلاعب كريس في وجهات نظر هاتين الشخصيتين، وكأنه يسحب الخيوط المظلمة والمضحكة لقصتهم، ويحيكها ببراعة لا مثيل لها».

واشنطن بوست

« رواية ممتعة ومؤثرة للغاية . . »

« قصة مؤثرة حول انتصار الإنسان»

« يستعمل كريس في كتابة هذه الرواية أسلوبه الإنفعالي المميز، لتحدي مفهوم القارئ للكياسة والاختبار الأخلاقي. حيث أن شخصياته هذه الرواية تُظهر كريس في قمة إبداعه . .»

نيويورك تايمز لمراجعة الكتب

«واحدة من أكثر الشخصيات الروائية استفزازاً . شخصيات لا تنسى، يسرد كليف القصة بسلاسة وخفّة ونعومة، حتى في أحلك الظلمات، يرويها ببصيص أمل مشرق» . . . في هذه الرواية الدافئة والمفجعة، يتنقل النغم بين الفكاهة والرعب، حيث الفكاهة لاذعة مليئة بالخوف والسخرية في آن معاً تجعلك تضحك بقليل من القلق. إن التحول في وجهات النظر، عندما نصبح على علم بما جرى مع النحلة الصغيرة في ذلك اليوم المشؤوم على الشاطئ، يعد مذهلاً ويغدو من المستحيل تحمّله لو لم نكن نعلم بقوة ومرونة **النحلة الصغيرة**.

بوستن غلوب

«لدى كليف القدرة الهائلة على الكتابة وباستطاعته أن يجعل القارئ مهتماً بشخصياته وبالمشكلات السياسية المطروحة بشكل عام . . .

USA Today

«بين الفينة والأخرى، قد تصادف شخصية تبدو لك غير بارزة، لتكتشف بأنها تحمل قصة عاطفية مدمرة، لتصبح جزءاً مهماً في منطقة الوعي لديك. وهذا ما نجده في هذه الرواية المذهلة لكريس كليف والمطرزة بالعبارات اللامعة، بما تحويه من أحداث تمتد بين قارتين، وتتعلق باهتمامات عالمية واقعية. ويزيد من روعة هذه الرواية هو النداء الجماعي الذي يخاطبنا به كريس كليف، نحن الجماهير العائمة في هذا العالم الحديث المعولم والمعزول، بهدف الاهتمام ببعضنا البعض».

سيتيل تايمز

« رواية آسرة حقاً، لقد قدم الروائي كريس كليف عمل مدهش، كأعجوبة رائعة ومشجعة في هذا الكتاب. شخصياته مقنعة وواقعية لا تنسى وتشد القارئ لدرجة تجعله يحبس الأنفاس . .»

سيتل بوست إينتيليجنسر

«قام كليف بنسج الحبكة بمهارة، متنقلاً بنا من شاطئ نيجيريا إلى ضواحي لندن الراقية. جاعلاً من العاطفة وسيلة لوصف فظائع ليس من السهل وصفها في قارة أفريقيا وخاصة فيما يتعلق بالتنقيب عن النفط. لحظات مدمرة وأخرى ملتوية وساحرة، ستشدك رواية **النحلة الصغيرة** من أول صفحة، لستستحوذ على عقلك حتى بعد نهاية آخر مقطع فيها.

سينت لويس بوست ديسباتش

«روايـة مثـيرة، لا تخـشى الملـل عزيـزي القـارئ، إنهـا روايـة هادفـة تسـتحق القـراءة. حكايـة مشـوقة لاثنتـان مـن النسـاء الباقيـات عـلى قيـد الحيـاة . .»

شيكاغو تريبيون

«تعد هذه الرواية، **النحلة الصغيرة**، صرخة عالية من الموهبة الاستثنائية . . .»

شيكاغو سن تايمز

" مدهشة "

بيبول (فور ستارز آند أ بيبول بيك)

«إن الصـوت الـذي ينبعـث مـن الصفحـة الأولى في هـذه الروايـة، لم يسـبق لـك أن سـمعته مـن قبـل، فهو صـوت مهاجرة محبطـة وذكية وحذرة، عانـت من أهوال المـاضي. اقـرأ هـذه الروايـة المشـوقة والسـاخرة والمضحكـة بامتعاض، حيـث يعرض كريـس كليـف رؤى الإنسـانية البسـيطة، التي تتمثـل في القوة النازعـة للخوف».

ماغازين

«لـكل مـن يبحـث عـن روايـة مشـابهة لـ «عـداء الطائـرة الورقيـة»، مـا عليـه سـوى أن يقـرأ هـذه الروايـة المثاليـة والمدهشـة. حيـث يتبـادل كليـف وجهـات النظـر بكياسـة واضحـة وعاطفيـة، مـع إضفـاء بعـض الملاحظـات الطفيفـة مـن حـين لآخـر. . .

نهايـة دراميـة وموتّـرة مليئـة بالمعضـلات الأخلاقيـة، تجعـل مـن هـذا الكتـاب متعـة مرضية للقـراءة».

لايبرري جورنال (ستارد ريفيو)

«إن كريس كليف كاتب قصص ذو أعصاب فولاذية. رواية متألقة وواعدة كالحياة نفسها . . .»

بوك ليست (ستارد ريفيو)

« قصة مشحونة بالأسى والعولمة والصداقة غير المتوقعة. إن سرد كليف ينبض بطاقة طيفية ومنذرة».

كيركس ريفيوز

كتبت بشكل جميل . . . . كليف يملك عيناً سينمائيةً حادة.

بابليشرز ويكلي

«النحلة الصغيرة . . رواية ذكية وموضوعية تدور حول أفكار تخص الأسرة والمجتمع وأشكال العنف المتعددة، مثل العنف الناتج عن الإهمال، والشؤون المحلية مقابل الشؤون العالمية. إن كتاب كليف يحثنا على الخروج من حدودنا المرتبة والتقليدية، والسماح للعالم بالدخول إلى حياتنا واحتضان الإنسانية».

كانزاز سيتي ستار

هذا الكتاب رائع وكتب بعناية ورؤية فريدة من نوعها، ومن وجهة نظر ضحايا الإبادة الجماعية، مؤثر بالعمق، حزين ومتفائل، مؤلم وملهم. إن مزيج الطعم الحلو والمرّ لهذا الكتاب يستحق وقتك عزيزي القارئ . . .»

باولدر ديلي كاميرا (كولورادو)

«حاول أن تقاوم فتح هذا الكتاب إلى أن تصبح مستعداً لقراءته، لأنك حين تبدأ، لن تستطيع تركه أبداً، وكن مستعداً لقراءة أسلوب كليف المثير للمشاعر، وطريقة تحكمه بالأحداث. إضافة إلى الرثاء الذي غالباً ما يعرضه بكياسة. توقع أن تندهش! فهذا عمل مثير من حيث النمط والعمق في السرد . . . عمل كفيل بأن يغيّر المفاهيم التقليدية».

بوك اسلت

«ستربكك وتسرّك وتحطم قلبك رواية **النحلة الصغيرة**، إنها واحدة من أفضل الروايات التي قرأتها منذ سنوات، ستشدك من بدايتها اللطيفة إلى نهايتها المفاجئة. لو كنت ما زلت أبيع كتباً، لقمت ببيع رواية النحلة الصغيرة بطريقة «ضمان استعادة الأموال» في حال عدم إعجاب القارئ بالكتاب».

شيلف أويرنيس دوت كوم

«قدم كليف كتاباً يستحق الإقتناء، هذا الكتاب يجعل القارئ يطلب المزيد بعد أن ينهي قراءته. . . كتاب لا يفوّت . .» .

بيليفيل إينتيليجينسر (أونتاريو ، كندا)

«إلى جانب الحوار الحاد والبارع والصراعات الأخلاقية للشخصيات الحيوية في هذه الرواية، تقدم رواية النحلة الصغيرة تحدياً مناسباً لتنشيط أفكارنا حول آداب اللياقة المتحضّرة».

إيندبيندانت UK

«عدوٌ طموح لا يعرف الخوف، قادم من أدغال أفريقيا.

لقاء مروّع على شاطئ نيجيريا، لينتهي في المكاتب الإعلامية في لندن حيث الألفة في ضواحي المدن الخضراء.

يأخذنا كليف في هذه الرواية إلى عالم من الشخصيات، بثقة لا تتزعزع. . .»

الغارديان UK

«رواية بليغة بشكل يصعب تصديقه . . .»

ديلي ميل UK

«لمن المؤسف أن تفضح السر الموجود في نهاية هذه الرواية المشوقة والجريئة والتي تتعامل بمنطق مع المسؤوليات الشخصية والأخلاقية».

أكسفورد تايمز UK

تفتخر بريطانيا بتقاليدها في تقديم الملاذ الآمن للأفراد الفارّين من الاضطهاد والصراعات"

مقتبس من ـ الحياة في المملكة المتحدة ـ رحلة الحصول على الجنسية (وزارة الداخلية في المملكة المتحدة 2005)

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الأول

في معظم الأحيان، تمنيت لو أنيّ قطعة نقدية بريطانية، بدلاً من فتاة إفريقية. عندها سيسعد الجميع لرؤيتي، حيث سأكون ملك شخص ما في عطلة نهاية الأسبوع، وبما أنني قطعة نقدية متنقلة بين الأشخاص، سأكون بحوزة شخص آخر في الدكان المجاور. وقتها لن تكون منزعجاً، لأنك ستُسعد بتناول كعكة القرفة أو تشرب علبة كوكا كولا باردة، ولن تفكر بي بعد ذلك. سنكون سعداء أنا وأنت كعاشقين تقابلا يوم العطلة ونسيا بعدها أسماء بعضهما البعض.

إن القطعة النقدية تكون دائماً في المكان الآمن، وباستطاعتها عبور الصحارى والمحيطات، مخلفةً وراءها أصوات إطلاق النار ورائحة القش المحروق. وعندما تشعر بالدفء والأمان، تجدها تبتسم لك، كما اعتادت أختي نكيروكا أن تبتسم لرجال قريتنا في أيام الصيف القصير عندما كانت فتاةً، وقبل أن تصبح امرأة يافعة، وطبعاً قبل أن تأخذها أمي تلك الليلة إلى مكان هادئ لتتحدث معها بموضوع جدّي.

ومن المؤكد أن قطعة النقود يمكنها أن تكون جدّيةً أيضاً، فهي قادرة على التنكر بالسلطة أو بالممتلكات، وما من شيءٍ أكثر جدية من فتاة لا تملك لا هذا ولا ذاك.

عليك أن تحاول التقاط قطعة النقود وحبسها في جيبك. عندئذ لن تستطيع قطعة النقود هذه بلوغ بلد آمن حتى تأخذك معها، إن لقطعة النقود خدعاً كثيرة كخدع المشعوذ، فعندما تسعى للحصول عليها، تجدها تغير لون ذيلها كسحلية لا يمكنك سوى الحصول على بنس واحد منها. وعندما تمسك بها في النهاية، يصبح الجنيه الاسترليني قادراً على ممارسة سحر لا مثيل له، حيث يتحول هذا الجنيه إلى ورقتين خضراوتين متطابقتين من فئة الدولار الأميركي. وعندها ستفتح يدك للهواء.

إنني أقول الحقيقة...

كم أتمنى لو أتحول إلى جنيه بريطاني، يستطيع السفر بحريّة إلى بر الأمان، ونحن أحرار برؤيته يقوم بذلك، هذا هو انتصار الإنسان. هذا ما يسمونه بالعولمة، فتاة مثلي يتم إيقافها عند الهجرة، بينما يستطيع الجنيه عبور البوابات والمراوغة وتجاوز أولئك الرجال الذين يرتدون القبعات الموحّدة، والقفز مباشرة إلى سيارة الأجرة التي تنتظر في المطار.

ـ إلى أين؟ سيدي! . .

ـ الحضارة الغربية، «بنزق»

ـ . . هيا يا صديقي الطيب.

هل تلاحظون الطريقة المحترمة التي يتكلم بها الجنيه البريطاني؟ إنه يتكلم بطريقة الملكة اليزابيث الثانية، فصورتها مطبوعة عليه. وعندما أمعن النظر به عن قرب، أشعر بأن شفتيها تتحركان، فأرفعه ليصبح قريباً من أذني، تُرى ماذا تقول؟ أنزليني فوراً أيتها الفتاة، وإلا سأستدعي حرّاسي.

لو خاطبتك الملكة بهذه الطريقة، هل تظن بأنك قادر على عصيانها؟ لقد

سمعت بأن حاشيتها من الملوك ورؤوساء الوزراء يطيعون أوامرها حتى قبل أن يفكروا بذلك.

دعوني أخبركم بأن التاج والصولجان اللذين تحملهما، ليسا مصدر قوتها، فأنا أستطيع أن ألبس تاجاً فوق شعري القصير المجعّد وأن أحمل صولجاناً، ورغم ذلك سيأتي رجال الشرطة بأحذيتهم الضخمة ويقولون لي، والآن هيا لنلقي نظرة على هويتك الشخصية . . سيدتي! لا بالتأكيد، ليس التاج والصولجان ما يحكم هذه البلاد، بل هي لغة وقواعد الملكة اللتان تحكمان هنا، ولهذا من المرغوب أن يتحدث الجميع بطريقتها، كأن تخاطب رجال الشرطة بصوت واضح وضوح الماس، يا للسماء! كيف تجرؤ؟

لقد بقيت على قيد الحياة فقط لأنني تعلمت لغة الملكة، ربما قد تظنون بأن هذا ليس صعباً، على كل حال، إن اللغة الانكليزية هي اللغة الرسمية في بلدي، نيجيريا. والمشكلة أننا نتحدث بهذه اللغة بطريقة أفضل في بلدنا. ولأتحدث بطريقة الملكة، كان علي أن أنسى كل الخدع الموجودة في لغتي الأم. فمثلاً، الملكة لا تقول، إن الفتاة ستستخدم قوتها الجبارة للزواج من ابني الوحيد، والجميع سيرى الحظ التعيس في هذا الزواج الفاشل. بل يجب على الملكة أن تقول، إن زوجة ابني تستخدم سحر أنوثتها للارتباط بوريثي، وربما يتوقع البعض بأن الأمر لن يتم بالشكل المناسب. هذا مؤسف، ألا تظنون ذلك؟

إن تعلم الانكليزية على طريقة الملكة يشبه محاولة إزالة طلاء أظافر القدمين بعد حفلة راقصة، فهي تأخذ وقتاً طويلاً، وتجد دائماً بقايا الطلاء عند نهاية الأصابع. طلاء أحمر يترك أثره عند حواف الأصابع، يذكرك بالوقت الممتع الذي كنت تقضيه، وبذلك يمكنكم أن تروا أنني تعلمت ببطئ.

من ناحية أخرى، كان هناك الكثير من الوقت، فقد تعلمت لغتهم في مركز احتجاز المهاجرين في إسيكس، عند الجزء الجنوبي الشرقي للمملكة المتحدة. لقد تم احتجازي هناك مدة عامين.

وكان لدي متسع من الوقت لأتعلم.

الفصل الثاني

من ربيع عام ٢٠٠٧ وحتى نهاية ذلك الصيف الطويل، عندما جاءت النحلة الصغيرة لتعيش معنا، لم يخلع ابني لباس بات مان إلا وقت الاستحمام. فاضطررت لشراء قطعتين له من نفس اللباس كي يستطيع استبدال القطعة المتسخة بأخرى نظيفة.

تعد لعبة قتال أسياد الشر لعبةً قذرة، كخوض معركة لتجنب الأشعة الثلجية الغادرة للسيد فريز، أو مواجهة البطريق «العدو الأخطر لبات مان» أو الحرب مع البفن « أكثر الطيور شرّاً» والذي أخفق صانعوا شخصية بات مان لسبب ما، في وصف شرّها المطلق. لقد عشت أنا وابني حياةً ذات عواقب كثيرة. فبيتنا كان مليئاً بالمساعدين والأعوان والأشخاص المضحكين الذين يتغامزون معنا من وراء الكنبة الموجودة في غرفة الجلوس، ويثرثرون من بين الفتحة الرقيقة الموجودة بجانب خزانة الكتب.

وبشكل عام كنا دائماً على استعداد للمفاجئات طوعاً أو كرهاً، في الحقيقة، كنا نتلقى الصدمات بشكلٍ متتالٍ. في سن الرابعة، وفي حالتي النوم أو الاستيقاظ، كان ابني مستعداً دائماً للمشاغبة، لم يستطع أحد أن يبعده عن قناع الوطواط الشيطاني الذي كان يرتديه، وعن لباس بات مان والحزام الأصفر اللامع والقبعة السوداء.

لم أكن قادرة على مناداته باسمه الحقيقي، وإن فعلت ذلك، يلتفت باتجاهي باستهزاء ويهز كتفيه ويرمقني بنظرة قاسية وكأنه يقول لي، إن إحساسي الوطواطي لا يعرف شخصاً بهذا الاسم أيتها السيدة. . .

في ذلك الصيف، كان ابني يستجيب لاسم واحد فقط « بات مان» . ولم أكن قادرة على التوضيح له بأن والده قد توفي، فولدي لم يكن يؤمن بالإمكانية الفعلية للوفاة، بالنسبة له، الموت لا يحدث إلا عندما يستطيع الأشرار التغلب على الأبطال، وطبعاً هذا غير وارد.

في ذلك الصيف الذي توفي فيه زوجي، كنا جميعاً نملك هوايات تثير الاشمئزاز. فولدي كان يتقمص شخصية بات مان، وأنا ما زلت أستعمل لقب زوجي، أما النحلة الصغيرة «بالرغم من إحساسها نسبياً بالأمان لوجودها معنا» بقيت متشبثة باسمها القديم الذي حصلت عليه في زمن الرعب. في الحقيقة، كنا جميعاً منفيين من الواقع في ذلك الوقت، «لاجئين في أنفسنا».

من الطبيعي جداً أن يهرب المرء من القسوة، لكن التوقيت الذي جمعنا كنا نملك الصيف كان أشد قسوة. حيث اتصلت بنا النحلة الصغيرة يوم أطلقوا سراحها من مركز احتجاز المهاجرين، وردّ زوجي على الهاتف وقتها، لكنه لم يطلعني على الأمر، وعرفت أنها هي في وقت متأخر، فآندرو لم يخبرني أبداً. على ما يبدو، لقد قامت بإخباره بقدومها، وأفترض أنه لم يكن سعيداً لرؤيتها مرة أخرى. وبعد خمسة أيام انتحر زوجي، حيث شنق نفسه، ووجده بعض الأشخاص متدلياً في الهواء. فالموت يعد ملجأً جيداً، حين لا يستطيع أي قناع أو لباس أو قبعة، إخفائك من نفسك، إنه الملاذ الوحيد الذي نلجأ إليه عندما لا يقدم لنا ضميرنا أي ملجأ آخر.

قرعت النحلة باب منزلي بعد خمسة أيام من وفاة زوجي، السيد آندرو، وكان ذلك بعد عشرة أيام من إطلاق سراحها من مركز احتجاز المهاجرين.

بعد رحلة استمرت لمدة عامين ومسافة تقدر بحوالي ٥٠٠٠ ميل، وصلت النحلة الصغيرة متأخرة كثيراً، فقد كان آندرو ميتاً قبل أن تصل، لكنها وصلت قبل الجنازة بفترة قصيرة لترحب بي قائلة: «مرحباً ساره»، «كيف حالك؟».

وصلت النحلة الصغيرة في الساعة الثامنة صباحاً، وبعدها وصل الحانوتي عند العاشرة تماماً، «وكأنه يقف صامتاً في الخارج لعدة دقائق، ينظر إلى ساعته، منتظراً التغيّر الجذري الذي سيحدث في حياتنا. وكأنه النقطة الفاصلة بين الماضي والمستقبل، الذي سيبدأ بثلاث دقات خفيفة على باب منزلي». فتح ابني الباب، ونظر إلى الحانوتي العملاق الذي يقف أمامه، فقد كان يقف بثبات وينظر إلى الصغير بجدّية كبيرة. وبالنسبة لولدي كان الحانوتي يشبه إلى حد ما إحدى شخصيات «بات مان»، حيث ركض في المنزل يصرخ عالياً ويقول: «ماما، لقد جاء بروس وين!».

في ذلك الصباح الحزين، خرجت إلى الشارع ووقفت أنظر إلى تابوت آندرو الموجود داخل عربة الموتى، وعندما لحقت بي النحلة الصغيرة، مصطحبة بات مان الصغير معها، أشار لنا الحانوتي برأسه أن نركب سيارة الليموزين التي كانت ستأخذنا إلى الجنازة. لكنني قلت له بأني أفضل المشي.

بدونا نحن الثلاثة وكأننا لوحة غرافيكيّة مصممة على برنامج الفوتوشوب: امرأة بيضاء من الطبقة الوسطى، ولاجئة سوداء نحيلة جداً وبات مان صغير قادم من فيلم (دارك نايت).

كانت أفكاري مشوشة وكأنني في كابوس غير منتظم. لم تكن الكنيسة بعيدة عن المنزل، وكنا نمشي في المقدمة، وكانت عربة الموتى تمشي وراءنا مصحوبة بضجيج لا ينتهي من السيارات. في تلك اللحظة، شعرت بخوف شديد.

كنت أرتدي تنورةً رمادية ومعطفاً وقفازات وجوارب سوداء. وكانت النحلة الصغيرة ترتدي معطفي الشتوي الأسود فوق ثيابها التي جاءت بها من مركز الاحتجاز، (القميص الملون وسروال الجينز الأزرق). لم يرتدي ولدي لباساً يناسب الجنازة. فقد كان يمشي بفخرٍ ومرحٍ بثياب بات مان. وقد لفت انتباه جميع المارّة، وكانت ابتسامته عريضةً تصل إلى أعلى أذني القناع الذي كان يضعه على وجهه، كان يحارب بعض الشخصيات الخيالية التي كان خياله ينسجها، أثناء سيره، فتجده يتوقف للحظة ويحارب المخلوق الشرير ثم يكمل سيره. فقد كان يخشى مهاجمة الأعوان الخفية لطائر البفن الشرير. لقد كنت قلقة لإنه نسي التبوّل قبل أن نخرج من المنزل، ومن المحتمل أن يفعلها في سروال بات مان الذي يرتديه.

وما كان يقلقني أكثر هو أن أصبح أرملةً لبقية عمري. ظننت في بادئ الأمر أنه من الشجاعة أن أذهب إلى الكنيسة سيراً على الأقدام، لكنني شعرت فجأةً بالدّوار والحماقة. لقد أحسست بأنه سيغمى عليّ. أمسكت النحلة الصغيرة بذراعي وهمست في أذني، بأن عليّ التنفس بعمق.

تساءلت وقتها، كيف لفتاة كالنحلة الصغيرة تسعى لتهدئتي وتحثني على الثبات والصبر؟

في الكنيسة، جلست في الصف الأمامي، وجلست النحلة الصغيرة إلى يساري، كما جلس بات مان الصغير إلى يميني. لقد كانت الكنيسة مزدحمة بالأشخاص الذين يعرفون آندرو ويعرفونني. لم يحضر أحد من زملائي في العمل، فقد كنت أفصل العمل عن المنزل.

كان الجو فوضوياً جداً ومشوشاً للأذهان، «كدفتر ملاحظات كتبت كل محتوياته باللون الأسود وصنفت بعشوائية وبدون ترتيب. فقد صنّفوا أنفسهم بطريقة بروتوكولية غريبة، كالأقرباء الذين كانوا يجلسون بقرب التابوت، وبعض الصديقات القديمات لزوجي الجالسات قرب حوض التعميد.

لم أستطع أن ألتفت إلى الوراء وأرى ما يحدث، فقد حدث كل شيء فجأةً وبشكل غير متوقع.

منذ أسبوع، كنت امرأة عاملة وأمّاً ناجحة، أما الآن فأنا أجلس في جنازة زوجي، محاطةً بلاجئة نيجيريّة وبات مان صغير. وبدى ذلك كالحلم الذي يمكنك أن تستيقظ منه بجهد ضئيل.

كنت أحدق بتابوت زوجي المزيّن بالزنابق البيضاء، وكان بات مان الصغير يحدّق بالقسّ. لقد كان ينظر بإعجاب إلى ثياب الكاهن وإلى البطرشيل،«قماشة طويلة يتلفع بها الكاهن»، وقد قام بتحيته بأسلوب صبياني سوقي، فما كان من القس إلا أن بادله التحية ثم فتح الكتاب المقدس.

أصبحت الكنيسة هادئة ومريبة، وكان ولدي يلتفت يميناً ويساراً وإلى الوراء، ثم يسألني: أين بابا؟

عندها شددت على يده الساخنة المتعرقة وسمعت أصوات السعال والبكاء المكبوت في الكنيسة. ووقعت في حيرة كبيرة، كيف لي أن أوضح لولدي أن والده قد توفي؟

كان الاكتئاب والشعور بالذنب السبب في موت آندرو. لكن ولدي لا يؤمن بالموت وخصوصاً بهذه الطريقة، فالموت بالنسبة له قد يكون ناتجاً عن حرب مع إحدى شخصياته الخيالية، كالقتال مع السيد فريز وأشعته الثلجية أو الصراع مع طائر البفن الشرير. أما الموت بسبب اتصال هاتفي قادم من فتاة أفريقية لاجئة، فهذا شيء مستحيل عليه أن يفهمه.

لقد أدركت أن عليّ إخبار ولدي بالقصة كاملةً عندما يكبر. ترى، من أين أبدأ؟ . . . . «كان ذلك منذ عامين، في صيف عام ٢٠٠٥، حيث بدأ آندرو رحلته الطويلة مع الاكتئاب الذي قضى عليه. بدأ ذلك في اليوم الذي قابلنا فيه النحلة الصغيرة على إحدى شواطئ نيجيريا المعزولة. كانت الهدية الوحيدة التي حصلت عليها في ذلك اللقاء الأول هي بتر الإصبع الوسطى

ليدي اليسرى. لقد فقدت إصبعي، وحصلت على إصبع صناعي بدلاً منه، وبعد ذلك أصبحت أجد صعوبةً في الكتابة على الحاسب المحمول، حيث كنت أفقد بعض الحروف أثناء الكتابة، وبالتالي أصبحت كلماتي ناقصة. في المجلة التي كنت أعمل فيها، أصبحت أفتقد إصبعي وخاصةً في الأوقات الحرجة، عندما يذهب كل المدققين إلى منازلهم، وأبقى أنا أطبع ما تبقى لدي من عمل. لقد قمت بنشر مقال في المجلة، ذكرت فيه أني، «حذرة من الرجال الحساسين»، وطبعاً كنت أقصد weary أي «تعبة» وليس wary أي «حذرة». وكان قصدي: «متعبةٌ من الرجال الحساسين».

وبعد أن جاءتني الكثير من الرسائل الغاضبة التي أرسلها العديد من الرجال الذين قرأوا ما كتبت، لاحظت آنذاك أنني فعلاً كنت أشعر بالتعب منهم. فأوضحت لهم بأن ذلك كان «خطأ مطبعي»، ولم أضف أن هذا الخطأ الطباعي كان سببه «سكين فولاذي حاد» تعرضنا له على شاطئ نيجيريا. والذي أقصده هو، ما هذا اللقاء الذي يجعلك تفقد إصبعك من مجرد التعرف على فتاة أفريقية؟ أي لقاء هذا!!؟

أعتقد أن النحلة الصغيرة كانت لتقول في ظرف كهذا، « لا أعتقد أن هناك كلمة في لغتكم تعبّر عما حدث ».

كنت جالسة في الصف الأمامي من الكنيسة، أدلك الجزء السفلي من إصبعي المقطوع، وقد وجدت نفسي أعترف للمرة الأولى أن، لعنةً ما قد نزلت على زوجي، يوم التقينا بالنحلة الصغيرة لأول مرة.

في السنتين الأخيرتين، تعرضنا لسلسلة من الأحداث المشؤومة، كان ذروتها الاتصال الهاتفي في ذلك الصباح المرعب. حيث استيقظت من النوم، وكان جسدي يرتعش من التوتر. لكنه كان صباحاً عادياً جداً يشبه غيره من أيام الأسبوع. كان إصدار المجلة الخاص بشهر حزيران على وشك الطباعة، وكان مقال آندرو في جريدة التايمز على وشك النشر أيضاً. وكما ذكرت، فقد

كان صباحاً طبيعياً للغاية، لكنني شعرت بقشعريرة لم أكن أعرف سببها. لم أكن امرأةً سعيدة كباقي النساء اللواتي يؤمنّ بأن الكارثة تأتي بسبب القدر. فبالنسبة لي هناك العديد من التنبؤات والعلامات المسبقة لحدوث أي شيء، مثل، لحية زوجي الغير محلوقة أو زجاجة نبيذ أخرى لم تفتح بعد أو الكتابة بصيغة المبني للمجهول في يوم الجمعة، حيث كانت آخر جملة كتبها زوجي قبل أن يتوفى: « إن بعض المواقف التي يتم تبنيها من قبل هذا المجتمع، جعلت من هذا الناقد رجلاً ضائعاً ».

فقد كان زوجي دقيقاً جداً في انتقاء كلماته عندما كان يكتب لجريدة التايمز. بالنسبة لشخص عادي، كلمة «ضائع» تعني «مرتبك» أو «حائر». أما بالنسبة لزوجي فكلمة ضائع تعني «الوداع».

كان الطقس بارداً داخل الكنيسة، وقد كان القس يقول، هل أنت قاسٍ، أيها الموت؟ ثم نظرت إلى الزنابق البيضاء واستنشقت رائحتها الزكية، وقلت في نفسي، يا إلهي! ليتني اعتنيت بك أكثر يا عزيزي آندرو!

كيف أفسر لولدي أن إشارات التحذير طفيفة للغاية؟ فعندما تكون الكارثة وشيكة الوقوع، ستعلن لك عن نفسها قبل أن تحرك شفتيك.

يقولون إنه قبل وقوع الزلازل، تتجمد السحب في السماء، وتصبح الرياح بطيئة وساخنة، وتهدأ الطيور التي تسكن الأشجار المحيطة بساحة البلدة. نعم، ولكن هذه العلامات تحدث دائماً قبل وقت الغداء. يجب ألا نبالغ دائماً بردّة فعلنا عندما تهدأ الرياح، وإلا سنبقى دائماً مختبئين تحت طاولة غرفة الطعام، بدلاً من وضع الأطباق فوقها.

هل سيتقبل ولدي ما حدث لوالده؟ كيف سأقول له، أشعر بالقشعريرة يا عزيزي بات مان الصغير، ولكن لدي منزل يجب أن أعتني به، ولا أعرف لماذا فعل بنا والدك هذا؟

كل ما أستطيع قوله بصراحة هو، أنني استيقظت على صوت رنة الهاتف،

وكان عقلي يتنبأ بحدوث شيء ما، ولكنني لم أكن أتوقع أن يكون بهذه الخطورة.

لقد كان تشارلي (بات مان) نائماً، وقتها رفع زوجي سماعة الهاتف بسرعة حتى لا يستيقظ إبننا من صوت الرنين. ثم أصبح آندرو يتكلم بانفعالٍ شديد. فقد سمعت صوت انفعاله من غرفة النوم. حيث كان يقول، دعيني وشأني، حدث ذلك منذ زمن بعيد، سبق وقلت لك هذا ليس ذنبي.

المشكلة كانت، أن زوجي لا يؤمن بما يقول.

وعندما رأيته يبكي، سألته، من المتصل؟ فلم يجبني.

وبما أننا كنا مستيقظين، وابننا تشارلي مازال نائماً، قمنا بممارسة الجنس سوياً ذلك الصباح.

لقد اعتدنا على ممارسة الحب بين الفينة والأخرى، وكنت أفعل ذلك من أجل آندرو أكثر من كونه لأجلي ، ففي تلك المرحلة من زواجنا، أصبح الجنس كقطعة صيانة ضرورية، أو كاستنزاف الهواء من المشعاع، جزء لا يتجزأ من أساسيات المنزل.

لم أكن أعرف، أو بالأحرى مازلت لا أعرف العواقب الفظيعة التي ستنتج إن لم أستنزف الهواء من المشعاع. هذا شيء لا تسمح امرأة حذرة لنفسها أبداً في اكتشافه.

لم ننطق بكلمة، ثم اصطحبت آندرو إلى غرفة النوم واستلقينا على السرير تحت النوافذ الجورجيّة الطويلة والستائر الصفراء الحريرية. كانت الستائر مطرّزة برسومات أوراق شجرٍ شاحبةٍ، تخبّئ وراءها طيوراً حريرية صامتة. لقد كان يوماً مشرقاً من أيام شهر أيار في كينغستون حيث نهر التايمز. لكن أشعة الشمس عبر الستائر كانت تعكس ظلاماً كالزعفران المزهر. لقد كان الجو في الغرفة محموماً، وكأن أحدهم أصيب بالملاريا. وكانت جدران الغرفة صفراء ومهترئة.

وفي الزاوية كان مكتب زوجي الصغير، حيث الأوراق البيضاء. أمسكت بإحدى

مقالاته وقمت بقراءتها وأنا مستلقية وراء كتفه، فقد بقي مستيقظاً طوال الليل، يكتب وجهة نظره عن منطقة الشرق الأوسط التي لم يزرها في حياته ولا يعرف شيئاً عنها.

كان ذلك في صيف عام ٢٠٠٧، حيث كان ابني يحارب البطريق وطائر البفن الشرير، وكانت بلادي تحارب العراق وأفغانستان، وكان زوجي يكتب رأياً عاماً عن منطقة لا يعرفها.

في ذلك الصيف، كنا جميعاً نقوم بنشاطات لا تنتمي لشخصياتنا الحقيقية.

سحبت زوجي من حبل ثوب النوم الذي كان يرتديه، وفعلت ذلك عمداً لأنني قرأت ذات مرة أن هذا السلوك يثير شهوة الرجل، ثم أبعدته عن سماعة الهاتف ووضعته على السرير.

لقد تذكرت الطريقة التي كان يضاجعني بها ذلك الصباح، كمحرك الساعة الرئيسي الذي يندفع بقوة نحو الأسفل. اقترب بوجهه من وجهي، فهمست في أذنه، أووه يا عزيزي آندرو! هل أنت على ما يرام ؟. لم يجبني، بل أغمض عينيه ليحبس دموعه وبدأ يندفع بسرعة كبيرة محدثاً صوت تأوهات لا إرادية انتهت إلى صمتٍ يائسٍ حزين.

في هذه اللحظة المأساوية، دخل تشارلي الصغير بعفوية إلى غرفة النوم وهو يحارب الأشرار في الهواء، عندها فتحت عيني ورأيته واقفاً عند باب الغرفة، ينظر إلينا بعينيه اللامعتين المخفيتين تحت قناع الوطواط (بات مان). وبدى من التعبير المرسوم على وجهه أنه يتساءل، ما هي الأداة المناسبة التي تفي بالغرض لموقف كهذا؟، فقد كان يحمل العديد من أدوات العراك المعلقة على حزامه الأصفر.

وهنا أزحت آندرو من فوقي وسحبت اللحاف بتوتر لأغطي جسدي العاري، وقلت مرتبكةً، أووا يا إلهي! تشارلي عزيزي! أنا آسفة جداً!.

نظر ابني إلى الخلف، ثم التفت إليّ قائلاً.

« تشارلي ليس هنا. أنا بات مان.»

أومأت برأسي وعضضت شفتي، ثم قلت،

« صباح الخير، بات مان!».

ـ ماذا تفعلين أنت وبابا في السرير؟.

ـ آ آ آ . . .

ـ هل تحاربون الأشرار؟.

ـ هل نحارب الأشرار يا عزيزي تشارلي؟ لا . . ؟؟ أقصد !! . . .

ـ هل تحاربون الأشرار أنت وبابا؟.

ـ نعم، نعم بات مان، هذا بالضبط ما نقوم به.

«ابتسمت له وانتظرت قليلاً لأسمع ماذا سيقول بات مان».

ـ ماما؟ أحدهم قام بتلويث بنطالي بالبراز!

ـ أوووووووو . . . لوّث بنطالك؟

ـ نعم ماما . . لقد فعلها أحدهم!

ـ أووووا، بات مان! هل فعلتها على بنطالك؟

«فهز رأسه نافياً، وارتجفت أذنا القناع الذي كان يلبسه على وجهه، وكانت ملامح المكر واضحة تحت القناع».

ـ لم أكن أنا من فعلها، إنه البفن الشرير!

ـ هل تقول بأن البفن الشرير جاء في الليل وقام بوضع البراز على بنطال بات مان؟

ـ «أومأ برأسه» نعم.

«وهنا لاحظت أنه يرتدي القناع فقط وأنه قد خلع البنطال المتسخ، حيث كان يقف عارياً من الأسفل، ويحمل بنطال الرجل الوطواط الذي أعطاه لي لكي أفحصه».

سقط بعض البراز من البنطال والتصق بالسجادة.

كانت الرائحة لا توصف. وعندما قمت من السرير، رأيت رتلاً طويلاً من كتل القذارة تمتد من سجادة غرفة نومي إلى الممر.

بالنسبة لامرأة مثلي قامت بأبحاث علمية على عدة مستويات، لاحظت من خلال التجارب التي قمت بها في حياتي، أن البراز أيضاً يستطيع أن يجد طريقه في مواقع عدّة، في يدي تشارلي مثلاً أو على مقبض الباب أو على جدران الغرف أو على جهاز الراديو، وطبعاً على الثياب، كبنطال بات مان.

فقد وزّع تشارلي قذارته في كل أرجاء المنزل.
كانت القذارة موجودة حتى على وجهه ويديه، وكانت أيضاً تغطي رسمة بات مان المطبوعة على قميصه. حاولت ولكنني لم أستطع أن أقنع نفسي بأن ذلك البراز سببه البفن الشرير، لقد كانت هذه فعلة بات مان الصغير دون أدنى شك.
تذكرت هنا شيئاً قرأته عن أسلوب التربية المنزلية، ثم قلت،
ـ حسناً يا بات مان، ماما ليست غاضبة منك.
أمك ستنظف كل هذا!.
آ آ آ ه ساعدني يا يسوع!
« هز تشارلي رأسه بعنف»
ـ لا ليس يسوع . . أنتِ... أنتِ من ستقوم بذلك يا ماما.

مكتبة
t.me/t_pdf

بدأ الاستياء يتغلب على الخجل والشعور بالذنب. فألقيت نظرةً على زوجي، الذي كان مغمض العينين، مستقبلاً مرض الاكتئاب برحابة صدر.
لقد قاطع ولدي علاقتنا الحميمة الفاشلة، مضيفاً على ذلك، مستنقعاً فظيعاً من القذارة.
ـ بات مان! لماذا لم تطلب من بابا أن يأخذك إلى المرحاض؟
«حدّق تشارلي بوالده طويلاً ثم التفت نحوي وكأنه يحاول أن يفسر شيئاً لأمه البلهاء، لكنه هزّ رأسه بصمت ولم يجبني».
ـ .....
ـ لماذا يا حبيبي؟ لماذا لم تطلب من بابا؟
«فنظر إلي بطريقة رسميّة وكأنه لا يعرفني»
ـ لقد كان بابا مشغولاً، فقد كان يحارب الأشرار!
«كان يقول ذلك بغاية الوضوح وبدون أية أخطاء لفظية، فنظرت إلى والده وتنهدت».
ـ نعم! أعتقد أنك على حق!
بعد خمسة أيام، وفي آخر يوم رأيت فيه زوجي على قيد الحياة. ساعدت محاربي الصغير على ارتداء ثيابه وأعددت له طعام الفطور، ثم

قمت باصطحابه إلى روضته «طيور الصباح». ثم عدت إلى المنزل وقمت بالاستحمام. كان آندرو يشاهدني وأنا أرتدي ثيابي الضيقة الرسميّة، فقد كنت دائماً أرتدي ثياباً لافتة للنظر في المواعيد النهائية للنشر. كنت أرتدي حذاء ذو كعبٍ عالٍ وتنورة ضيقة وسترة خضراء أنيقة.

إن لنشر المجلات طقوساً معينة، وإن لم يتقيد محرر المجلة بهذه الطقوس، فلن يفعل ذلك العاملين في المجلة. لن أستطيع تقديم أفكار خلّاقة إن ارتديت حذاء عالياً ماركة «فيندي»، ولا أستطيع إغلاق قضية وأنا مرتدية حذاء «بوما». لذلك ارتديت ما يناسب ظروف العمل، بينما كان آندرو يستلقي عارياً في السرير وينظر إليّ وأنا أبدّل ثيابي. لم ينطق بكلمة واحدة. كانت آخر لمحة رأيتها على وجهه، هي نظرته إليّ وأنا خارجة من غرفة النوم. كيف أصف لولدي التعبير الأخير الذي كان مرسوماً على وجه والده؟

قررت أن أخبر ولدي أن وجه والده كان مسالماً في تلك اللحظة. لن أقول له أن والده كان على وشك أن يفتح فمه ويخبرني بأمرٍ ما، لكنني كنت على عجلةٍ من أمري، فخرجت مسرعةً من المنزل دون أن أعطيه فرصة لذلك.

وصلت إلى العمل في الساعة التاسعة والنصف، تقع المجلة في **سبيتالفيلدز**، عند **كوميرشيال ستريت**، على مسافة ٩٠ دقيقة من كينغستون المطلة على نهر **التايمز**. ومن السيء أن تغادر الجزء العلوي الرطب من المكان، وتواجه الحرارة الشديدة تحت الأرض. كنا في الحافلة حوالي ٢٠٠ شخص، وكنت أسمع صوت احتكاك العجلات بالحديد.

كانت أجسادنا متلاصقة ببعضها وثابتة لا تتحرك. ركبتاي ترتطمان برجلٍ نحيلٍ جالسٍ أمامي، مرتدياً معطفاً قصيراً، يحاول إخفاء بكاءه. كنت أدرك أن على الإنسان ألا يراقب الأخرين، لكن وضعيتي، لا تساعدني بإبعاد نظري عنه، شعرت بالشفقة على هذا الرجل وتمنيت لو أربت على كتفه لأواسيه. لكن ذراعيَّ كانتا مقيدتان بسبب ازدحام الحافلة بالركاب. بالإضافة إلى أنني لم أكن على استعداد للقيام بموقف عاطفي وسط كل هذا الحشد الذي لن يكفّ عن التحديق بي. لقد وقعت في حيرة كبيرة، أولاً، التخلي عن أداء واجبٍ إنساني، وثانياً، فكرة أن أكون دائماً، أول من يبادر.

ابتسمت بأسىً في وجه الرجل الحزين، وكنت لا أتوقف عن التفكير بآندرو، عندما يصل الناس إلى مكان عملهم، تصبح الواجبات الإنسانية طيّ النسيان. هذا ما تفعله وسائل النقل في لندن. في ذلك الصباح، كانت المدينة مشرقة والجو فيها منعشٌ، وأنا متلهفة لنشر إصدار حزيران من المجلة. عندما وصلت إلى مبنى المجلة وقبل أن أدخل، نظرت إلى الآرمة الخارجية المضيئة، عليها اسم مجلتنا « نيكسي» . وقفت للحظات وأخذت نفساً عميقاً. كان الهواء هادئاً لدرجة أن بإمكاني سماع طقطقة النيون على الآرمة رغم ضجيج حركة المرور.

وعندما أمسكت بمقبض الباب، تساءلت، ماذا كان **آندرو** يريد أن يخبرني قبيل خروجي من المنزل؟ فقد كان يعرف دائماً ما يود قوله، أما الصمت المفاجئ الذي أصابه، لم يظهر إلا في اليوم الذي قابلنا فيه النحلة الصغيرة. قبل ذلك، كان يتكلم بطلاقة، ففي شهر العسل، لم نكن نتوقف عن الكلام. وقتها، نزلنا في فيلا مطلة على شاطئ البحر، وشربنا الرُّم والليموناضة وتحدثنا كثيراً لدرجة أنني لم ألاحظ لون البحر. كلما احتجت أن أذكّر نفسي كم كنت أحب آندرو، أتذكر بأن المحيط يغطي معظم كوكب الأرض، ومع ذلك وجودي مع آندرو جعلني أنسى ذلك.

لقد كان حبي له أكبر من مساحة المحيط بكثير. وعندما عدنا من شهر العسل إلى بيتنا الجديد في كينغستون، سألت آندرو عن لون ذلك البحر الذي شاهدناه في شهر العسل. فأجابني.

ـ نعم، هل كان لونه أزرق؟

ـ كفاك يا آندرو، لا تستخف بي، فأنت أذكى من ذلك.

ـ حسناً، كانت إطلالة المحيط كإشراقة اللازورد الموشى بالقرمزي والذهبي، فقد طغى لمعان الشمس المشرقة، على الأمواج الزرقاء، التي تنحدر إلى غورٍ مظلمٍ، عندها تصطبغ باللون النيلي الغامق.

«ثم كرر الكلمة مرة أخرى، ولكن هذه المرة بصوت عميق وغرور مضحك، فرفع حاجبيه وقال.« لون نيلي غامق».

وطبعاً عرفتم سبب عدم ملاحظتي للون البحر، وذلك لأنني قضيت

أسبوعين تحت جسد زوجي.

لقد كنا نضحك ونمرح ونتدحرج فوق السرير وكأننا نطير. وهنا ! ! ! نعم هنا . . . أصبحت حاملاً بولدي تشارلي.

دفعت باب المكتب بسرعة، ودخلت إلى الردهة الخاصة بالمجلة. كانت الأرضية السوداء المصممة من الرخام الإيطالي، العلامة الوحيدة التي كانت تذكّرنا بأن هذا المكان مُستأجرٌ، أما ما تبقى من الرواق فهو ملكٌ لنا. حيث تكومت هناك عند الحائط بعض الفساتين المأخوذة من دور أزياء متعددة. مكتوبٌ عليها بخط عريض «مخصصة للتصوير» . . . أو «ليست للتصوير» .... أو «ليست أزياء» . . . بالإضافة لشجرة عرعر يابانية ميتة موضوعة داخل إناء ذهبي متصدّع. تتدلى منها ثلاث كرات ملونة مازالت معلقة من عيد الميلاد الماضي. كانت الجدران ضاربة للحمرة، ومضاءةً بطريقة سريالية. ويبدو الطلاء متلاشياً بوضوح من خلال أشعة الشمس الخافتة المنعكسة عبر الشبابيك الملونة المطلّة على **كوميرشيال ستريت**. لقد ارتسمت على وجهي نظرة انزعاج، يجب ألا تكون« نيكسي» كباقي المجلات. لو كان الأمر بيدي، لفضلت الحصول على طاقم عمل ممتاز، بدلاً من الحصول على ردهة نظيفة ومقاعد فخمة.

وصلت زميلتي في قسم التحرير، **كلاريسا**، قبلتني قبلتين أو ثلاثة، إننا صديقتين منذ أيام المدرسة، شبكت ذراعها بذراعي وصعدنا السلالم سويةً. كانت غرفة التحرير في الطابق العلوي لمبنى المجلة، وقبل أن نصل لاحظت أن كلاريسا ليست على ما يرام.

ـ كلاريسا! يا عزيزتي، إنك ترتدين ثياب البارحة!

«ابتسمتْ بتكلف»

ـ ستفعلين مثلي لو قابلتي الرجل نفسه البارحة.

ـ أووووا كلاريسا! ماذا أفعل بك؟

ـ قدمي لي القهوة المركزة. . وزيادة في الراتب . . وحبة باراسيتامول.

«كانت تبتسم وهي تعد الطلبات على أطراف أصابعها، عندها تذكرت أن كلاريسا لا تملك معظم الأشياء الجميلة التي حصلت عليها في حياتي، مثل

ولدي بات مان الجميل، وبالتالي فهي أقل إشباعاً مني».

لقد كانت العاشرة والنصف صباحاً، ولم يصل أحد من العاملين في المجلة، «بارك الله بهم»، مازال عمال التنظيف في الطابق العلوي للمجلة ينظفون المكان. حيث كانوا يكنّسون الأرض ويزيلون الغبار من فوق المكاتب والمقاعد، وكانوا يقلبون الصور الفظيعة لعشاق الموظفات، متظاهرين بأنهم قد نظفوا تحتها، هذا هو نمط العمل في قسم التحرير من مجلة «نيكسي». في مجلات أخرى كالـ «فوغ» و« ماري كلير»، يصل موظفو قسم التحرير إلى مكاتبهم في الساعة الثامنة صباحاً، مستعدين لشرب الشاي الأخضر. وينصرفون باكراً عند المساء بدلاً من الخربشة على طرود الثياب الفرنسية التي كانوا يعدونها لدور الأزياء.

جلست كلاريسا على زاوية مكتبي، وجلست خلفها، حيث نظرنا معاً إلى الفناجين المستعملة الموضوعة على الطاولات من ليلة البارحة. كنا نتحدث عن الإصدار الأخير الذي سنقوم بنشره، فقد قام مسوقي الإعلانات بعمل رائع هذا الشهر. ربما ساهمت الأسعار المتذبذبة للمخدرات التي تباع في الشوارع، بتزويدهم بالكثير من الموضوعات الملائمة للنشر، مما جعلهم يصرفون وقتاً إضافياً في المكتب ليلة أمس. وقد حصلت على موضوع اجتماعي مميز للنشر، « قصة امرأة تحاول الخروج من بغداد» . وحصلت كلاريسا على موضوع آخر للنشر «طريقة جديدة للوصول إلى ذروة التهيّج الجنسي مع مدير العمل». كنا نناقش ما الموضوع الأكثر تشويقاً بين هذين الموضوعين؟

كنت مشوشة الذهن، فأرسلت رسالة الكترونية لآندرو، كي أطمئن عليه.

كانت الشاشة المسطحة الضخمة التي في الساحة، تعرض أخباراً من قناة BBC نيوز، لكن الصوت كان منخفضاً. كانوا يبثون خبراً عن الحرب. وخلال ذلك تُعرض مشاهد لمدن تحترق، لم أعرف أي مدينة، فقد فقدت التركيز تماماً في تلك اللحظة. بدأت الحرب منذ أربعة سنوات، في نفس الشهر الذي ولد فيه تشارلي. وكبر تشارلي والحرب سوياً. في البداية، كانا الاثنان بحاجة لكثير من الانتباه. لكن بمرور السنوات، أصبح الاثنان أكثر استقلالية،

وبالإمكان الإنشغال عنهما لبعض الوقت.

أحياناً، قد يستلزم حدث معين، أن أنظر اليه للحظات وأنا بكامل التركيز، كالانتباه على ولدي مثلاً أو متابعة أحداث الحرب. ففي أوقات كهذه كنت أسأل نفسي، يا إلهي! ألم تكبروا بعد؟.

أثار اهتمامي موضوع الوصول إلى ذروة التهيّج الجنسي من خلال إقامة علاقة مع مدير العمل.

ـ لماذا حصراً مع المدير، **كلاريسا**؟

ـ الممنوع مرغوب كما تعلمين، فلا مانع من متعة فجائية تجدد الهرمونات والنواقل العصبية بين الفينة والأخرى. إنها نتائج علمية كما تعلمين!

ـ هل قام العلماء بإثبات ذلك؟

ـ لا تجربيني، **ساره**، فأنا أتحدث عن عالم جديد من المتعة الجنسية، وهذا ما يسمونه: «جنس في العمل». أترين!؟

ـ بديع، حقاً !

ـ طبعاً يا عزيزتي! علينا تجربة ذلك!

«شعرت بحزن عميق، لمجرد فكرة أن تمارس النساء الجنس مع أرباب أعمالهن ببدلاتهم الرسمية السوداء اللامعة».

على الشاشة المسطحة، بثّت قناة الـ BBC أخباراً، تبدأ من الشرق الأوسط إلى أفريقيا. بالإضافة إلى أخبار الطقس، وذات المشاهد المتعلقة بالحرائق. تذكرت هنا عيني **آندرو** المستهجنتين اللتين كانتا تنظران إليّ بلا مبالاة قبل خروجي من المنزل. شعرت بالقشعريرة مرة أخرى. نظرت بعيداً ثم توجهت نحو النافذة المطلة على كوميرشيال ستريت. توسدت بجبيني على زجاج النافذة، وهذا ما أفعله عادةً عندما أكون مشغولة البال.

ـ أنت بخير، **ساره**؟

ـ نعم أنا بخير، كوني لطيفة وأحضري لنا كوبين من القهوة إذا سمحتي!

«توجهت **كلاريسا** نحو آلة صنع القهوة، الموجودة في بوفيه مجلة **فوغ** »

أثناء ذلك، كان نظري مصوب على **كوميرشيال ستريت**، فرأيت سيارة لدورية

شرطة قام ركابها بركنها مقابل مبنى مجلتنا. خرج منها ضباط بلباس موحد، ينظرون لبعضهم البعض من فوق سطح السيارة. أحدهم ذو شعر أشقر مقصوص، والثاني برأس أصلع كالرهبان، يميل برأسه ليسمع صوت المذياع الموضوع في جيب سترته. ابتسمت بعفوية، وفكرت بذهول بمشروع قد يكون تشارلي يمارسه في الروضة «الشرطة، إنهم الأشخاص المسخرين لمساعدتنا». لم يكن تشارلي ليقتنع بأمر كهذا دون شك، ففي حالة الخطر المحدق، يؤمن تشارلي، أن على المواطنين الشرفاء أن يساعدوا أنفسهم، وهم يرتدون لباس بات مان مع القناع والقبعة السوداء.

عادت كلاريسا وهي تحمل بيديها كوبين بلاستيكيين من « كافيه لاتيه». كانت هناك ملعقة تحريك في واحد منهما، أما الكوب الآخر فكان بدون ملعقة. احتارت كلاريسا أي كوب ستقدم لمديرة عملها؟

ـ هذا قرار صعب في يوم كهذا!

ـ لا إنه قرار سهل للغاية، فأنا المديرة هنا! أعطيني الكوب الذي فيه الملعقة!

ـ «ضحكت»، ماذا لو لم أفعل ذلك؟

ـ إذاً لن أؤيد فكرتك بما يتعلق بالعلاقة الجنسية مع مدير العمل، أحذرك كلاريسا!!!

«شحب وجه **كلاريسا**، ثم قدمت لي الكوب مع الملعقة».

لقد أعجبني موضوع بغداد!

ـ «تنهدت» وأنا كذلك، **ساره**، أظن أنه موضوع مشوّق.

ـ منذ خمس سنوات، كان هذا النوع من المواضيع يلفت انتباهنا دائماً، حينها، كانت مجلتنا بحاجة لذلك، لا بد من المخاطرة في بعض الأحيان، فهذا ما جعلنا نتطور «التميّز». نعم «هذا نحن».

«هزت برأسها موافقة وأردفت»

ـ الأصعب من النجاح هو الاستمرار فيه. فكما تعلمين لا نستطيع نشر موضوعات أخلاقية، وغيرنا من المجلات الهامة ينشرون المواد الإباحية بنجاح.

ـ أتظنين أن قرّاء مجلتنا أغبياء لهذه الدرجة؟

ــ لا، لا، ليس هذا ما أعنيه، لكنني أظن أن قرّاء مجلتنا لم يعودوا يهتمون بالقراءة. هذا كل ما أقصد. فقد أصبحوا يهتمون بأمور أكثر أهمية. ربما لا تدركين أنك قد كبرتِ يا **ساره**، وقد تكون وظيفتك في المستقبل القريب عبارة عن نشر صحيفة وطنية لا أكثر.

ــ أمرٌ مدهش! أستطيع نشر صور لفتياتٍ عارياتٍ في كل صفحة!.

«في هذه اللحظة، شعرت بحكّة فوق سطح إصبعي المقطوع. ثم نظرت مرة أخرى من خلف النافذة إلى سيارة دورية الشرطة، حيث وضع ضابطان القبعات الموحّدة على رأسيهما، مما جعلني أضع هاتفي النقال بين أسناني من شدة التوتر».

ــ لما لا نذهب ونشرب شيئاً بعد انتهاء الدوام، بإمكانك اصطحاب صديقك الجديد معك، وسأقوم أنا باصطحاب **آندرو**!

ــ هل أنت جادّة؟ علناً أمام الناس؟ وأمام زوجك؟ أصطحب صديقي؟ أليس هذا رائعاً؟

ــ نعم، كما في السابق!

ــ ماذا تقولين يا ساره؟

ــ لا أقول شيئاً، أريد فقط أن أتأكد أن ما أفعله هو الصواب.

ــ «ابتسمت بامتعاض»، حسناً، لكن يجب أن تعلمي بأني سأتحرش بزوجك من تحت الطاولة.

ــ افعلي ذلك، كلاريسا، وسأمنحك وظيفةً أقل من وظيفتك الحالية، تقضين فيها حتى آخر يوم في حياتك.

رن الهاتف الموجود على مكتبي، فنظرت إلى الساعة. كانت العاشرة والنصف إلا خمس دقائق. «من المضحك أن هذه التفاصيل تبقى في الذاكرة». رفعت السماعة، وكان الاتصال من غرفة الاستقبال في الطابق الأرضي، بدا أن المتصل كان منزعجاً قليلاً. ففي مجلة « نيكسي» كانت غرفة الاستقبال مكاناً ذا سمعة سيئة. في غرفة التحرير، عندما تصبح الفتاة مشاكسة لدرجةٍ لا تحتمل، يتم إرسالها إلى غرفة الاستقبال لتقضي وقتاً ممتعاً هناك.

ـ هناك رجلان من الشرطة داخل المبنى!

ـ هل دخلوا إلى هنا؟ ماذا يريدان؟

ـ حسناً، برأيك لما قمت بالاتصال بك؟

ـ يريدان التحدث معي؟

ـ لقد أحسنوا اختيارك حتى تكوني المديرة يا ساره!

ـ تباً لك! لماذا يريدان التحدث معي؟

ـ ربما عليّ أن أسألهما!

ـ افعل ذلك من فضلك . . .

ـ يقولان بأنهما يريدان تصوير فيلمٍ إباحي في المكتب! يبدو أنهما على وشك الغضب!

ـ قل لهما أنني سأكون في الأسفل بأقصى سرعة.

«أقفلت السماعة، نظرت إلى كلاريسا، وانتابتني القشعريرة مرة أخرى».

ـ الشرطة!

ـ اهدأي قليلاً، لن يتهموكي بنشر موضوع خطير، اطمئني!

كانت الشاشة المسطحة الموجودة وراء كلاريسا، تبث برنامجاً لجون ستيوارت، فقد كان يضحك مع ضيفه. مما جعلني أشعر ببعض الارتياح. يجب أن تشاهد شيئاً مضحكاً ذلك الصيف. فيمكنك أن تضحك مثلاً عندما تشاهد حريقاً في بلدة ما على التلفاز، أو عندما يرتدي أحدهم، لباس بات مان، أو عندما تجرب ذروة التهيج الجنسي مع المدير. وهكذا . . .

نزلت بسرعة إلى الردهة، رأيت رجلين يقفان بثبات ويحملان قبعتيهما في أيديهما، كانت أحذيتهما الجلدية السوداء تلامس الرخام الإيطالي الثمين. وقد لاحظت أن أحدهما كان محمرّاً من الخجل.

ـ أنا آسفة!

«حدقت بموظفة الاستقبال، فابتسمت لي بحيوية وإشراق».

ـ ساره أورورك؟

ـ نعم ساره سومرز . . . أورورك لقب عائلة زوجي.

ـ أرجو المعذرة سيدتي!

«نظر الشرطي إلى وجهي بنظرةٍ يصعب عليّ وصفها»

ـ إنها مسألة شخصية سيدة أوروورك، أيمكننا التحدث على انفراد؟

صعدت أنا وهما، إلى غرفة مجلس الإدارة في الطابق الأول، والمفروشة بأثاث بنفسجي ووردي اللون، مع طاولة زجاجية وسط الغرفة، والكثير من الإضاءة.

ـ أتودان أن أقدم لكما القهوة أو الشاي؟. . . أنا غير متأكدة أنها ستكون لذيذة! فآلة صنع القهوة لدينا ليست كما يجب . . .

ـ لا لا من الأفضل أن تجلسي سيدة أوروورك!

كان وجههما شاحباً كما في أفلام الأبيض والأسود. خمنت، عمر الشرطي الأصلع يناهز الخامسة والأربعين. أما الشرطي الأشقر فقد كان يقارب الثانية أو الرابعة والعشرين من عمره. في الحقيقة، كان رجلاً مثيراً. لم يكن شديد الوسامة، لكن نظرته ووقفته كانتا جذابتين إلى حد ما. لا بد أنه سحر اللباس الموحّد على ما أعتقد.

وضع كلٌ منهما قبعته على الطاولة الأرجوانية الزجاجية. كانوا يلعبون بقبعاتهم بأطراف أصابعهم البيضاء النظيفة، ثم توقفوا عن ذلك في نفس اللحظة، وكأن هذا السلوك كان جزءاً من التدريب العسكري الذي تعلماه في الجنديّة. حدق الاثنان بي. ثم اهتزّ هاتفي النقال الموضوع على الطاولة الزجاجية معلناً وصول رسالة الكترونية.

« لا بد أنه آندرو!»

ـ أحمل لك أخباراً سيئة سيدة أوروورك!

ـ ماذا تقصد؟

كان الوضع متوتراً أكثر مما كنت أظن. حدق الشرطيان بالقبعتين الموضوعتين على الطاولة. وكنت بحاجة لأن ألقي نظرةً على الرسالة الالكترونية، عندما مددت يدي لألتقط هاتفي النقال، لاحظ الشرطيان مكان إصبعي المقطوع.

ـ أووووو هذا؟ لقد فقدته أثناء عطلة على الشاطئ!

«نظرا إلى بعضيهما، ثم نظرا إليّ، خاطبني الشرطي الأصلع بصوتٍ أجش»

ـ نحن آسفون جداً سيدة أورورك!

ـ أووا، لا أرجوك، لا تأسف على شيء . . . لقد نسيت الموضوع . . . إنه مجرد إصبع . . . حادث قديم ومضى.

ـ لا لا سيدة أورورك، ليس هذا ما أقصده، في الحقيقة، لقد طلب منا أن نخبرك أن . . .

ـ آه . . . نعم، في البداية تجد صعوبةً عند فقدان إصبع. لكن مع الوقت تصبح معتاداً على ذلك، وتلجأ إلى استعمال اليد الأخرى.

«نظرت إلى وجهيهما، ولاحظت النظرة الجدّية المتجمّدة التي كانا يرمقاني بها. ثم نظرت إلى ساعة الحائط، وراقبت سير الثواني. ثم استمريت في الثرثرة»

أليس هذا مضحكاً؟ ما زلت أشعر بوجوده، رغم أنه مقطوع، فعندما أحكّ مكانه، لا أجد شيئاً. وفي أحلامي، أجده في مكانه المعهود، وأشعر بالسعادة لوجوده. لا بد أنني مشتاقة إليه! . . . أترون؟.

أخذ الضابط الأشقر نفساً عميقاً ونظر إلى دفتر ملاحظاته.

ـ سيدة أورورك، لقد وجدوا زوجك فاقداً وعيه بعد التاسعة من صباح هذا اليوم، سمع جيرانك صوت صراخ، واتصلوا بـ٩٩٩، وبلغوا، بأن هناك رجلاً في حالة خطرة. أعطى الجيران العنوان إلى الشرطة، ثم قاموا بكسر قفل باب المنزل. صعد الجميع إلى الأعلى ووجدوا السيد آندرو فاقداً الوعي. لقد قام رجال الشرطة بعمل كل ما بوسعهم، وحضرت سيارة الإسعاف بسرعة قصوى. لكن يؤسفنا أن نخبرك، سيدة أورورك، أن زوجك قد مات. وقد وجدوا جثته في الساعة التاسعة والنصف تقريباً.« أغلق الشرطي دفتره»، نحن آسفون سيدتي!

فتحت الرسالة التي وصلتني، وكانت فعلاً من آندرو، حيث كتب لي فيها: « أنا آسف جداً » .

أغلقت هاتفي وجعلته صامتاً. ومنذ تلك اللحظة، كان الصمت يطاردني

أسبوعاً كاملاً، «في التاكسي، وعندما أخذت تشارلي من الروضة، وعندما اتصل والداي وعرفوا بوفاة آندرو، وأثناء ما كان الحانوتي يشرح لنا الفرق بين التابوت المصنوع من خشب الصنوبر والتابوت المصنوع من خشب البلوط، وعندما اتصل زملاء آندرو من صحيفة التايمز ليعبروا عن حزنهم». والآن ما زال الصمت يلاحقني داخل الكنيسة الباردة. كيف أصف الموت لبات مان صغير، عمره أربع سنوات؟ كيف أعلن له عن حالة الحزن والأسى؟ فأنا نفسي غير قادرة على تقبل الأمر. عندما أخبرني رجال الشرطة أن آندرو قد مات، رفض عقلي أن يستقبل الفكرة. وأنا المرأة الطبيعية على ما أظن، الجاهزة دائماً للتعامل مع الأمور السيئة اليومية، كالعلاقات الجنسية الفاشلة، والقرارات الصعبة في قسم التحرير، وآلات القهوة العاطلة عن العمل. فهذه أشياء يتقبلها عقلي بسهولة. لكن وفاة زوجي آندرو؟ لا لا لا مستحيل أن أتقبل ذلك.

في وقت ما، كان حبي لآندرو يغطي معظم سطح الأرض. وها أنا ذا أحدق بتابوته، المصنوع من خشب البلوط الذي نصحني به الحانوتي، حيث قال: « ذوقك كلاسيكي يا سيدتي!»

يبدو كل هذا كحلم مثير للاشمئزاز أو كابوس.

ـ ماما...؟ أين بابا؟

«لقد سألني تشارلي هذا السؤال أكثر من مرة وأنا جالسة في الصف الأول، حيث كانت ذراعيّ تطوّقه. حينها بدأت أرتجف. بدأ القس مراسم التأبين، وكان يتكلم عن زوجي بصيغة الماضي. كان كلامه مؤثراً. وقد لاحظت أن القس لم يذكر آندرو بصيغة الحاضر، ولم يعر اهتماماً لمقالاته التي كان ينشرها في جريدة التايمز».

سحبني تشارلي من يدي وسأل سؤاله للمرة العاشرة.

ـ قلت لك، أين بابا الآن؟.

« اقتربت من أذنه وهمست»

ـ بابا في السماء يا عزيزي! إنه في مكان جميل جداً، حيث يتناولون فطوراً سخياً ويحصلون على كتب جميلة وملونة.

ـ أووا هل يرسمون ويلونون أيضاً؟

ـ نعم يا عزيزي!

ـ هل بابا يرسم معهم الآن؟

ـ كلا يا تشارلي، بابا يفتح النافذة الآن وينظر إلى السماء.

«شعرت برجفة قوية، إذ إلى متى سأظل أروي قصة، ماذا يفعل بابا بعد موته. أظنني استخفيت بولدٍ قادرٍ على العيش في كينغستون المطلة على نهر التايمز، وفي مدينة غوثام في آنٍ معاً. أعتقد لو أنني شرحت له بهدوء فكرة الموت، لتقبّل الفكرة بكل رحابة صدر».

اقتربت من تشارلي وعانقته بحرارة، وأدركت أنه كان السبب الوحيد الذي منعني من السقوط في الحفرة. ثم اقترب من أذني وسألني.

ـ أين بابا الآن؟

«همست له»

ـ بابا الآن يسكن في الجنة، إنه سعيد هناك الآن!

ـ هل سيعود قريباً ؟

ـ كلا يا تشارلي! لقد قلت لك، الناس لا يعودون من الجنة!

«قلب شفتيه، وسألني»

ـ ماما؟ لماذا وضعوا ذلك الصندوق في الحفرة؟

ـ أعتقد أنه المكان الملائم له يا عزيزي!

ـ آآآآآه هل سيأتون ويخرجونه من الحفرة لاحقاً ؟

ـ لا يا تشارلي، لا أعتقد ذلك!

«أغمض تشارلي عينيه بشدة، تحت القناع، محاولاً أن يستوعب الفكرة».

ـ أين هي الجنة يا ماما؟

ـ أرجوك يا تشارلي، ليس الآن؟

ـ ماذا يوجد داخل ذلك الصندوق؟

ـ دعنا نتحدث عن ذلك لاحقاً يا حبيبي، فأمك تشعر بالدوار الآن!

«حدّق تشارلي، ممعناً النظر في عينيّ»

ـ هل بابا موجود داخل ذلك الصندوق؟

ـ لا، بابا في الجنة الآن يا تشارلي!!

ـ «بصوت مرتفع» هل هذا الصندوق، هو الجنة؟

«كان الجميع يراقبنا. لم أستطع الكلام. حدق تشارلي بالحفرة المظلمة، ثم نظر إليّ بارتياب»

ماما؟ أخرجي بابا من الجنة!

«بتوترٍ، ضممته بشدة من كتفيه»

ـ أووا تشارلي، أرجوك أن تفهم!

ـ قلت لك أخرجيه. . . أخرجيه من ذلك الصندوق!

أفلت تشارلي من يديّ ثم اندفع بقوة نحو القبر، فتزحلق من رطوبة العشب والطين، ووقع في الحفرة مباشرة فوق تابوت آندرو. صرخ أحد الواقفين بشكل لا إرادي. كانت هذه أول صرخة سمعتها منذ مات آندرو. كسرت هذه الصرخة حاجز الصمت الذي كان يغطي المكان. ما زالت الصرخة تسبح في عقلي.

انحنيت ونزل نصف جسدي داخل الحفرة، ورأيت تشارلي وهو يطرق على التابوت صارخاً، بابا! بابا! أخرج! . . . كان يعانق التابوت بيديه وقدميه.

أنزلت يدي حتى يتمسك تشارلي بهما لأسحبه وأخرجه من الحفرة. لكنه لم يكن يسمعني أبداً.

في البداية، كان تشارلي يجاهد بأنفاس مقطوعة. لأن بات مان لا يقهر! فقد تغلب بات مان على البطريق الظالم، وحارب طائر البفن الشرير، والسيد فريز المحتال. وبالنسبة لعقلية تشارلي، ليس من الصعب عليه أن يتغلب على تابوت صامت من الخشب. لقد كان يصرخ بغضب وتذمّر.

لم يكن مستعداً للاستسلام. ليتني كنت امرأة قاسية وصاحبة قرارات صارمة،لكنت فعلت شيئاً في تلك اللحظة التي كان فيها قلبي يتحطم ببطئ. لقد لاحظت لحظات الضجر والشك التي كانت تتسلل إلى عضلات تشارلي الصغيرة وهو يتخبّط فوق التابوت. كان المشيّعون يحومون حول القبر مندهشين من رعب تلك اللحظة . . . ـ لحظة اكتشاف الموت التي تعد أصعب من الموت نفسه ـ

حاولت أن أنزل إلى الحفرة، لكن بعض المشيعين سحبوني من الخلف، كنت مصعوقةً بلحظة الرعب هذه، فسألت نفسي، فليفعل أحدكم شيئاً؟ إن التعرف على الموت للمرة الأولى أمرٌ صعب! صعب للغاية!

هنا. . . نزلت النحلة الصغيرة إلى القبر وحملت تشارلي وهو يركلها ويعضّها بكل قوته، مرتدياً قناعه وقبعته الوطواطية. لقد حاول التوجه نحو القبر مرة ثانية، لكن النحلة الصغيرة عانقته بكل قوتها وأخرجته من الحفرة.

صرخ، وصرخ لا لا لا لا.

في هذه اللحظة، بدأ المشيّعون بإلقاء حفنات التراب التي كانوا يحملونها. ولم ينتهي صراخ تشارلي الذي أصبح مزعجاً للجميع.

شعرت بعقلي يتحطم من صوت الضجيج، ككأس نبيذ قامت مغنية أوبرا بكسره في إحدى الحفلات. . .

« في الحقيقة، بعد بضعة أيام، جاءني اتصال من مراسلٍ صحفيٍ كان صديقاً لآندرو، حيث كان يعمل في العراق ودارفور. وعرّف عن نفسه ـ مستشار في قسم معالجة التعب والإرهاق ـ فأجبته، لطف منك، لكنني لم أذهب إلى الحرب يوماً!».

عندما توقف صراخ تشارلي بجانب القبر، حملته وجعلته يتوسد كتفي. لقد كان مرهقاً. لمحت رموشه المبللة بالدموع من خلال فتحات القناع الذي كان على وجهه.

كان الجميع يعودون إلى سياراتهم، وبدأ بعضهم بفتح المظلات، لأنها بدأت تمطر.

النحلة الصغيرة تقف ورائي، بقينا واقفتين بجانب القبر لفترة، تنظر كل منا إلى الأخرى.

ـ شكراً لك!

ـ لا تشكريني! ما فعلته، أي شخص آخر كان يمكن أن يقوم به!

ـ نعم، . . . لكنك الوحيدة التي أقدمت على فعل ذلك!

«هزت النحلة الصغيرة كتفيها، بلا مبالاة»

ـ سهل عليك أن تفعلي ذلك عندما تأتين من الخارج.

ـ « شعرتُ برجفةٍ» بدأ المطر يهطل بقوة! أظن أن هذا لن ينتهي أبداً، ألا تظنين ذلك أيتها النحلة الصغيرة؟

ـ عندما يختفي القمر، لابد أن يظهر مرة أخرى في يوم من الأيام. فهذا ما اعتدنا أن نقوله في قريتي.

ـ أمطار نيسان، تأتي بأزهار أيار! هذا ما اعتدنا قوله في مدينتي.

«ابتسمنا لبعضنا البعض».

نسيت أن ألقي بكومة التراب فوق القبر، كما أنني نسيت أنني أحملها في قبضتي. وبعد ساعتين، عندما كنت جالسة لوحدي في مطبخ المنزل تفاجئت بأنني لا زلت أحملها، ففرشتها فوق طاولة المطبخ، على قماش الطاولة الأزرق النظيف، وعندما عدت إلى المطبخ بعد عدة دقائق، لاحظت أن أحدهم قد قام بتنظيف الطاولة وترتيبها.

بعد بضعة أيام، وصلتني بعض الملاحظات المثيرة للمشاعر حول جنازة آندرو. كان ذلك من صحيفة التايمز، حيث أرسل لي المحرر، الصفحة التي قاموا بنشرها والتي تتحدث عن انجازات آندرو، وقد وضعها في ظرف أبيض مليء بالمجاملات والتعازي.

الفصل الثالث

أودّ أن أفسر أمراً واحداً فقط، للفتيات اللواتي يعشن في قريتي عندما أخبرهن عن هذه القصة. أمراً واحداً فقط، وهو ما تعنيه كلمة « رعب»، فهذه الكلمة لها معنى مختلف هناك.

في انكلترا، إن لم تشعر بالخوف بما يكفي، يمكنك أن تذهب إلى السينما لتشاهد فيلم رعب، وعندما تخرج منها في الليل، ينسج خيالك الرعب في كل مكان. قد ينتظرك بعض المجرمين في المنزل أثناء عودتكِ، وقد تشعرين بوجودهم لمجرد أنكِ نسيتي أن تطفئي إحدى أضواء المنزل قبل أن تخرجي. وعندما تنتهين من إزالة المكياج وأنت جالسة مقابل المرآة، يظهر لك شخصٌ آخر تماماً. وبالتالي تشعرين وكأن أحدهم يطاردك لساعةٍ كاملةٍ. فتفقدين عندها، الثقة بالجميع، ثم يتلاشى هذا الشعور فجأةً. إن الرعب في بريطانيا أمرٌ يجعلكِ تأخذين جرعة منه، حتى تتذكرين أنكِ غير مصابة به.
بالنسبة لي وللفتيات اللواتي يعشن في قريتي، يُعدّ الرعب مرضاً خطيراً الجميع مصاب به.

فهو ليس مرضاً يمكنك الشفاء منه بالجلوس في السينما ومشاهدة فيلم. لأن ذلك سيكون خدعة جيدة. لو كان الأمر كذلك، صدقوني سأكون أول من يقف على شباك التذاكر، وسأضحك وأنا أدفع جنيهاً واحداً ثمن علبة الفشار الساخن وأقول: أووووا شكراً لله . . . لقد انتهى الفيلم . . . كان أكثر فيلم مخيف شاهدته في حياتي ... أعتقد بأني سأشاهد فيلماً مضحكاً في المرة

القادمة، أو فيلماً رومانسياً يحوي مشاهد عاطفية. لكن الفيلم الذي يبقى في الذاكرة، من الصعب نسيانه بسهولة. فهو يعلق في عقلك أينما ذهبت. لذلك عندما أقول بأنني لاجئة، يجب أن تفهموا أنه ليس لدي ملجأ.

أسأل نفسي أحياناً، هل هناك أشخاص مثلي؟

الآلاف من الأشخاص على ما أظن، يعومون الآن في المحيطات. لأنه بين بلادي وفي هذه البلاد، إن لم ندفع نقوداً للمهرّبين لنقلنا، سنضطر عندها للهرب عن طريق سفن الشحن. وفي الظلام، نكون جالسين في حاوياتها. نتنفس بهدوء، نتضور جوعاً، ونسمع أصوات قعقعة السفن، ونشمّ رائحة زيت الديزل والطلاء، بالإضافة إلى صوت المحركات. وطبعاً نكون مستيقظين تماماً في الليل، نسمع صوت الحيتان وهي تقفز من أعماق البحر، ونصلي ونهمس ونفكر بهدوء.

ما الذي نفكر فيه؟

« السلامة الجسدية وراحة البال» وطبعاً «جميع الدول الوهمية التي أصبحنا الآن نخدمهم».

لقد هربت على متن زورق كبير، واقتحم الرعب قلبي. فعندما تركت بلادي، ظننت أنني هربت من الخوف، لكن عندما أصبحت في عرض البحر، بدأت الكوابيس تطاردني. كم كنت ساذجة بتركي لبلادي، فقد كان ذلك حملاً ثقيلا عليّ! لقد تم تفريغ الحمولة التي كنت على متنها، في ميناءٍ على مصب نهر التايمز. لم يتسنى لي المشي على جسر الميناء. بل قام مسؤولو الهجرة بوضعي فوراً رهن الاعتقال. ليس مزاحاً الدخول إلى مركز الاحتجاز. أتريدون معرفة شعوري الحقيقي؟ إن نظامهم قاسٍ للغاية داخل المركز!، لكن معظمهم كانوا لطفاء معي. فقد زودوني بالصناديق الخيرية وألبسوني قميصاً ملوناً وحذاءً ثقيلاً. وأعطوني طلاء أظافر، وبعض الكتب والصحف، مما مكنني من تكلم لغة ملكة بريطانية. وهكذا يمكنني التحدث الآن عن الملاذ والملجأ. أستطيع الآن أن أخبركم بعض الأسباب التي كانت سبباً لهروبي.

هناك أمور يفعلها معكِ الرجال في هذه الحياة، قد تُشعركِ بأنكِ يجب أن تقتلي نفسك. وعندما تدركين هذه الحقيقة، سيلاحقك الأرق في كل لحظة،عندما تتوقعين قدوم أي منهم في أي وقت.

لقد علمونا الانضباط داخل مركز احتجاز المهاجرين، كي نتغلب على مخاوفنا. فكان الانضباط الذي تعلمته هو، «كلما ذهبت إلى مكان جديد، أكتشف طريقة جديدة كي أقتل بها نفسي هناك!. وفي حال قدوم أي رجل، أكون مستعدة لتنفيذها».

عندما دخلت حمام ساره للمرة الأولى، فكرت وقلت في نفسي، أجل أيتها النحلة الصغيرة، قومي بكسر زجاج صيدلية الأدوية التي على الحائط، واجرحي معصميك بالشظايا المكسورة. وعندما اصطحبتني ساره في جولة معها في سيارتها، فكرت، الآن أيتها النحلة الصغيرة! فكي حزام الأمان واقفزي من النافذة باتجاه أول شاحنة ترينها. وعندما ذهبت مع ساره لقضاء يوم في حديقة ريتشموند، كانت ساره تستمتع بمشاهدة الطبيعة، بينما كنت أفكر بالبحث عن حفرة عميقة أجلس فيها بقية عمري، حتى تتحلل جثتي وأصبح هيكلاً عظمياً هشاً، تشتم أثره الحيوانات.

عندما يظهر الرجال أمامي فجأةً، سأكون مستعدةً لقتل نفسي. هل تشعرون بالأسف عليّ؟ لأنني دائماً ما أفكر بهذه الطريقة الكئيبة؟ فلو جاء الرجال ولم تكونوا مستعدين، عندها أنا من سيشعر بالأسف عليكم!

في أول ستة أشهر قضيتها في مركز الاحتجاز، كنت أصرخ كل ليلة. وفي النهار، كنت أتخيل ألف طريقة للتخلص من نفسي. فقد اكتشفت طرقاً عديدة تساعدني على قتل نفسي في كل مكان أتواجد فيه داخل المركز، كالمورفين في الجناح الطبي، والمواد الكيميائية في غرفة التنظيف، والقِدر المغلي في المطبخ. أتظنون أنني أبالغ؟

لقد لجأت بعض الفتيات المعتقلات مثلي، إلى هذه الطرق. حيث كان مسؤولو المركز ينقلون الجثث الميتة في منتصف الليل، لأنه من غير اللائق أن يلاحظ السكان المحليين خروج سيارات الإسعاف من ذلك المكان.

ماذا لو أطلقوا سراحي؟ هل سأذهب إلى السينما وأقتل نفسي هناك؟ربما سألقي بنفسي من السطح العلوي لصالة العرض، أو سأختبئ داخل ثلاجة المطعم، وأنام فيها نوماً أبدياً. أو ما العيب في شاطئ البحر؟، فربما أسرق سيارة آيس كريم وأقودها بأقصى سرعة نحو عمق البحر. عندها لن تجدوا سوى فتاة أفريقية خائفة، تحوّل جسدها إلى ألفي قطعة آيس كريم، تطفو على سطح الأمواج الزرقاء الباردة.

بعد العديد من ليالي الأرق التي قضيتها وأنا أكتشف طرقاً لقتل نفسي في كل زاوية داخل مركز الاحتجاز وخارجه. لا زال خيالي يعمل دون توقف، وقد كنت ضعيفة من شدة الرعب، فوضعوني في الجناح الطبي بعيداً عن المعتقلين الآخرين، حيث قضيت وقتي بين أوراق الوصفات الطبية. وقد علمت بأنهم يخططون لترحيلي إلى بلدي الأصلي «نيجيريا». فبدأت أتخيل طرقاً لقتل نفسي هناك. إن طرق الانتحار في نيجيريا، تشبه كثيراً طرق الانتحار داخل مركز الاحتجاز. الاختلاف يكمن فقط في جمالية المكان، كأن تقتل نفسك في الغابات مثلاً، أو في الجبال، أو داخل القرية الهادئة، الخ.... في مخيلتي، قمت بالمحاولة سرّاً بالانتحار في أكثر الأماكن جمالاً. فذات مرة، في أعماق الأدغال الحارّة، تفوح فيها رائحة الطحالب الرطبة وبراز القرود، قطعت بعض الأشجار وبنيت برجاً عالياً من الخشب، لأشنق نفسي. كنت أحمل منجلاً وأتخيل العصارة اللزجة تغطي يدي اللتين تفوحان برائحة رحيقها. كما كنت أتخيل التعب الذي أصاب ذراعيّ من قطع الأشجار، بالإضافة إلى صياح القرود الغاضبة التي كنت السبب في قطع أشجارها.

فقد كان خيالي يعمل دون توقف، حيث قمت بربط جذوع أشجار الكروم، مستخدمةً رباطاً خاصاً كانت تستعمله شقيقتي نكيروكا. ويعد هذا إنجازاً كبيراً بالنسبة لفتاة صغيرة. كم كنت فخورة بنفسي!

بعد نهاية ذلك اليوم، وعلى فراش المرض في الجناح الطبي، عندما كنت أحلم بالبرج الخشبي الذي عانيت في بنائه، لاحظت أنه كان بالإمكان أن

أقفز من أعلى شجرة في الغابة، وبذلك يرتطم رأسي بالصخرة دون أن أتحمل عناء البناء الذي شيدته في حلمي.

هنا! ابتسمت للمرة الأولى.

بدأت بتناول الطعام الذي قدموه لي. وقلت في نفسي، عليكِ أن تستعيدي قوتك أيتها النحلة الصغيرة! وإلا، فلن تكوني قادرة على الانتحار عندما يحين الوقت لذلك! وعندها ستندمين!

وفي وقت تناول وجبات الطعام، أصبحت أقصد المقصف لأختار طعامي، عوض أن يحضروه لي، وبدأت أسأل نفسي، أي طبقٍ سيساعدني على استعادة عافيتي كي أكون قادرة على الانتحار؟ الجزر أم البازلاء؟

كان في المقصف تلفاز لا يُطفأ. وبالتالي بدأت أتعلم الكثير عن الحياة في بريطانيا، حيث شاهدت برامج عديدة تحت عنوان، جزيرة الحب، ومطبخ الجحيم، وكيف تصبح مليونيراً؟ وكنت أكتشف طرقاً للانتحار من خلال كل هذه البرامج، كالغرق والسكاكين والإستعانة بالجمهور.

في أحد الأيام، قدم لنا ضباط الاعتقال نسخة لكل منا من كتاب، « الحياة في المملكة المتحدة».يصف الكتاب تاريخ بريطانيا وكيفية العيش فيها. ففكرت في طريقة للانتحار في عصر تشرتشل ـ الوقوف تحت القنابل ـ أو في عصر الملكة فيكتوريا ـ أن ألقي بنفسي تحت حوافر حصان ـ أو في عصر هنري الثامن ـ الزواج من الملك هنري ـ .

لقد اكتشفت كيفية قتل نفسي تحت سيطرة حكومات العمل المحافظة، بدلاً من الموت تحت حكم الديمقراطيين الليبراليين.

باختصار! لقد بدأت أفهم سياسة بريطانيا.

خرجت من الجناح الطبي، واستمر صراخي في الليل، لكن ليس في كل ليلة. عندها لاحظت بأنني أحمل حمولتين ثقيلتين جداً، وهما، « الرعب والأمل» وبالتالي أدركت أنني قتلت نفسي، ببقائي حيّةً ترزق.

قرأت العديد من الصحف والروايات الإنكليزية التي كانوا يرسلونها لنا.

وكنت دائماً أضع سطراً تحت الجمل المهمة. وأستخرج المفردات الجديدة من قاموس الجيب الذي كان بحوزتي. وكنت أقف لساعاتٍ أتمرن أمام المرآة، حتى أصبحت الكلمات الصعبة تخرج بطلاقة وعفوية من فمي. قرأت الكثير عن الأسرة الملكيّة، وقد أعجبتني الملكة أكثر من إعجابي بلغتها.

هل تعرفون طريقةً للانتحار أثناء تواجدكم في حفلةٍ تقيمها الملكة اليزابيث الثانية في حديقة قصر بكينغهام الكبيرة في لندن؟ طبعاً هذا لو دعيتم إلى حفلة كهذه! بالنسبة لي! في حفلة كهذه، سأقوم بقتل نفسي عن طريق كأس شمبانيا مكسور، أو بمخلب سرطان البحر المطبوخ والموضوع على مائدة العشاء، أو بقطعة خيار أُنزلها في أسفل فمي، حيث القصبة الهوائية. طبعاً هذا إن ظهر الرجال فجأةً.

كنت دائماً ما أسأل نفسي ما الذي ستفعله الملكة إذا جاء الرجال فجأةً. لا تقولوا لي أنها لم تفكر بالأمر من قبل. فعندما قرأت كتاب الحياة في المملكة المتحدة، أدركت بعض الأمور التي كانت تحدث للنساء اللواتي كن في خدمة الملكة. ولاحظت أن الملكة كانت تعير اهتماماً كبيراً لأمر كهذا. أعتقد بأني لو التقيت بالملكة، سيكون لدينا الكثير من القواسم المشتركة.

إن الملكة تبتسم أحياناً، لكن لو لاحظتم صورة وجهها المطبوعة على القطعة النقدية من فئة الخمس جنيهات، ستلاحظون أنها تحمل حمولة ثقيلةً أيضاً ، فأنا والملكة مستعدتان لمواجهة الأسوأ.

بين الناس، ستشاهدنا نحن الاثنتين نبتسم ونضحك بشكل طبيعي، لكن إن كنت رجلاً ينظر إلينا بطريقة معينة، فتأكد من أننا سنكون في عداد الأموات قبل أن تلمس شعرةً من كلتينا. لا أنا، ولا ملكة انكلترا سنستطيع إسعادك.

من اللطيف أن تعيش بهذه الطريقة. فعندما تكون مستعداً للموت، لا تعاني كثيراً من الرعب. لقد كنت متوترة في الحقيقة، لكن سعيدة في نفس الوقت، لأنني كنت مستعدة للموت في ذلك الصباح الذي أطلقوا فيه سراحنا من مركز الاحتجاز.

سأقصّ عليكم ما حدث عندما جاء سائق التاكسي لاصطحابنا. كنا نحن الأربعة ننتظر خارج مركز احتجاز المهاجرين. لقد كنا ندير ظهورنا لذلك المركز المشؤوم، فهذا ما يفعله المرء عادةً عندما يبقى محتجزاً داخل معدة وحشٍ لمدة عامين، فيبصقك الوحش خارج معدته فجأةً.

وعندها حين تكون في الخارج، تتكلم بهمسٍ خوفاً من أن يتذكرك الوحش ويبتلعك مرة أخرى.

كنت أنظر إلى وجه إيفيت، الفتاة الطويلة والجميلة، القادمة من جامايكا. كلما نظرت اليها، أراها تبتسم وتضحك. لكن في هذه اللحظة، كانت ابتسامتها متوترة كابتسامتي.

ـ ما الخطب، إيفيت؟

ـ «اقتربت من أذني وهمست» أعتقد أن الوضع غير آمن في الخارج!

ـ لكنهم أطلقوا سراحنا! نحن أحرار الآن! ما المشكلة؟

ـ «هزت رأسها وهمست مرة أخرى» ليس الأمر بهذه البساطة يا عزيزتي. صحيح أنهم أطلقوا سراحنا، ونحن أحرار الآن، ولكن تذكري أننا أحرار حتى يستطيعوا الإمساك بنا مرة أخرى. أنا آسفة أيتها النحلة الصغيرة، لكن هذا النوع من الحرية هو ما يطلقون عليه صفة، «مهاجر غير شرعي».

ـ أنا لا أفهمك إيفيت!

ـ أجل، وأنا لا أستطيع أن أشرح لك هنا.

«نظرت إيفيت إلى الفتاتين اللتين كانتا تقفان معنا، ثم التفتت بحذر إلى الوراء ناظرةً إلى مركز احتجاز المهاجرين، وبعدها نظرت إليّ واقتربت من أذني مرة أخرى وهمست»

لقد قمتُ بخدعةٍ أدت إلى خروجنا من ذلك المكان.

ـ ماذا؟ أي خدعة؟

ـ اششش . . . أخفضي صوتك. يوجد العديد من الآذان في مكان كهذا! ثقي بي، يجب أن نجد مكاناً آمناً نختبئ فيه، وبعدها سأشرح لك الوضع عندما نستقر.

كانت الفتاتان الواقفتان معنا تحدّقان بنا. فابتسمت لهما وتجاهلت ما قالته لي إيفيت. كنا نجلس على أعقابنا عند البوابة الرئيسية لمركز الاحتجاز. كانت أسوار المركز عالية جداً، تحوي أسلاكاً شائكة، تمتد على الطرفين مشكلةً قوائم سوداء لعينة.

نظرت إلى الفتيات اللواتي يقفن معي وبدأت أقهقه.

وضعت إيفيت راحتيها على وركها وحدّقت بحدّة في وجهي.

ـ بحق الجحيم! لماذا تضحكين أيتها الحشرة الصغيرة؟

ـ أولاً! اسمي النحلة الصغيرة، إيفيت! وأنا أضحك بسبب هذه الأسوار.

فنظرت إيفيت إلى الأسوار ثم قالت:

ـ ياإلهي، أنتم النيجيريين تبدون أسوأ مما ظننت. أتعتقدين أن هذا السور مثير للضحك؟ آمل ألا أرى هذا السور مرة أخرى.

ـ إنني أضحك على الأسلاك الشائكة يا إيفيت! انظري إلينا جميعاً، فأنا أحمل حقيبة ممزقة فيها ملابس داخلية، وأنت تحملين شباشبك، وهذه الأخرى تلبس ثوب ساري أصفر اللون، وتلك تحمل حقيبة أوراقٍ. هل نحن قادرات على تسلق هذا السور؟

صدقوني يا فتيات، بإمكانهم أن يزيلوا تلك الأسلاك الشائكة ويضعوا عوضاً عنها قطعاً نقديةً وحبات مانغو طازجة على قمة السور، دون أن تستطيع أي واحدة منا تسلقه!

«بدأت إيفيت بالضحك الآن»

ـ أيتها الحمقاء! هل تعتقدين أنهم شيدوا هذا السور كي يحبسوننا في الداخل؟ أجننت؟ لقد بنوه حتى يفصلوننا عن الذكور أيتها الذكية! فالذكور هنا يعرفون نوعية النساء المتواجدات في هذا المكان، ولولا الأسوار لكانوا اقتحموا المكان وحطموا الأبواب.

بدأت أضحك، لكن الفتاة التي تحمل حقيبة الأوراق، والتي كانت تجلس على الأرض موجهةً نظرها نحو الأسفل، قاطعتني.

ـ أين سنذهب جميعاً؟

ـ «إيفيت» سنذهب إلى حيث يأخذنا التاكسي، وعندها نتابع طريقنا. تفائلي خيراً أيتها الفتاة البائسة! فنحن في انكلترا!

نظرت إيفيت نحو بوابة المركز المفتوحة، وكذلك نحن . . .

كما ذكرت سابقاً، كان صباحاً مشرقاً. وكانت شمس أيار الدافئة تشرق علينا من بين الغيوم، السماء كالوعاء الأزرق المكسور، يسكب علينا عسلاً من فتحاته. كنا واقفات في أعلى التلة. يمتد طريق طويل معبّد، يمر من بوابة المركز، متجهاً نحو الأفق. لم تكن هناك عجقة مرور، ينتهي الطريق عند النقطة التي نقف عندها. وعلى الطرفين، تمتد الحقول على امتداد النظر. يا للحقول الجميلة! إن منظر العشب الأخضر النضر يجعلك تشعر بالجوع! نظرت إلى الأرض وتمنيت لو ألقي بوجهي على العشب وآكل بعضاً منه. فهذا ما كان يفعله قطيع من الأبقار على يسار الطريق، وقطيع من الخراف على يمينه.

وفي إحدى الحقول، كان هناك رجل أبيض يقود جراره الزراعي الأزرق الصغير، ويسحب الأرض بأداة لم أعرف وظيفتها بالضبط. وكان هناك رجل آخر يرتدي ثياباً زرقاء يسمونها: « أفروول»، حيث كان يربط بوابةً مغلقة بحبل برتقالي اللون.

تبدو الحقول أنيقةً ومرتبة، والسياج الذي يفصل بينها مستقيماً ومنخفضاً.

قالت فتاة حقيبة الورق،

ـ يا للحقول الكبيرة!

ـ «ردّت إيفيت» لا! لم تري شيئاً بعد! فعندما نصل إلى لندن، سترين! فأنا أعرف أشخاصاً هناك!

ـ أنا لا أعرف أحداً هناك!

ـ فقط افعلي ما بوسعك يا عزيزتي!

ـ «عبست الفتاة» لماذا لم يحضر أحد لمساعدتنا؟ لماذا لم يحضر المسؤول عن

قضيتي لاصطحابي؟ لماذا لم يسلموننا أوراق الإفراج؟

ـ أليس لديك ما يكفي من الأوراق في تلك الحقيبة يا عزيزتي؟ يا إلهي! أحياناً هناك أشخاص لا يجب أن تقدم لهم أكثر مما يستحقون!

«ضحكت إيفيت ،وبدى عليها اليأس» أين ذلك التاكسي اللعين؟

لقد قال الرجل على الهاتف أن السيارة ستكون هنا خلال عشر دقائق!

يبدو لي أنه كان يقصد عشر سنوات!!!

صمتت إيفيت. ثم نظرنا جميعاً باتجاه الأرياف مرة أخرى. كانت المناظر الطبيعية عميقةً وخلابة. وكان النسيم العليل يهبّ عبرها. كنا جالسات ننظر إلى الخراف والأبقار، وإلى الرجل الذي كان يربط البوابة بالحبل. وبعد وقت قصير، ظهر التاكسي من بعيد. فنظرت إيفيت إليّ مبتسمةً.

ـ هل بدى لك سائق التاكسي ظريفاً عندما تحدثتي معه على الهاتف؟

ـ لم أتحدث مع السائق، تحدثت فقط مع صاحب المكتب!

ـ قضيت ثمانية عشر شهراً دون رجل يا حشرتي الصغيرة! من الأفضل أن يكون سائق هذا التاكسي طويلاً وممتلأً، تفهمين ما أقصد؟ فأنا لا أحب الرجل النحيل. كما إنني أحب الرجل الأنيق! وليس لدي وقت للشباب الفاشلين! أليس هذا صحيحاً؟

«تجاهلتها، ولاحظت أن التاكسي قد أصبح بقربنا تقريباً». فنظرت إيفيت إليّ.

ـ أي نوع من الرجال تفضلين يا حشرتي الصغيرة؟

«فنظرت للأرض، حيث وجدت بعض العشب المنبثق من تحت طريق الأسفلت. داعبت العشب بأصابعي، وعندما فكرت في الرجال، أصابني خوف استقر في معدتي كسكاكين تطعن بطني. لم أكن أريد التحدث عن ذلك، لكن إيفيت وكزتني بكوعها قائلة»

هيا يا حشرتي الصغيرة، ما نوع الرجال الذين يعجبونك؟

ـ آآآه . . . أفضل النوع المعتاد!

ـ ماذا؟ ماذا تعنين بالنوع المعتاد؟ طويل؟ نحيل؟ قصير؟ بدين؟

« نظرت إلى يدي . . . وقلت»

ـ أظن أن الرجل المثالي بالنسبة لي هو من يتكلم لغات عديدة، كالإنكليزية والفرنسية واليوروبا وغيرها. بحيث يستطيع التكلم مع كل الأشخاص، حتى مع الجنود، وبذلك يمكنه التعامل مع العنف الذي يتسمون به. فهو غير مضطر للقتال معهم. ومن غير الضروري أن يكون وسيماً، لكنه سيكون جميلاً عندما يتكلم. سيعاملك بلطف، حتى لو حرقت له طعام العشاء أثناء ثرثرتك مع صديقاتك، بدل الاهتمام بالطبخ. ما أجمل أن تسمعيه يقول لك: « أووووا لا يهم».

«نظرتْ إلي»

ـ أعذريني يا حشرتي! لكن رجلك المثالي هذا غير واقعي!

«ردّت عليها الفتاة التي تحمل حقيبة الأوراق»

ـ دعيها وشأنها! ألا ترين أنها عذراء؟

نظرتُ إلى الأرض، وحدقت إيفيت بي لوقت طويل، ثم وضعت يدها على رقبتي، وخاطبت فتاة الأوراق.

ـ وكيف عرفتي أنتِ ذلك يا عزيزتي؟

«نظرت الفتاة إلى حقيبة الأوراق الممزقة التي كانت بين يديها»

ـ أنا أعرف الكثير عن الناس! فقد اطلعت كثيراً!

ـ وطالما تعرفين الكثير . . . لماذا أراك صامتةً دائماً؟

«تجاهلت الفتاة كلامها، فحدقت إيفيت بها جيداً»

ـ على أي حال، ما اسمك يا عزيزتي؟

ـ أنا لا أصرح باسمي أبداً! هذا أكثر أماناً لي.

ـ «باستغراب» وأظن أنك لا تعطين رقم هاتفك للرجال أيضاً؟

«حدقت الفتاة في وجه إيفيت وضربت الأرض بقدمها، وبدأت ترتعش»

ـ أنت لا تفهمين شيئاً! لو كنت تعرفين شيئاً واحداً عن هذه الحياة، لوجدتِ أنه ما من شيء يدعو للضحك.

«وضعت إيفيت يديها على وركها، وهزت رأسها بهدوء»

ـ يا عزيزتي! لم يعد لي في هذه الحياة غير الضحك، أما أنت فليس لك سوى تلك الأوراق التي في حقيبتك!

وصل التاكسي، وكان الشباك الأمامي مفتوحاً، تنبعث منه موسيقى صاخبة. سأقول لكم اسم تلك الأغنية. إنها، « نحن الأبطال» لفرقة موسيقية بريطانية تدعى « كوين». وقد عرفتها لأن واحداً من الضباط في مركز الاحتجاز كان مولعاً بها. كان يحضر معه الستيريو ويضع أغاني الفرقة، فنسمعها ونحن في الزنزانة. وإذا رقصت وتظاهرت بأنك معجبة بالفرقة، يحضر لك الضابط طعاماً إضافياً. لقد أراني مرةً صورة للفرقة، كانت موجودة على غلاف القرص الليزري. ولاحظت أن أحد أعضاء الفرقة، له شعر أسود طويل وغزير، يمتد من رأسه إلى كتفيه، وكأنه يحمل عبئاً ثقيلاً على رأسه. لقد فهمت نمط الأزياء والموضة لدى الإنكليز، لكن منظر هذا الشعر بدى لي نوعاً من العقاب، وليس نوعاً من الموضة.

عندما كنت أشاهد الصورة مع الضابط، مرّ زميله من ناحيتنا ونظر إلى الصورة قائلاً، يا له من ديك!. وقتها سررت بما سمعت، لأنني كنت لا زلت أتعلم لغة الإنكليز، وبدأت أدرك أن للكلمة الإنكليزية أكثر من معنى. فقد فهمت فوراً ما قصده ذلك الضابط، فكلمة ديك كانت تشير إلى منظر شعر المغني. وبالتالي فإن شعره يشبه الديك الحبشي. عندها استنتجت أن كلمة ديك تعني، « أولاً، الديك كنوع من أنواع الطيور، وثانياً، رجل له شعر كالموجود في الصورة».

وطبعاً أنا أقول هذا لأن سائق التاكسي لديه نفس الشعر الذي رأيته في صورة الفرقة الموسيقية!

عندما توقف التاكسي عند البوابة الرئيسية لمركز احتجاز المهاجرين، لم ينزل السائق من السيارة. حيث نظر إلينا من فتحة الشباك.

كان رجلاً أبيض ونحيلاً، يرتدي نظارة شمسية بإطار ذهبي لامع وعدستين

عائمتين. لقد دهشت الفتاة ذات الثوب الأصفر بسيارة الأجرة. أعتقد أنها مثلي، لم ترَ سيارة كبيرة وجديدة من قبل. كانت تحوم حولها، جاملة حقيبتها الممزقة وتلمس سطح السيارة بأصابعها مرددة، امممممممممممم. كانت تتلمّس الأحرف المكتوبة على ظهر السيارة، وتقرأها ببطئ كما تعلمت في مركز الاحتجاز: F..O..R..D امممممممم! « فود »!

وعندما توجهت نحو الطرف الأمامي من السيارة، نظرت إلى المصابيح الأمامية، ثم تراجعت فجأةً ونظرت نظرةً شاملة إلى السيارة وبدأت تقهقه.

كان السائق يراقبها كل الوقت، ثم التفت ونظر إلينا جميعاً، وشعر بأنه قد وقع في فخٍ ما.

ـ يبدو أن صديقتك تعاني من خبل في عقلها.

«وكزتني إيفيت على بطني بكوعها وهمست، الأفضل أن تكلميه أنت يا حشرتي الصغيرة! نظرت إلى السائق، وكانت أغنية « نحن الأبطال» لا تزال قائمة. فلاحظت أنه من الضروري أن أخبر السائق شيئاً يقنعه بأننا لسنا لاجئات. أردت أن أقنعه بأننا بريطانيات وبأننا نستطيع تحدث لغته، وأننا نفهم كل ما يخص ثقافته الإنكليزية. كما أردت أن أطمئنه، لذلك ابتسمت له واقتربت من شباك السيارة»

ـ مرحباً، يبدو عليك أنك . . . ديك!

«لا أعتقد بأن السائق قد فهم ما أقول. بل أصبحت تعابير وجهه أسوأ. هز رأسه بهدوء»

ـ ألم يعلموكم بعض الآداب في الأدغال أيتها القردة؟

«ثم قاد سيارته بسرعةٍ خاطفة، لدرجة أن إطارات السيارة أحدثت صوتاً حاداً كصوت بكاء رضيعٍ أخذ أحدهم زجاجة الحليب من يديه. وقفنا نحن الأربعة ننظر إلى السيارة المسرعة وهي تختفي عن أنظارنا أسفل التلة. وقد شاهدت الأبقار والخراف ذلك أيضاً، ثم عادت لأكل العشب، وعدنا نحن لنجلس على أعقابنا».

هبّت الرياح وهزّت الأسلاك الشائكة الموضوعة على قمة السياج. وكانت

ظلال الغيوم الصغيرة تنجرف عبر الأرياف.

توقفنا عن الكلام لفترة طويلة.

ـ كان من الأفضل لذات الثوب الأصفر أن تكلم السائق، أيتها النحلة الصغيرة !

ـ أنا آسفة، إيفيت!

ـ اللعنة على الأفارقة! يظنون دائماً بأنهم أذكياء، لكنهم متخلفون!

«وقفت وتوجهت نحو السياج، وعندما نظرت من خلاله، رأيت المزارعين اللذين رأيتهما منذ قليل، أحدهما يقود الجرار الزراعي والآخر الذي كان يربط البوابة بالحبل».

جاءت إيفيت ووقفت بجانبي.

ماذا نفعل الآن يا حشرتي الصغيرة؟ لا يمكننا البقاء هنا، دعونا نمشي قليلاً، ما رأيكن؟

«هززت برأسي».

ـ ماذا بشأن أولئك الرجلين في الأسفل؟

ـ هل تظنين بأنهم قد يوقفوننا؟

ـ لا أعرف يا إيفيت! أنا خائفة!

ـ ما الذي تخافينه يا حشرتي؟ ربما يدعننا وشأننا، إلا إذا كنت تخططين بتسميتهم أسماء غريبة (ديك) كما فعلتي مع السائق!

ابتسمت لها . . .

حسناً إذن! لا تقلقي! فأنا سأذهب معك أينما ذهبت. حافظي على«آداب»الأدغال التي تملكينها.

«التفتت إيفيت إلى فتاة حقيبة الأوراق وسألتها»

ـ هل ستأتين معنا أيتها الفتاة التي لا اسم لها؟

«نظرت الفتاة إلى مركز احتجاز المهاجرين»

ـ لماذا لم يقدموا لنا المساعدة؟ لماذا لم يرسلوا لنا الأخصائيين الاجتماعيين لمقابلتنا؟

ـ لأنهم لا يريدون ذلك يا صغيرتي! والآن ماذا ستفعلين؟ هل ستعودين إلى هناك

وتطلبي منهم سيارةً أو صديقاً أو بعض الجواهر النفيسة؟

«هزت الفتاة برأسها بصمت، فابتسمت إيفيت»

ـ بارك الله بك يا عزيزتي، والآن أنت التي ترتدين ثوباً أصفراً! اسمعي! سأسهل الأمر عليك! إن كنت تريدين أن تأتي معنا! فالزمي الصمت!

غمزتها الفتاة ذات الثوب الأصفر، وهزت برأسها موافقةً».

ـ ممتاز! كلنا سنذهب معاً يا حشرتي الصغيرة! سنغادر هذا المكان!.

«التفتت إيفيت نحوي، لكنني كنت أمعن النظر بالفتاة ذات الساري الأصفر، ولاحظت أن هناك ندبةً سميكةً على رقبتها. كانت الندبة بيضاء اللون مقارنةً بجلدها الأسود. معقودةً ولولبية الشكل فوق قصبتها الهوائية. لاحظت الفتاة بأنني أحدق بالندبة، فخبأتها بيدها. نظرتُ إلى يدها ووجدت بها بعض الندوب أيضاً. أعرف أننا اتفقنا على موضوع كيفية النظر إلى الندوب، لكن هذه المرّة، نظرتُ بعيداً، لأننا أحياناً يمكن أن نرى كثيراً من الجمال».

مشينا نحن الأربعة على الطريق المعبّدة إلى أسفل التلة. كانت إيفيت في المقدمة، وكنت أنا ورائها، وكانت الفتاتان تسيران ورائنا، كنت أنظر إلى كعب إيفيت كل الطريق، لم ألتفت، لا يميناً ولا يساراً. كان نبض قلبي يتسارع عندما وصلنا إلى أسفل التلة، صوت الضجيج الهادر للجرار الزراعي يطغى على صوت كعب إيفيت. عندما تلاشى صوت الجرار من خلفنا، شعرت براحة أكبر. حدثت نفسي، نحن الآن بخير . . . لقد تجاوزناهم! لم يكن هناك أي داعٍ للخوف! كم كنت حمقاء!

بعدها توقف ضجيج الجرار. ثم بدأت أسمع تغريد الطيور الذي كسر الصمت.

صرخ أحد الرجال،

ـ انتظروا!

«همست لإيفيت، تابعوا السير!»

انتظروا !!!

«توقفت إيفيت، حاولتُ تجاوزها لكنها أمسكت بذراعي وأوقفتني».

ـ إلى أين يا عزيزتي؟ لما تهربين؟

«توقفتُ، لكنني كنتُ خائفة جداً وأصبحت أتنفس بصعوبة، يبدو أن الفتيات كان لديهن نفس الشعور. همست الفتاة التي لا اسم لها في أذني قائلةً، أرجوكِ! دعينا نعود أدراجنا! ألا ترين أنهم لا يرحبون بنا هنا؟»

تقدم الرجل الذي كان يقود الجرار بعد أن نزل منه، وانضم اليه الرجل الآخر الذي كان يربط البوابة بالحبل. ووقف الإثنان في منتصف الطريق، بيننا وبين مركز احتجاز المهاجرين. كان سائق الجرار يرتدي معطفاً أخضر وقبعة، ويضع يديه في جيوب بنطاله. بينما كان الآخر، الذي يرتدي لباساً أزرق، ضخماً جداً. وقد كان رجل الجرار طويلاً لدرجة أن جواربه كانت ظاهرة من تحت بنطاله، وبديناً لدرجة أن طبقة الدهون كانت واضحة من تحت رقبته. وكان يرتدي قبعة من الصوف. أخرج الرجل علبة السجائر من جيبه، ثم أشعل لفافةً دون أن يبعد نظره عنا كانت لحيته غزيرة وأنفه متورم وأحمر، إضافة إلى احمرار عينيه الذي كان واضحاً. ينفث دخان السيجارة من فمه، ويبصق على الأرض أثناء ذلك، وكانت الدهون التي تكسو جسده تهتز عندما يتحدث.

ـ هل أنتن هاربات يا طفلاتي الصغيرات؟

«ضحك سائق الجرّار وقهقه»

ـ لا تقلق يا ألبرت الصغير!

نظرنا جميعاً إلى الأرض، كنت أنا وإيفيت في الأمام، والفتاتان تقفان خلفنا.

«همست الفتاة التي لا اسم لها في أذني مرة أخرى»

ـ أرجوكي! دعينا نعود أدراجنا! لن يساعدنا أحد هنا، ألا تدركين ذلك؟.

ـ لا تخافي! لن يؤذوننا! فنحن في انكلترا الآن! يختلف الوضع هنا عن المكان الذي كنا فيه!

ـ أرجوك! دعينا نرحل من هنا!

«لقد كانت تقفز بتوتر بحذائها الرياضي الأخضر. كنتُ حائرةً وفكرت، هل

نهرب أم لا؟.

«سألني الرجل الطويل البدين»

ـ هل أنتن هاربات؟

ـ لا سيدي! لقد أطلقوا سراحنا! نحن لاجئات قانونيات!

ـ هل تملكن دليل على ذلك؟

« قالت الفتاة التي لا اسم لها»

ـ أوراقنا الرسمية مع الأخصائيين الإجتماعيين!

«حدق الرجل الطويل البدين بنا جيداً، ثم نظر إلى الطريق المعبّد الذي جئنا منه. ومدّ رقبته إلى الأعلى ناظراً إلى الحقول الأخرى».

ـ لا أرى أخصائيين إجتماعيين هنا!

ـ اتصل بهم إن كنت لا تصدق! اتصل بوكالة الحدود والهجرة! واطلب منهم أن يدققوا بملفاتنا! سيخبرونك بأن أوراقنا قانونية!

«بحثت الفتاة في حقيبة الأوراق التي تحملها، حتى وجدت الورقة التي تريدها»

ـ خذ . . . هذا هو الرقم! . . . اتصل به! وسترى أننا لا نكذب!

ـ لا أرجوك! لا تتصل!

«حدقت الفتاة بإيفيت مستغربةً»

ـ ما المشكلة؟ ماذا دهاكِ؟ ألم يطلقوا سراحنا؟

ـ ليس الأمر بهذه البساطة يا عزيزتي!

«حدقت الفتاة بإيفيت مرة أخرى، لكن هذه المرة بغضب»

ـ ماذا تفعلين؟

ـ أفعل الصواب!

«شعرت فتاة حقيبة الأوراق بالغضب والتوتر الشديد. وبدى الرعب واضحاً في عينيها، فأمسكت إيفيت بيديها»

آسفة يا عزيزتي! تمنيت لو كنت على خطأ!

«ابتعدت الفتاة عن إيفيت بعنف، ثم تقدم سائق الجرار خطوةً للأمام، ونظر إلينا

متنهداً»

ـ يبدو أن الوضع كما توقعتَ يا آلبرت الصغير!

«نظر الرجل إلى وجهي بحزن، فشعرت بتشنجٍ في معدتي».

أنتن يا عزيزاتي في موقف محرجٍ للغاية! فأنتن لا تملكن أوراقاً ثبوتية؟ بعض الأشخاص يجدون منفعةً من ذلك!

«هبت الرياح عبر الحقول، لم أستطيع الكلام».

«سعل سائق الجرّار».

لا دخل للحكومة بهذا! لا يهمني إن كان إطلاق سراحكن قانونياً أم غير قانوني! كيف يطلقون سراحكن بدون أوراق ثبوتية؟ فاليد اليسرى لا تعرف ما تخبئه اليد اليمنى! أهذا كل ما لديكن؟

«حملتُ حقيبتي الممزقة، فنظرتْ الفتيات إليّ وفعلن مثلي».

هزّ سائق الجرّار رأسه.

كما توقعتَ يا آلبرت الصغير!

ـ لا أدري! يا سيد آيرس!

ـ هذه الحكومة لا تهتم بأحد! أنتن لسن أول من يمرّ بهذه الحقول، وتمشين فيها كسكان المريخ. أنتن لا تعرفن حتى على أي كوكب تقفن! يا للحكومة السيئة! فهي لا تهتم باللاجئات ولا بأهل الريف ولا بالمزارعين! إنما تهتم بالثعالب وسكان المدينة فقط!

«نظر الرجل الضخم إلى الأسلاك الشائكة فوق سياج مركز احتجاز المهاجرين الذي أصبح خلفنا، ثم نظر إلى كل واحدةٍ منا».

في المقام الأول، هذا موقف صعبٌ عليكن أيتها الفتيات! في الحقيقة هذا عار! أن تحبسن في مكانٍ كالذي كنتن فيه؟ هل ما أقول صحيح يا آلبرت؟

خلع «آلبرت الصغير» قبعته الصوفية، وحكّ رأسه، ثم نظر إلى مركز الاحتجاز وهو ينفث دخان لفافة التبغ من فتحتي أنفه، والتزم الصمت.

نظر السيد آيرس إلينا نحن الأربعة وقال:

ـ ماذا سنفعل بكنّ الآن؟ تريدونني أن أذهب معكن إلى مركز الاحتجاز، لأقول لهم أن يوقفوكن حتى نتصل بالأخصائيين الاجتماعيين المسؤولين عنكن؟

«حدقت إيفيت بخوف»

ـ مستحيل يا سيد! لن أعود إلى ذلك المكان المخيف! ولا لدقيقةٍ واحدة! أفضل الموت على ذلك!

«نظر السيد آيرس إليّ وقال»

ـ أعتقد أنهم أطلقوا سراحكن بالخطأ! هذا ما أظن! ألست محقاً؟

«تجاهلته، ثم نظرت إلينا الفتيات ليعرفن ما الذي سيحدث».

هل لديكن مكاناً تذهبن إليه؟ أو أقارب؟ أو أي شخص يتوقع زيارة منكنّ؟

«نظرت إلى الفتيات، ثم نظرت إليه»

ـ لا!

ـ هل لديكن أي دليل يثبت بأنكن لاجئات شرعيات؟ سأقع في مأزق لو سمحت لكن بالمرور بأرضي وسيتهمونني بأنني أخفي مهاجرين غير شرعيين. لدي زوجة وثلاثة أولاد! إنها مسألة خطيرة لا مزاح فيها!

ـ نحن آسفون، سيد آيرس، لن نبقى في أرضك! بل سنتابع طريقنا!

«هزّ السيد آيرس برأسه، وخلع قبعته المسطحة، ناظراً داخلها، وأصبح يدورها بيديه مراراً وتكراراً. كانت أصابعه متسخة بالتراب، وأظافره ثخينة ذات لون أصفر».

طار طائر أسود كبير من فوق رؤوسنا، واتجه باتجاه التاكسي الذي غادرنا. وأخذ السيد آيرس نفساً عميقاً، ثم اقترب مني وأراني قبعته من الداخل، كان هناك اسم مطرز على بطانة القبعة، حيث كُتب على قطعة قماش بيضاء، أصبحت صفراء من التعرّق.

ـ هل تقرأين الإنكليزية؟ أترين ماذا كُتب في الداخل؟

ـ السيد آيرس، هذا ما هو مكتوب!

ـ هذا صحيح! نعم، هذه قبعتي! وهذه الأرض التي تقفون عليها الآن هي

مزرعة السيد آيرس. أنا أحرث هذه الأرض، لكنني لا أملك ترخيصاً لذلك. أنا أحرثها فقط في الربيع والخريف. هل تظن بأن لدي الحق في أن أسمح لهؤلاء الفتيات بالمكوث فيها يا آلبرت الصغير؟

«هبّت الريح للحظة، ثم بصق آلبرت على الأرض»

ـ كما تعرف يا سيد آيرس! أنا لست محامياً! أنا مجرد راعي بقر! أليس كذلك؟

ـ «قهقه بصوت مرتفع» يمكنكن المكوث هنا يا فتيات!

«سمعت صوت بكاء مكتوم من الخلف». كانت الفتاة التي لا اسم لها تبكي بحرقة. والفتاة ذات الثوب الأصفر تعانقها وتغني لها بصوت هادئ، كطفل صغير استيقظ من نومه على صوت البنادق».

أبعد آلبرت السيجارة التي كانت في فمه، وحملها بين أصابعه، ثم وضعها في جيب الأوفرول الذي كان يلبسه. وبصق على الأرض مرة أخرى، ووضع قبعته الصوفية على رأسه وسأل.

ـ ما سبب كل هذا البكاء؟

«ردّت إيفيت»

ـ يبدو أن الفتاة لم تعرف اللطف في حياتها، سيد آلبرت!

«فكر آلبرت قليلاً»

ـ أيمكنني وضع الفتيات في الحظيرة سيد آيرس!

ـ شكراً آلبرت! أجل، خذهنّ إلى هناك، وسأرسل زوجتي لترى ماذا سيحتجن.

«التفت آيرس إلينا قائلاً»

ـ لدينا مهجع ينام فيه العمال الموسميين، وهو فارغ الآن. فنحن نحتاجه وقت الحصاد فقط. يمكنكنّ المكوث فيه لأسبوع واحد لا أكثر. وبعدها لست مسؤولاً عنكنّ!

«ابتسمتُ للسيد آيرس، لكنه رفض ابتسامتي بإشارة من يده. ربما هذه الطريقة تشبه نفس الطريقة التي تُبعد فيها نحلةً عن وجهك».

تبعنا نحن الأربعة آلبرت عبر الحقول، حيث مشينا خلف بعضنا البعض،

ومشى آلبرت في المقدمة، يحمل في يديه حبلاً ضخماً برتقالي اللون. وطبعاً كانت إيفيت ترتدي ثوبها الأرجواني وأنا أرتدي الجينز والقميص الملون، ومشت خلفي الفتاة التي لا اسم لها وكانت ما تزال مستمرةً في البكاء، ومشت خلفها الفتاة بالثوب الأصفر والتي لا زالت تغني لها. أفسحت لنا قطعان الأبقار والخراف الطريق حتى نمر، وكأنهم يقولون لنا، يبدو أن السيد آلبرت قد أحضر حيوانات جديدة إلى الحقل!

أخذنا آلبرت إلى بناء كبير بجانب جدول ماء. كانت جدران البناء من القرميد، طولها يصل إلى كتفيّ، وكان السقف من الحديد. يبدو البناء كالنفق، حيث كان السقف بلا طلاء، والجدران بلا نوافذ. لكن هناك منور من البلاستيك في أعلى السقف. يقع البناء في حقل قذرٍ، يحوي بعض الخنازير والدجاج. وعندما وصلنا، توقفت الخنازير عن الحركة ونظرت إلينا، وهرب الدجاج بفزع وتوتر، ناظراً وراءه، خوفاً من أن نلحق به.

كان الدجاج على استعداد للهرب منا في كل خطوة كنا نخطيها للأمام. كنت ألاحظ مخالب الدجاجة المرتجفة والمتوترة، وكان صوت نقيقها عالياً وواضحاً، كأنها ترجونا « ارحلن من هنا». مما أشعرني بالحزن وجعلني أتذكر كيف تركنا أنا وشقيقتي نكيروكا قريتنا في بلادي. حيث انضممنا إلى مجموعة من النساء والفتيات وهربنا عبر الأدغال. كنا نركض كل الليل، ثم نمنا في العراء. لم نجرؤ على إشعال النار، وسمعنا صوت إطلاق نار في منتصف الليل. وسمعنا رجالاً يصرخون كالخنازير المحبوسة داخل قفص، على وشك أن تُذبح. كان القمر كاملاً تلك الليلة، ولو فتح القمر فمه للصراخ، سأكون وقتها مرعوبةً لا محالة. أمسكتْ نكيروكا يدي بقوة. كان معنا بعض الأطفال الرضّع، وبالتالي وجب علينا الغناء لهم بهدوء حتى لا يبدؤوا بالبكاء. وفي الصباح الباكر، لاحظت من بعيد عاموداً طويلاً من الدخان ينبثق من قريتنا. كان دخاناً أسوداً يلوث السماء الزرقاء الصافية. سأل بعض الأولاد

اللذين كانوا معنا «من أين يأتي ذلك الدخان؟» فابتسمت أمهاتهن وقلن، هذا الدخان قادم من البركان يا صغاري! لا تقلقوا!

كنت أتذكر ابتسامات الأمهات التي اختفت عندما كن ينظرن إلى الدخان العائم في السماء الزرقاء.

«كان آلبرت يحدق بي عندما كنت شاردة»

ـ هل أنت بخير؟

ـ أووووا نعم سيدي، شكراً لك!

ـ تستغرقين في أحلام اليقظة هاااا؟ أليس هذا صحيحاً؟

ـ نعم سيدي!

«ضحك آلبرت»

ـ في الحقيقة! أنتم الشباب! يشطح بكم الخيال بعيداً!

فتح آلبرت قفل باب البناء ودعانا للدخول. في الداخل، كان هناك صفين من الأسرّة المصنوعة من الحديد الصلب والمطلية بالأخضر الغامق. كان على كل سرير فراشٌ أبيض نظيف، ووسادات بدون غطاء. كانت الأرضية من الحجر الصلب، الرمادي اللون، وكانت نظيفةً ولامعة. كما كانت أشعة الشمس تشرق على المنزل بالرغم من عدم وجود النوافذ. حيث كانت تدخل من فتحة المنور المربوطة بالسلاسل. وقد قام آلبرت بتعليمنا كيفية ربط كل طرف من السلاسل لفتح المنور، وإغلاقه. دلنا آلبرت على مكان الحمام والمرحاض، ثم غمزنا.

ـ أعرف أن وسائل الراحة هنا ليست بمستوى الفنادق الفخمة. لقد أقام في هذا المكان عشرون فتاة بولندية جئن قبلكنّ، ولم تتذمر الإدارة لذلك. ستتعرضون لبعض الأمور التي تعرض لها الحصّادون عندما كانوا هنا. يبدو أنه عليّ أن أترك عمل المواشي، وأتفرغ لصناعة الأفلام! «كان آلبرت يضحك، لكننا كنا نحن الأربعة نحدق به بصمت».

لم أفهم لماذا ذكر صناعة الأفلام. في قريتي، عندما يتوقف المطر كل

عام، يذهب الرجال إلى البلدة ويحضرون معهم كشاف ضوئي، ومولد ديزل، حيث كانوا يربطون حبلاً بين شجرتين، لنشاهد فيلماً معروضاًعلى ورقة بيضاء ضخمة. لم يكن هناك صوت أثناء العرض. لم نكن نسمع سوى صوت ضجيج مولد الكهرباء وصوت صياح الحيوانات في الأدغال. وهكذا تعرفنا على عالم الإنكليز. كان فيلم « توب غان»، أعلى المسدس، هو كل ما نملك، وقد عرضناه في القرية حوالي خمس مرات.

أتذكر أول مرة شاهدت فيها الفيلم، عندها شعر الصبيان في قريتنا بالحماس لأنهم اعتقدوا أنهم سيشاهدون فيلماً عن المسدسات، لكنه لم يكن فيلماً عن المسدسات، بل كان يحكي قصة رجل عليه أن يسافر بسرعة قصوى، مستخدماً دراجته النارية أحياناً وطيارته الخاصة في بعض المواقف. وعندما ناقشنا الفيلم، قررنا أنا وبعض أولاد القرية أمرين، أولهما، سيكون الاسم المناسب للفيلم: « الرجل الذي كان على عجلةٍ من أمره» وثانيهما، إن العبرة من الفيلم هي أنه يجب على هذا الرجل أن يستيقظ باكراً وألا يضيع وقته في السرير مع تلك الفتاة الشقراء التي كنا نطلق عليها اسم « فتاة السرير» وبذلك لن يكون مضطراً للاستعجال في كل شيء!

«كان ذلك أول فيلم شاهدته في حياتي، لذلك لم أفهم ما قصده آلبرت عندما قال إنه سيتفرغ لصناعة الأفلام. لم يكن يبدو عليه القدرة على قيادة طائرة. لا بل في الحقيقة، حتى أنني لاحظت بأن السيد آيرس لم يسمح له بقيادة جرّاره الزراعي». لاحظنا آلبرت، ونحن نحدق في وجهه، فهزّ رأسه قائلاً:

أووا لا تقلقن، يوجد في الخزائن بعض البطانيات والمناشف، أظن أن السيد آيرس سيجلب لكنّ بعض الطعام. أراكنّ في المزرعة قريباً!

كنا نقف نحن الأربعة وسط البناء، ننظر إلى آلبرت وهو يخرج منه. كان لا يزال يضحك باستهزاء، فنظرت إيفيت إلينا جميعاً قائلةً:

لا تعرنه اهتماماً ! فالرجال البيض مجانين!

وجلست على حافة أحد الأسرّة، وأخذت حلقةً مجففة من حلقات الأناناس،

الموجودة داخل حقيبتها الممزقة وبدأت تأكلها. جلستُ بجانبها، وجلست فتاة الثوب الأصفر مع الفتاة التي لا اسم لها والتي لم تتوقف عن البكاء بعد.
ترك آلبرت الباب مفتوحاً، مما جعل بعض الدجاج يدخل إلى المهجع ويبحث عن بعض الطعام تحت الأسرّة. صرخت الفتاة التي لا اسم لها عندما رأت الدجاج، فرفعت قدميها عن الأرض وتمسكت بإحدى الوسائد.
ـ استرخي يا عزيزتي! لا تخافي! إنه مجرد دجاج! لن يؤذوك!
ها قد بدأنا يا حشرتي الصغيرة!
ـ نعم، إيفيت، . . . ها قد بدأنا من جديد!
ـ يبدو أن وضع تلك الفتاة صعب للغاية، أليس هذا صحيحاً؟
«نظرتُ إلى الفتاة التي لا اسم، والتي كانت تحدق بإيفيت مقطبةً حاجبيها»
ـ نعم صحيح!
ـ ربما هذا هو الجزء الصعب! فبعد أن أطلقوا سراحنا من مركز الاحتجاز المشؤوم، حيث كانوا يأمروننا أن نفعل هذا ولا نفعل ذاك، أصبحنا نسترجع كل تلك الذكريات المؤلمة.
ـ أتظنين أن هذا ما يجعلها تبكي؟
ـ بالتأكيد يا عزيزتي! فنحن الآن نشعر بالتعب من التفكير!
ـ إذن. . . ماذا علينا أن نفعل الآن، يا إيفيت؟
ـ ليس لدي أدنى فكرة يا عزيزتي! فهذه أول مشكلة تعترضنا في هذه البلاد. لن نشعر بالأمان. سنتعرض فقط للإشاعات. عندما تريدين الذهاب إلى مكان ما، تشعرين بشيء يحفزك على ذلك، لكن هنا العكس تماماً يا حشرتي الصغيرة! تجدين الأمان لكن ليس لديك معلومات تنفعك، أتفهمين قصدي؟
ـ ما الذي تقولينه إيفيت! ما تلك الخدعة التي قمت بها؟ كيف جعلتيهم يطلقوا سراحنا بدون أية أوراق رسمية؟
ـ لقد قمت بمعروف لأحد الرجال في المركز، فقام هو ببعض التعديلات على ملفاتنا في الكمبيوتر، ثم وضع أسماءنا في لائحة المسرّحين. فجاء الضباط

وقرأوا أسماءنا على شاشة الكمبيوتر هذا الصباح، فأخرجونا من غرفنا وأوصلونا إلى باب الخروج. إنهم لا يهتمون إن جاء الأخصائي الاجتماعي لاصطحابنا أم لا! فهم مشغولون بالتحديق في صور الفتيات العاريات المنشورة بالصحف والمجلات. وها نحن كما ترين، أحرار أنفسنا!

ـ نعم بالتأكيد! ولا نملك أوراقاً رسمية!

ـ أعرف! وأنا لست خائفة!

ـ لكنني خائفة!

ـ لا تخافي!

«عصرت إيفيت يدي بقبضتها فابتسمت لها . . .»

هذه هي فتاتي القوية التي أعرفها!

«نظرتُ في الغرفة، كانت الفتاتان تبعدان عنا بستة أسرّة. استلقيت على السرير»

ـ إيفيت...؟، هل تعرفين أحداً في هذه البلاد؟

ـ بالتأكيد يا عزيزتي! أعرف وليام شكسبير والليدي ديانا. لقد عرفت أسمائهم أثناء امتحان المواطنة، يمكنك اختباري!

ـ لا! أقصد هل تعرفين مكاناً تذهبين إليه عند خروجنا من هنا؟

ـ طبعاً يا عزيزتي! أعرف أشخاصاً في لندن! النصف الآخر من جمايكا يعيش هناك! ماذا عنك؟ هل لديك عائلة في لندن؟

«أريتها شهادة القيادة البريطانية التي كانت في حقيبتي الممزقة، عليها صورة آندرو أورورك. سحبتها إيفيت من يدي لتلقي نظرةً عليها».

ـ ما هذه؟

ـ إنها شهادة قيادة! وعليها عنوان صاحبها! سأذهب لزيارته!

«حدقت إيفيت بصورة الرجل على الشهادة»

ـ إنه رجل أبيض يا حشرتي الصغيرة!

ـ أعرف ذلك!

ـ حسناً. . . حسناً. . . أنت إما حمقاء أو غبية!

«ابتسمتُ لها لكنها لم تبتسم»

ـ علينا أن نتحد، يا صديقتي! لما لا تأتين معي إلى لندن؟ ربما نجد أحد معارفك هناك!

ـ لا أعرف أحداً هناك، يا إيفيت! كيف لي أن أثق بأشخاص لا أعرفهم؟

ـ ماذا؟ وهل تثقين بهذا الرجل؟

ـ لقد قابلته مرة!

ـ اعذريني يا حشرتي! لكن هذا الرجل لا ينتمي إليك!

ـ لقد التقيت به في بلادي!

ـ ما الذي يفعله رجل كهذا في نيجيريا بحق الجحيم؟

ـ لقد قابلته على الشاطئ!

ـ «قهقهت»، مع العلم أنهن قلن لي أنك عذراء!

ـ لم يكن الأمر كما تظنين!

ـ لا تقولي لي، الأمر ليس كما أظن يا حشرتي المثيرة! يبدو أنك فعلت شيئاً للرجل! وإلا كيف له أن يعطيك شهادة القيادة هذه؟

ـ كانت زوجته برفقته، إيفيت! إنها امرأة جميلة! اسمها ساره!

ـ لماذا أعطاك شهادة القيادة ؟ وزوجته جميلة! يبدو أنه قرر« تباً! لا أريد شهادة القيادة هذه، فزوجتي جميلة وبالتالي لن أذهب لأي مكان! وسأمكث في المنزل أحدق بجمالها!!!

ـ ماذا إذن؟ هل سرقت هذه الشهادة منه؟

ـ لا!

ـ ما الذي حدث إذن؟

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ لا يمكنني إخبارك الآن! لقد حدث ذلك منذ زمن!

ـ ربما قضيتي وقتاً طويلاً في تعلم اللغة الإنكليزية يا حشرتي الصغيرة. لأن كلامك يوحي بالجنون! إنك تعيشين عمراً واحداً فقط لا غير، يا حلوتي! لا تقولي لي أن ذلك لا يهمك!

«تجاهلتها، واستلقيت على السرير ووقع نظري على السلاسل المعلقة في السقف. كانت حلقات السلاسل تتبع بعضها البعض بانتظام. وكان صعباً على فتاة مثلي أن تكسرها. كانت تتأرجح ذهاباً وإياباً وتلمع من أشعة الشمس القادمة من المنور».

ـ يصعب عليّ التفكير في اليوم الذي قابلت فيه آندرو وساره، ترى هل أزورهم أم لا يا إيفيت؟

ـ أخبريني بكل شيء يا حشرتي الصغيرة، وسأقول لك إن كانت زيارتك مناسبة أم لا!

ـ قلت لك، إيفيت! لا أريد التحدث عن ذلك!

«وضعت إيفيت قبضتيها على وركها وحدقت بي بتحدٍ، حسناً والآن أيتها السيدة الأفريقية!

ـ «ابتسمتُ لها» أنا متأكدة أن هناك أسراراً في حياتك لا تحبين إخبار أحدٍ عنها يا عزيزتي إيفيت!

ـ نعم ولكن فقط، لأتجنب الغيرة التي ستلحق بك! فلو قلت لك بعض الأمور التي قمت بها في حياتي من رفاهية ومرح، ستنفجرين من الغيرة والغيظ!

ـ لا، أنا أتكلم بجدّية يا إيفيت! هل تستطيعين الكلام عن السبب الذي جعلك تأتين إلى المملكة المتحدة؟

توقفت إيفيت لوهلة ثم قالت، لا! لن يصدقني أحد لو قلت السبب، فالناس للأسف، يعتقدون بأن جامايكا بلاد الشمس المشرقة والفاكهة الملونة والملابس المثيرة! لكنها ليست كذلك! فإن اخترت الطرف السياسي الخاطئ، سيجعلونك تدفعين الثمن، وعائلتك ستدفع الثمن أيضاً. وأعني بدفع الثمن أنك ستخسرين حياتك للأبد!

التزمت إيفيت الصمت فجأةً، ثم نظرت إلى حذائها. وضعتُ يدي فوق يدها، فتنهدت قائلة، للأسف! لكن الناس لا يصدقون حقيقة بلادي!

ـ إذن! ماذا قلت للرجل في وزارة الداخلية؟

ـ عندما حققوا معي؟ تريدين أن تعرفي ماذا قلت؟

ـ نعم!

ـ قلت له إن ساعدني في الخروج من مركز الاحتجاز، سأسمح له بفعل ما يحلو له معي!

ـ لم أفهم!

ـ أشكر الرب لأن الرجل في وزارة الداخلية يفوقك ذكاءً يا حشرتي الصغيرة! ألم تلاحظي أن غرف التحقيق خالية من النوافذ؟ أقسم بأن زوجة ذلك الرجل لم تعد تعاشره لسنوات! كم كان عنيفاً معي! لقد تطلب الأمر أن أعاشره أكثر من مرة حتى أتأكد بأن أمنيتي في الخروج على وشك أن تتحقق! أتفهمين ما أعني؟

ـ أووووووا إيفيت!!!!

ـ هذا لا شيء مقارنةً بالذي سيفعلونه بي لو عدت إلى جامايكا يا حشرتي!إنه لا شيء!

«ابتسمت إيفيت في وجهي، وبدأت دموعها تنهمر على وجنتيها. مسحتها لها بيدي ثم بكيت أنا الأخرى، لتمسح إيفيت دموعي أيضاً . كان الموقف مضحكاً ، بحيث لم نستطع التوقف عن البكاء. فبدأت إيفيت بالضحك، وبدأت أضحك أيضاً . لم نتوقف عن الضحك والبكاء لفترة وجيزة، وكان صوتنا عالياً مما جعل فتاة الثوب الأصفر تصرخ في وجهنا كي لا نوقظ الفتاة التي لا اسم لها من النوم، والتي كانت تحلم وتتفوه بكلمات غريبة أثناء نومها.

ـ أووووا . . . انظري إلى حالتنا يا حشرتي الصغيرة! ماذا نفعل بأنفسنا؟

ـ لا أدري يا إيفيت! هل تظنين حقاً أنهم أطلقوا سراحك لأنك أقمت علاقة مع موظف وزارة الداخلية؟

ـ أجل يا حشرتي! لدرجة أن الرجل أخبرني بتاريخ اليوم الذي سأخرج فيه!

ـ لكنه لم يعطيك أوراقك!

ـ أووووا نعم! لا أوراق للأسف! هو فقط لعب بملفات الكمبيوتر، وبالتالي جعل الضباط يسمحون لنا بالخروج. لكن إذا أردت الحديث عن الأمور الرسمية والقانونية! فهذه قصة مختلفة! لا أظن أن لديه السلطة لإعطائنا أوراقاً رسمية!

ـ إذن! فأنت لاجئة غير شرعية؟

ـ بالتأكيد يا عزيزتي! وأنت أيضاً! وتلك الفتاتان الحزينتان أيضاً! لقد تم إطلاق سراحنا بسبب ما فعلته مع موظف وزارة الداخلية!

ـ وكيف تم إطلاق سراحنا نحن الأربعة إيفيت؟

ـ لقد أخبرني بأنهم سيشتبهون به إذا جعلني أخرج بمفردي!

ـ وكيف اخترنا نحن الثلاثة؟

ـ ربما أغمض عينيه وقام بقرعةٍ ما! لا أدري!

أصابني صمت مفاجئ . . .

ـ ماذا؟ كأنك لا تشعرين بالرضا يا حشرتي؟ يجب أن تقدّرن ما فعلته لأجلكنّ!

ـ لكن لا يمكننا القيام بالكثير من دون أوراق رسمية! أتعلمين؟ لو بقينا هناك، وخرجنا بطريقة نظامية، لكانت الأوراق معنا الآن!

ـ «قهقهتْ عالياً» أووووه يا حشرتي اللطيفة! لا تسير الأمور هكذا! خاصة بالنسبة للهاربين من جامايكا ونيجيريا! تذكري دائماً يا عزيزتي أن الحل الوحيد في هذه الحالة هو، النفي بعيداً.

«كتبت إيفيت كلمة ـ نفي ـ على جبهتي بإصبعها، ثم ابتسمت، قائلةً»

إذا ما نُفينا إلى بلادنا! سيقومون بقتلنا عندما نعود! هنا على الأقل مازال لدينا فرصة للنجاة يا عزيزتي! أتفهمين ما أعني؟

ـ لكن لن يقبل أحدٌ بتوظيف لاجئات غير شرعيات! كيف سنكسب المال؟ كيف سنعيش؟

ـ أعرف ذلك! لكنك لا تستطيعين العيش أيضاً عندما تكونين ميتة. أعتقد أنك ذكية إلى حد ما، لتفهمي قصدي!

«تنهدتُ مستسلمةً للقدر، وهززت رأسي بالموافقة».

ـ هذا أفضل يا حشرتي! أحبك عندما تكونين واقعية! والآن اسمعي! أتظنين أن هذا الشخص الإنكليزي الذي تحملين شهادة قيادته، سيكون قادراً على مساعدتنا؟

«نظرتُ إلى شهادة القيادة»

ـ لا أعرف!

ـ لكنك لا تعرفين أحداً غيره! صحيح؟

ـ نعم صحيح!

ـ ماذا سنفعل عندما نصل إلى منزل ذلك الرجل؟ طبعاً هذا لو ذهبت معك!

ـ لا أدري! ربما سنبحث عن عمل في مكان لا يطلبون فيه أوراقاً رسمية!

ـ ربما هذا سهل عليك يا عزيزتي! فأنت تتكلمين بلسانهم، وبالتالي ربما تجدين عملاً عندهم!

ـ وأنت أيضاً تحسنين التكلم بلغتهم يا إيفيت!

ـ أنا أتكلم بصعوبةٍ وكلماتي مليئة بالأخطاء، وأبدو كالبكماء عندما أتكلم بلغتهم.

ـ إنك لست بكماء يا إيفيت! كيف لنا أن نكون بكماً بعد أن قطعنا كل هذه المسافة؟

«مالت إيفيت نحوي وهمست»

ـ هل أنت جادّة؟ ألم تري الطريقة التي كانت تقهقه بها ذات الثوب الأصفر عندما كنا في التاكسي؟

ـ إن هذه الفتاة ليست بغاية الذكاء! لكنها الأجمل بيننا!

«حضنت إيفيت حقيبتها الممزقة، ونظرت إلى وجهي قائلة»

ـ لقد جرحتي مشاعري، يا حشرتي! كيف تقولين بأنها الأجمل؟ كنت سأشاركك بحلقتي الأناناس الباقيتين، لكنك الآن لا تعنين لي شيئاً!

«بدأتُ بالضحك، وابتسمت لي إيفيت وهي تلعب بشعري، توقف ضحكنا عندما سمعنا صراخ الفتاة التي لا اسم لها. كانت تقف على سريرها حاملة حقيبة أوراقها، وهي تصرخ بصوت عالٍ أوقفوهم! سيقتلوننا جميعاً! ألا تفهمن أيتها الفتيات؟»

توجهت إيفيت إليها قائلةً:

ـ اسمعي يا عزيزتي! ما من رجال هنا! لن يؤذيك أحد! هذا مجرد دجاج دخل

إلى المهجع! أترين؟ فالدجاج يخاف منا أكثر مما نخاف منه!

«هجمت إيفيت على الدجاج الذي هرب من الفزع، وكانت الفتاة ما تزال واقفة على السرير تصرخ وتصرخ مرتجفةً من الرعب. فجأةً توقفت عن الصراخ، وأشارت بإصبعها المرتجفة»

ـ انظري! انظري إنها ابنتي الصغيرة!

«نظرنا جميعاً إلى الاتجاه الذي كانت تشير إليه، لكننا لم نجد شيئاً. كانت الفتاة الباكية تحدق بشعاع أشعة الشمس المنعكس على الأرض. ومدّت ذراعيها نحو الأشعة، بيدين مرتجفتين».

«فنظرتُ إلى إيفيت وإلى فتاة الثوب الأصفر. ثم حوّلت نظري إلى الفتاة الخائفة التي لا اسم لها وسألتها»

ـ ما اسم الفتاة التي ناديتها «ابنتي الصغيرة ؟»

«ابتسمت لي وقد أشرق وجهها»

ـ اسمها « آبيرا» وهي الأصغر عندي، أليست جميلة؟

«وجهت نظري إلى حيث كانت تنظر وأجبت»

ـ نعم بالتأكيد، إنها جميلة جداً!

«فالتفتّ نحو إيفيت وقلت لها»

أليست جميلة يا إيفيت؟

ـ أووووووووا . . . طبعاً! طبعاً! إنها بغاية الروعة، ما اسمها؟

ـ ... آبيرا!

ـ اسم جميل! اسمعي، عزيزتي آبيرا، لم لا تساعديني على طرد الدجاج خارج المهجع ؟

«قامت إيفيت وفتاة الثوب الأصفر باصطحاب الطفلة الصغيرة الوهمية لطرد الدجاج خارج البناء. أما أنا فأمسكت بيد الفتاة التي لا اسم لها»

ـ إن ابنتك خدومة للغاية! انظري كيف تساعد في طرد الدجاج من المهجع!

«ابتسمت الفتاة المشوشة في وجهي، فابتسمتُ لها. يبدو أنها تشعر بالراحة الآن

بعد أن استعادت ابنتها الصغيرة».

لـو أخـبرت فتيـات قريتـي في نيجيريا بهذه القصة، سـيتحتم عـليَّ أن أشرح لهنّ معنـى كلمـة جديدة وهـي، «فعّالية»، فنحن اللاجئـين فعّالين للغاية!

صحيح أننـا لا نملـك ما نحتاجـه، كأولادنا مثلاً، لكننا نسـتطيع تخيـل وجودهم بيننا بمجـرد النظر لأشـعة الشـمس المشرقة! انظـروا كيف اسـتطاعت ذات الثوب الأصفر أن تملأ حقيبتهـا بكل ما يمثل إشراق أشـعة الشـمس!

اسـتلقيت عـلى السريـر وتمعنـت بالسلاسـل المعلقـة في السـقف. فقـد كانـت تلمع مـن أشـعة الشـمس، لكننـي لم ألاحـظ اللـون الأصفـر كـما يجـب. ربمـا لـون حيـاتي يرتبـط بشـكل كبـير بالرمـادي. فقد قضيـت عامين في مركـز الاحتجاز الرمـادي، وها أنـا الآن « لاجئـةً غـير شرعيـة» ! مـما يعنـي، «أننـي حـرة حتـى يمسـكوا بي!»وأننـي أعيـش عـلى أرضيـةٍ رمادية!

كنت أفكر كيف سأعيش. ربما عليَّ أن أخبئ ألواني وأنزوي في الظلام.

تنهـدتُ وحاولـتُ التنفـس بعمـق، شـعرت بحاجتـي للبـكاء عندمـا نظـرت إلى السلاسـل المعلقـة وتذكـرت اللـون الرمـادي.

كنـت أتخيـل لـو اتصـل بي رئيـس هيئة الأمـم المتحدة محدثا إيـاي، تحياتي أيتها النحلـة الصغيـرة! إننـا نتـشرف بتكليفـك بمهمة تصميم علـم وطني يكـون رمزاً لكل اللاجئـين في كل أنحـاء العالم! .

«عندهـا سـأصنعه ليكـون رماديـاً دون شـك. فلـن أكـون بحاجـةٍ إلى أي نـوع مـن القـماش لصناعتـه. سـيكون العلـم مصنوعاً مـن أي مادّة أو مـن أي شيء. قد أصنعه مـن حمّالـة صـدر لونهـا رمـادي مثـلاً! ويمكنني وضعه عـلى رأس مكنسـة في حال لم أحصـل عـلى عمـود خشـبي. وإذا وضعنـاه على قمـة مبنى الأمـم المتحدة، سـيكون منظـره جميـلاً بين بقيـة الأعـلام الملوّنة».

سأضعه بين علمي الصين والولايات المتحدة.

صحوت فجأةً من حلمي، عندما وكزتني إيفيت قائلةً:

ـ بماذا تحلمين يا حشرتي الصغيرة؟

ـ كنت أفكر باللون الرمادي!

ـ «قطبت إيفيت حاجبيها» أرجوك! لا تصابي بالجنون أنتِ الأخرى!

«استلقيت مرة أخرى على السرير ونظرت إلى السقف، ولم أجد سوى تلك السلاسل الرمادية المتأرجحة. فحدثت نفسي، يمكنني شنق نفسي باستخدام تلك السلاسل! هذا جيد!»

وصلت زوجة المزارع بعد الظهر، وأحضرت لنا الطعام. كان الطعام عبارةً عن بعض الخبز والجبن، وجلبت معها سكيناً حاداً لتقطيع الخبز. «فخطر في بالي، يمكنني تقطيع شرايييني بهذا السكين! طبعاً عندما يأتي الرجال!»

كانت زوجة المزارع امرأة لطيفةً وحنونة.

ـ لماذا تعاملينا بهذه الطريقة اللطيفة، سيدتي.

ـ لأننا كلنا بشرٌ متساوون!

ـ أرجو المعذرة سيدتي! لكنني لا أظن أن إيفيت تنتمي إلى البشر! أعتقد بأنها مخلوق غريب يتميز بزئيرٍ عالٍ!

بدأت إيفيت وزوجة المزارع بالضحك، وتحدثنا بعض الوقت مع المرأة الطيبة التي دلتني كيف أذهب إلى كينغستون المطلة على نهر التايمز. لكنها في ذات الوقت حذرتني من الذهاب إلى هناك، قائلة:

ـ لا تذهبي إلى الضواحي يا عزيزتي! أنصحك بعدم الذهاب إلى هناك! فهذه الأماكن مشبوهة! والذين يسكنونها مشبوهين أيضاً!

ـ«ضحكتُ»، ربما تنتمي فتاة مثلي إلى مكان كهذا!

تفاجأت زوجة المزارع عندما طلبنا منها خمسة أطباقٍ بدل أربعة. لكنها أحضرت الطبق الخامس على كل حال. قسّمنا الطعام إلى خمسة حصص وقدمنا أكبر كمية من الطعام لطفلة الفتاة التي لا اسم لها، لأنها ما زالت في سن النمو. في تلك الليلة، حلمتُ بقريتي، كنت أتذكر عندما صنع الأولاد أرجوحةً من إطار دولاب سيارة قديم، حيث ربط الأولاد حبلاً حوله وعلقوه بين أغصان شجرتين ضخمتين، كانتا قريبتين من مدرسة القرية. كنت أنظر إلى الأولاد وهم يتأرجحون،

وكانت والدتي تجلس بقربي. كنت أحب سماع أصواتهم يمرحون ويضحكون ويغنون، أتذكر الكلمات التي كانوا يرددونها وهم يتدافعون على الأرجوحة، آ آ آي... أوتش... لقد دست على قدمي بحق الله!... لا تدفعني! لقد أوقعتني!كانوا في حالة صراع دائم من أجل الأرجوحة. أتذكر عندما كانت شقيقتي نكيروكا تنزل من الأرجوحة وتحملني بذراعيها، ثم تعطيني قطعاً صغيرةً من العجين غير المطبوخ كي أعصرها بين أصابعي المكتنزة الصغيرة.

كنت بسعادة لا تفارقني وأنا طفلة صغيرة، لم نكن نملك الكهرباء أو المياه المعدنية أو حتى الحزن، لأن هذه الأمور لم تكن تصل إلى قريتنا بعد، كنت أجلس بين جذور الشجرة الضخمة، وأضحك وأنا أشاهد شقيقتي نكيروكا تتأرجح على الدولاب القديم، كان حبل الأرجوحة طويلاً جداً، مما جعل المسافة بين الذهاب والإياب طويلةً وشاقة. لم تكن الأرجوحة على عجلةٍ من أمرها، عندما كنت أشاهدها كل اليوم، لم أدرك أن تلك الساعات التي كنت أقضيها مستمتعةً ليست إلا العد العكسي لنهاية عصر السلام والأمان في قريتي.

لم أكن أدرك بأن هناك حقولاً من النفط مختبئة تحت قريتي البسيطة. ولم أكن أدرك أن قريتي ستتعرض لهجومٍ عنيفٍ من قبل رجالٍ مستعدين لفعل أي شيء للوصول إلى تلك الحقول. هذه هي مشكلة السعادة، فهي دائماً موجودة فوق مكانٍ ما، يطمع الرجال بالحصول عليه بشدة.

عندما كانت تأتي شقيقتي في الحلم وهي تتأرجح ذهاباً وإياباً، استيقظت فجأةً وكانت عينيّ مغرورقة بالدموع، عندما مسحت دموعي، رأيت جسداً يتأرجح من السقف. إنها الفتاة التي لا اسم لها، فقد شنقت نفسها بالسلاسل التي تثبت المنور، فعلت ذلك أثناء نومنا. كانت تتدلى عارية باستثناء فردة حذائها الرياضي الذي ما زال عالقاً بقدمها. كانت نحيلةً للغاية. ضلوعها وعظام وركها بارزة، كانت عيناها مفتوحتان ومتجهتان نحو السماء. سحقت السلاسل رقبتها التي كانت نحيلةً ككاحل قدمها. لقد لاحظت قدميها البنّية اللون وباطنها الرمادي، وهي تتأرجح في الهواء كسمكة قرش تلاحق حذائها الرياضي، الذي يبدو كسمكةٍ فضيةٍ هاربةٍ من القرش تحت ضوء القمر. وكانت السلاسل

تصدر صريراً هادئاً.

نهضت من السرير، ولمست القدم الباردة للفتاة الميتة التي لا اسم لها. ثم نظرت إلى إيفيت وفتاة الثوب الأصفر النائمتين، كانت إيفيت تتمتم أثناء نومها. فذهبت إليها لأوقظها. لكن قدمي انزلقت على شيءٍ رطب. انحنيت إلى الأسفل ولمسته. لقد كان بولاً بارداً متجمعاً تحت الفتاة المنتحرة. نظرت إلى الأعلى، فوجدت قطرة واحدة من البول متدليةً من الإصبع الكبير للفتاة الميتة. لمعت القطرة عندما هبطت إلى الأرضية. وقفت بسرعة منزعجةً من منظر البول. لم أكن أريد أن أوقظ الفتيات لأنهن سينزعجن من منظر البول، لقد جعلتني قطرة البول اللامعة أشعر بالبكاء. لا أعرف لمَ يختار العقل أموراً صغيرةً تساعد على تحطيمه؟

قصدت سرير الفتاة المنتحرة، وحملت قميصها الذي كنت سأمسح به البول الموجود على الأرضية. لكنني توقفت عندما رأيت حقيبتها الممزقة معلقةً على حافة السرير، فتحت الحقيبة وبدأت أقرأ قصة حياتها المكتوبة على الأوراق الموجودة في الداخل.

كانت الجمل تبدأ دائماً ب، «جاء الرجال وقاموا ب...» ،كنت مستمرةً في البكاء، ووجدت صعوبةً في القراءة تحت ضوء القمر الخافت، وضعت الأوراق على السرير، ثم أغلقت الحقيبة بحذر، أمسكت الأوراق في يدي، وعزمت النية «سآخذ قصة هذه الفتاة وأحتفظ بها لنفسي! أستطيع الاحتفاظ بهذه الأوراق التي وضع عليها طوابع رسمية تثبت بأن ما كتب صحيح! ربما سيساعدني هذا على التعويض عن أوراق اللجوء الرسمية التي لم أحصل عليها!».

فكرت لمدة دقيقة وأنا أحمل أوراق الفتاة المنتحرة. أصبح صوت صرير السلاسل يزداد علوّاً. فشعرت أن من واجبي أن أرمي بقصتها على السرير، لأن نهاية القصة كانت معروضةً أمام عينيّ مباشرةً، تعد القصة حدثاً مهماً في قريتي، فتذكرت أن مصير الفتاة التي تحكي قصة غيرها، يكون الهلاك دون شك. فتركت الأوراق فوق سريرها بكل ما تحمله من طوابع وصور توثيقية وأسماء لأطفال مفقودين.

طبعتُ قبلةً خفيفةً على خد إيفيت المستغرقةً في النوم، وخرجت بهدوءٍ إلى الحقول.

أصعب ما فعلته منذ غادرت قريتي، هو تركي لصديقتي إيفيت. ولكن عندما تكون لاجئاً، يجب عليك أن تترك المكان الذي يدخله الموت. فهناك العديد من الأشياء التي تصل مع وصول الموت، كالحزن والإستجواب والشرطة، وبالتالي لا يمكنك التعامل مع هذه الأمور بدون أوراق رسمية.

في الحقيقة، ليس هناك علمٌ رسمي للأشخاص الضائعين مثلي. يوجد أمثالي بالملايين، لكننا لا نشكل دولةً. لا يمكننا البقاء مع بعضنا للأبد. ربما نستطيع أن نكون معاً ليومٍ أو يومين، وربما لشهر أو سنةٍ كاملة. ولكن تُغير الرياح مجراها وتحمل الأمل بعيداً وتفرقنا عن بعضنا.

بدخول الموت إلى المهجع، غادرتُ بخوف. لم يبقَ لي الآن من ذلك المكان سوى العار وذاكرة من الألوان الزاهية، وصدى صوت ضحكات إيفيت، أشعر أحياناً أنني وحيدة كملكة انكلترا.

لم يكن اختيار الطريق صعباً، فقد كانت لندن تضيء سماء إنكلترا كلها، كانت الغيوم تتوهج باللون الأحمر، وكأن المدينة التي تنتظرني، بدأت بالاحتراق. سرتُ فوق التلال وعبر الحقول والغابات، وعندما نظرتُ إلى الوراء للمرة الأخيرة على المزرعة التي غادرتها، رأيتُ ضوء مصباحٍ يُضيء الفسحة الخارجية للمزرعة. ولاحظت وجود بقعةٍ صفراء في الخارج، لابد أنها الفتاة بالثوب الأصفر على ما أظن. فقد كانت المسافة بعيدةً جداً، ولا يمكنني رؤية وجهها. لكنني تخيلتها وهي متفاجئة، كممثلة صعدت خشبة المسرح بالخطأ، وتم تسليط الأضواء عليها.

كنت خائفة كثيراً لكنني لم أشعر بالوحدة. كنت أشعر في تلك الليلة بأن شقيقتي نكيروكا تسير بجانبي. كنت أتخيل وجهها الحنون، حيث مشينا معاً عبر الحقول والغابات طيلة الليل. كنا نتبع أضواء القرى، وأضواء بيوت المزارعين. وكانت الكلاب تنبح عندما تشعر بوجودنا، لكننا لم نتعرّض للمشاكل، استمرينا في السير، وبدأت أشعر بتعب قدماي. بقيتُ مُحتجزةً لمدة عامين في مركز احتجاز المهاجرين، والآن، بالرغم من التعب، أشعر بحريّةٍ وسعادةٍ لا توصف. خاصةً

عندما يلامس جسدك، هواء الليل العليل، وتشعر بالعشب الندي تحت قدميك. لقد كانت أختي سعيدةً بجانبي تلك الليلة، كانت تُغني وهي تمشي. وعندما توقفت لأستريح، ابتسمتْ في وجهي، مما ساعدني على متابعة طريقي بأمان.

تلاشت الغيوم التي كانت تتوهج باللون الأحمر، وبدت الحقول أكثر وضوحاً. في البداية كان كل شيءٍ رمادي، ثم بدأت الألوان تظهر رويداً رويداً بين الحقول، وكأنها تشعر بالتعاسة رغم جمالها. بعد أن أشرقت الشمس، تحول كل شيءٍ إلى ذهب. كان الذهب يحيط بي وكانت الشمس تغطي الحقول بأشعتها اللامعة. بينما الضباب يحوم بالقرب من قدميّ. لكنني انتبهت أن شقيقتي نكيروكا قد اختفت مع حلول الصباح. مع ذلك، شعرت بالتفاؤل لأنني تأكدت من أنها غادرت بعد أن أمدتني ببعض القوة. نظرتُ لما يُحيط بي من جمال الطبيعة وقويت من عزيمتي، «نعم! أنا متأكدة أن كل شيء سيبدو جميلاً كجمال هذه الطبيعة! لن أشعر بالخوف! ولن يكون اللون الرمادي لون حياتي بعد الآن!»

بعد قليل، سمعتُ صوت زئيرٍ عالٍ، فقلت في نفسي: لابد أنها شلالات الماء! يجب عليَّ أن أكون حذرة من هذا الضباب كي لا أسقط في النهر!

أصبحت أمشي بحذرٍ أكثر الآن، وصوت الضجيج يزداد علوّاً. لا يبدو لي أن ذلك صوت النهر. كان الصوت يختلف بين الحين والآخر. وبدأت رائحة الوقود تملأ الجو. أستطيع الآن سماع صوت الشاحنات والسيارات. اقتربت أكثر، ثم صعدتُ إلى منحدرٍ مليءٍ بالعشب الأخضر، وتفاجأتُ عندما رأيت الطريق العام أمامي مباشرةً. كانت السيارات والشاحنات تتحرك بسرعةٍ خاطفة. نزلتُ إلى الطريق، وأشرت بيدي إلى السيارات حتى يخففوا من سرعتهم، كي أعبر الشارع بأمانٍ. لكن أحداً لم يستجب. بل شغل سائق شاحنةٍ مسرعةٍ زموره في وجهي، مما اضطرني للعودة إلى الوراء.

انتظرتُ كي يتسنى لي اجتياز الطريق في حركة المرور هذه، ثم عبرت بسرعةً إلى منتصف الشارع. تسلقت الحاجز الحديدي الذي يفصل طريقيّ الذهاب والإياب. عندها، شغلت كل السيارات زمورها في وجهي بغضب. فركضتُ مسرعةً

إلى الضفة الأخرى دون توقف. وجلستُ على العشب مقطوعة الأنفاس. لقد شاهدتُ خطوط السيارات المسرعة تتخاطف من الطرفين العريضين للطريق العام. لو قلت لفتيات قريتي عن طريق المواصلات هذا، لكان عليَّ أن أفسره لهنّ، كالتالي،«كان الناس يسافرون إلى أعمالهم في الحقول. ولكن، لماذا لا يتبادل الناس اللذين يقودون عرباتهم على الطريق الأيمن، حقول الأشخاص اللذين يقودون عرباتهم على الطريق الأيسر؟ وبالتالي يستطيع الجميع العمل في الحقل القريب من منزله!».

وطبعاً بعدها سأكون مستعدةً لاستقبال الأسئلة الغبية والمحرجة مثل، «ما هو مكتب العمل، وماهي المحاصيل التي يزرعونها في داخله؟».

لقد تخيلتُ لو أنني وقفت في منتصف الطريق السريع وقتلت نفسي تحت شاحنةٍ ما! طبعاً هذا في حال قدوم الرجال!!

لكنني أوقفتُ مخيلتي الواسعة وأكملتُ طريقي، مشيتُ مدة ساعةٍ كاملة عبر الحقول، ثم وصلتُ إلى طرقٍ صغيرةٍ متشعّبة، وكانت هناك بيوتٌ مشيدة فوق تلك الطرق. شعرتُ بالدهشة عندما نظرتُ إليها. كان كل بيتٍ يحوي طابقين مُعمَرين من القرميد الأحمر الصلب، كما كانت تحوي سقوفاً منحدرةً من البلاط المرتب، ونوافذ زجاجية بإطاراتٍ بيضاء اللون. لم ألاحظ أي تخريب. كان كل شيءٍ مرتباً وأنيقاً. وكان كل بيت يشبه البيت الذي يليه، ومقابل كل بيت تقف سيارةٌ في الخارج. مشيت على طول الشارع أمعن النظر في صف السيارات. فقد كانت سيارات جميلة وفخمة ونظيفة، ولا تشبه نوع السيارات التي كانت موجودةً في المكان الذي جئتُ منه.

في قريتي، كان هناك سيارتين فقط، إحداهما «بيجو» والأخرى «مرسيدس».

وصلت البيجو إلى القرية قبل ولادتي، وعرفتُ ذلك لأن والدي هو الذي كان يقودها. ذات مرة، تعطلت السيارة، فذهب أبي إلى إحدى منازل القرية يسأل عن ميكانيكي. لم يكن لدى أصحاب المنزل ميكانيكياً، بل كان لديهم والدتي التي لاحظ أبي أنه بحاجتها أكثر من الميكانيكي، وبالتالي حصل عليها، أما سيارة

المرسيدس فقد وصلت إلى القرية عندما أصبحتُ في الخامسة من عمري. كان سائق المرسيدس ثملاً

واصطدمت سيارته بسيارة والدي «البيجو» ، المركونة بهدوء، كما تركها والدي، طبعاً باستثناء إطار الدولاب الذي سرقه الأولاد لصناعة الأرجوحة التي حدثتكم عنها من قبل. بعد الحادث، نزل السائق من السيارة وطرق باب منزلنا.

ـ أنا آسف!

ـ «ابتسم والدي في وجهه» علينا أن نشكرك يا سيدي! فقد وضعت قريتنا على الخريطة! هذا أول حادث سير يحدث هنا!

«ضحك سائق المرسيدس وأقام لدينا لفترة، ثم أصبح من أعز أصدقاء والدي، لدرجة أنني أصبحت أناديه، عمي!»

عاش والدي وعمّي بسعادة لا توصف، إلى أن جاء اليوم الذي وصل فيه الرجال إلى قريتنا وقتلوهما.

كان من المدهش النظر إلى صف السيارات المرتّب والراقي في هذا الحي المحترم، حيث تمشيت فيه كل النهار، أصبحت الأبنية أضخم وأكبر حجماً. كما أصبحت الشوارع أوسع وأكثر ازدحاماً. كنتُ أحدق في كل شيء، ولم أكترث للجوع الذي كان يمزّق معدتي الفارغة، لأنني كنت مندهشة بكل ما أراه.

كنت كلما شاهدتُ شيئاً للمرة الأولى - كصورة فتاةٍ شبه عارية تضيء على لوحةٍ ضخمة، أو كحافلةٍ ذات طابقين - أشعر بإثارةٍ في معدتي تزداد أكثر فأكثر.

كان الضجيج عالياً. «صوت حركة المرور وصراخ الناس!». لقد كانت الحشود في الشوارع تدفعني وتصطدم بي، ولم يلاحظ أحدٌ وجودي. استمريتُ في المشي بثبات بقدر ما أستطيع، ومن شارعٍ إلى آخر. أصبحت الأبنية أكثر ضخامةً، وأصبح الضجيج أكثر علوّاً. لهثتُ وأنا أعبر آخر طريقٍ مزدحم. كان زمور السيارات يصمّ الآذان، وكذلك صراخ السائقين! استندتُ على حجرٍ أبيض ونظرت إلى نهر التايمز الذي كان أمامي. كانت الزوارق تدفع المياه البنيّة الموحلة برفق تحت الجسور. وكانت الأبراج الضخمة الطويلة تمتد على طرفي النهر. وبعضها ما زال

قيد البناء، حيث كانت الرافعات الصفراء الضخمة تتحرك فوقها. بالإضافة إلى أنهم دربوا الطيور على مساعدتهم في البناء! يا للعجب!

بقيتُ جالسةً على ضفة النهر، أحدّق بعمق في كل تلك المعجزات. أشرقت الشمس الساطعة، وكان الطقس دافئاً. هبّ نسيم عليل على ضفة النهر. همستُ لأختي نكيروكا، لأنه بدى لي أنها موجودة مع تدفق النهر وهبوب الرياح، حيث قلت لها: «انظري إلى هذا المكان يا أختي! سنكون في أمانٍ هنا! سيكون هنالك مكانٌ لكلتينا في مدينةٍ جميلةٍ كهذه! لن نعاني بعد اليوم!»

ابتسمتُ ومشيت بعيداً عن الجسر المطل على النهر، باتجاه الغرب. كنت أعرف أنني لو تبعتُ ضفة النهر، سأصل إلى كينغستون. لهذا السبب يسمونها كينغستون المطلة على نهر التايمز.

كنت أرغب بالوصول إلى هناك بأسرع وقتٍ ممكن. لأنني بدأت أشعر بالخوف من زحمة لندن.

في قريتي، لم نكن نرى هذا العدد الهائل من الأشخاص. إذا وجد هذا العدد الكبير من الناس في قريتي، فهذا يعني أنك أصبحت في عداد الأموات وستذهب إلى مدينة الأرواح. فالأموات يذهبون إلى المدينة ليعيشوا مع بعضهم بالآلاف لأنهم لا يحتاجون إلى مساحةٍ لزراعة حقول المنيهوت!

عندما تكون ميتاً، لن تكون بحاجةٍ إلى نبات المنيهوت، بل ستكون بحاجةٍ إلى الصحبة.

كان ملايين الأشخاص يحومون حولي. حيث كنت ألمح وجوههم بسرعةٍ خاطفة. لم أرَ وجوه أفراد عائلتي. فعندما تفقد الجميع، لا تفقد عادة التحديق في الأشخاص. أمي! أبي! أختي! عمي!

كنت أبحث عنهم جميعاً في كل وجهٍ ألمحه في الطريق. لو استطعتُ لقائهم، سيلاحظون أن أول أمرٍ أقوم به هو التحديق جيداً في وجوههم.

سرتُ بعجلةٍ بين الحشود فوق الجسر المطل على النهر، استرجعت ذكرياتي، عبر مدينة الأشباح هذه.

شعرت بالتعب، فاسترحت بجانب حجرٍ ضخم، حُفر عليه برموزٍ غريبة. تجمدتُ في مكاني للحظة، ثم تدفق الأموات من حولي، كتدفق نهر التايمز الموحل حول دعّامة الجسر.

لو نقلت هذا الإحساس لفتيات قريتي، لكان عليَّ أن أوضح لهنّ أنه، «من الممكن أن تغرق في نهرٍ من البشر، وأن تشعر بالوحدة في ذات الوقت». لكن في الحقيقة، أعتقد أنني لن أجد الكلمات المناسبة لقول ذلك.

الفصل الرابع

في صباح جنازة آندرو، وقبل أن تصل النحلة الصغيرة إلى منزلنا، نظرت من نافذة بيتنا المطل على نهر التايمز، ورأيت بات مان الصغير يحارب الأشرار بجانب بركة الماء. كنت ألاحظ جسده النحيل والبائس، فشعرتُ بضرورة أن أحضر له كوباً من الحليب الساخن. لقد كنت بحاجة إلى تقديم أي شيء يساعده على تحمل الوضع الراهن. كان عقلي يمر بحالة من الوعي الذاتي التي تترافق مع قلة النوم.

نظرت إلى حدائق البيوت المجاورة لحديقة بيتنا، والتي تحوي أدوات الشواء، وأرجوحة للعب. سمعت أصوات السيارات وهدير الطائرات القادم من مطار هيثرو. اتكأت بأنفي على زجاج النافذة وفكرت، لابد أن هذه الضواحي اللعينة هي « المطهر» دون شك! كيف انتهى بنا الأمر بالقدوم إلى هنا؟

في ذلك الصباح الحزين، وفي حديقة البيت المجاور، كان جاري يعلق غسيله المبلل ليجف في الخارج، وكانت قطته تحوم بين قدميه. بينما كنت أستمع للمذياع في غرفة نومي، حيث صرح جون همفريز في برنامجه اليومي أن صحيفة فاينانشال تايمز في وضعٍ سيء.

« لقد فقدتُ زوجي!» نعم! لقد قلتها بصوتٍ مرتفعٍ وأنا أراقب ذبابةً ضعيفةً محبوسة خلف زجاج النافذة. « مات زوجي! أنا خائفة...! لقد انتحر الكاتب الشهير آندرو أورورك!

أشعر بالـ .....

في الحقيقة، لم أستطيع تحديد شعوري أنذاك.ما من لغة معينة تصف كلمة « مأساة». عرفت بأنه يجب أن أشعر بالدمار، بما أن حياتي تقوضت بالكامل.
لقد مات آندروا منذ أسبوع تقريباً، وأنا لازلت صامدة لا أدمع و تفوح من منزلي رائحة الجن والزنابق! أحاول أن أبدو حزينةً كما يجب! أسترجع ذكريات الحياة القصيرة والمختلطة التي عشتها مع آندرو المسكين! وأبحث عن أمرٍ يساعدني على إطلاق الكرب الذي يسكنني، أو حتى بعض الدموع التي من شأنها التخفيف من ذلك الضغط الذي لا يحتمل!
كل هذا سيكون من السهل التعبير عنه على التلفاز على ما أظن! كأن أقول مثلا، « لقد دخلت حياتي في دوامةٍ شديدةِ الانحدار! لا أستطيع أن أتخيل حياتي بدون زوجي!».
من المرهق التنقيب عن الحزن بهذا الشكل! خاصةً عندما تكون غير متأكد من وجوده. شعرتُ للحظة بالأسف على تلك الذبابة المحبوسة داخل النافذة، فتحت المزلاج لأحررها، فطارت بضعفٍ نحو الطبيعة لتواجه مصيرها.
على الجانب الآخر من الزجاج، كنت أشمّ رائحة الصيف، لقد أزاح جارنا حبل الغسيل ثلاثة أقدام إلى اليسار، حيث بدأ بتعليق الجوارب. وكان غسيله يشبه «أعلام الصلاة» التي تتضرع لآلهة النهار، وكأنها تقول: «يبدو أنني انتقلت لأعيش في الضواحي! يا للهول! هل من شيءٍ يمكن فعله؟»
فكرت بالهرب في تلك اللحظة. يمكنني المغادرة بسهولة. كان بإمكاني أخذ تشارلي وبطاقة الإئتمان وحذائي الوردي المفضل، ونصعد جميعاً على متن الطائرة، تاركين خلفنا الحزن والمنزل ووظيفتي. لم يعد لي أي سبب للتواجد في هذا المكان. شعرت أنني منبوذة في هذه الضواحي.
لكن الحياة لا تسمح لنا بالهروب. كانت تلك هي اللحظة الحاسمة التي سمعت فيها صوت جرس الباب. فتحت، فوجدت أمامي النحلة الصغيرة تقف صامتةً دون حراك. حدقت في وجهها لفترةٍ طويلة. وكنت صامتةً أنا أيضاً.
بعد لحظاتٍ قليلةٍ، سمحت لها بالدخول، وجعلتها تجلس على الكنبة في غرفة الجلوس.

جلست مقابل الفتاة الأفريقية، التي ترتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً ملوناً، والتي أحضرت معها ذكريات من الجحيم.

ـ لا أعرف ماذا أقول! اعتقدتُ أنكِ ميتة!

ـ ها أنا، مازلت حيّةً يا ساره! ليتني كنت ميتة!

ـ لا تقولي هذا! يبدو أنك متعبة! إنكِ بحاجةٍ إلى الراحة على ما أظن!

«التزمنا بالصمت لفترة نحن الاثنتين!»

ـ نعم! أنت على حق! أنا بحاجةٍ للراحة!

ـ كيف استطعت النجاة بحق الجحيم؟ أقصد . . . كيف وصلتِ إلى هنا؟

ـ سيراً على الأقدام!

ـ ماذا؟ سيراً على الأقدام من نيجيريا؟

ـ أووووا ساره؟ كفاك مزاحاً! أنا متعبة جداً!

ـ آه . . آه طبعاً! طبعاً! هل أقدم لك كوباً من الـ . . . . . .

«لم أنتظر إجابتها، فتركتها مسترخيةً على الوسائد المريحة من ماركة جون لويز وصعدت مسرعةً إلى الطابق العلوي».

أغمضت عيني ووضعت جبهتي على زجاج نافذة غرفة نومي. ثم اتصلت بصديق، أو بالأحرى، هو أكثر من صديق. كان اسمه لورانس.

ـ ألوا! أين أنت؟

ـ تبدو غاضباً!

ـ أووا . . . ساره! هذا أنتِ! يا إلهي! أنا آسف! اعتقدت أنكِ المربية! فقد تأخرت كثيراً! وهذا الطفل لا يتوقف عن البكاء!

ـ حدث أمرٌ لم يكن في الحسبان، لورانس!

ـ ماذا؟

ـ لقد حضرت فتاة لم أكن أتوقع قدومها!

ـ يحدث ذلك في كل الجنازات! يحضر الكثير من الأشخاص القدامى الذين لا نرغب برؤيتهم، وفي ذات الوقت لا نستطيع طردهم بسبب الظروف الحرجة!

ـ طبعاً! بالضبط! ولكن القصة أكبر من ذلك! إنها... إنها!...

«تلعثمت قليلاً ثم توقفت عن الكلام».

ـ آسف يا ساره! أعرف أن هذا يبدو مروعاً! أنا في وضع رهيب هنا! هل هناك من خدمة أستطيع أن أقدمها لك؟

«ضغطت بوجهي المحمرّ على زجاج النافذة»

ـ أنا آسفة! فأنا مرتبكة قليلاً!

ـ إنها الجنازة! لابد أن تشعري ببعض التوتر! أليس كذلك؟ أنا آسف يا ساره! لكن ما باليد حيلة! أتمنى لو تسمحي لي بالقدوم! كيف تشعرين الآن بعد كل هذا؟

ـ أتتكلم عن الجنازة؟

ـ ليس الجنازة فقط! بل عن كل ما جرى!

ـ لا أشعر بشيء! أشعر بأني بكماء!

ـ أووووا . . . ساره!

ـ أنا في انتظار الحانوتي الآن! أعتقد بأنني ربما متوترة قليلاً ! ليس أكثر! كالمريض الذي ينتظر دوره في عيادة طبيب الأسنان!

ـ بالضبط!

سمعتُ ضجيج أولاده وهم على طاولة الفطور، وأدركت أنه لا يجب إخباره عن قدوم النحلة الصغيرة فجأةً إلى منزلي. ليس الآن على الأقل. فليس من العدل أن أضيف مشكلةً أخرى إلى مشاكله العديدة، كالتأخير عن العمل . . . طفل يبكي . . . ومربية متأخرة . . . آه . . نعم! وفتاة إفريقية من المفترض أن تكون ميتة! مستلقية على كنبة عشيقته! من الصعب عليَّ إخباره. فهنا تكمن المشكلة بين العشاق. والوضع يختلف بين المتزوجين، حيث عليك هنا أن تراعي مشاعر الآخرين.

على أحدنا مراعاة ظروف الآخر، لذلك لزمت الصمت. لقد سمعت صوت لورانس وهو يأخذ نفساً عميقاً وكأنه على حافة الغضب.

ـ إذن! ما الذي يربكك، ساره؟ هل لأنكِ لا تشعرين بشيء؟ وتظنين بأنه من

واجبك أن تشعري به؟

ـ إنها جنازة زوجي! يجب أن أكون حزينة على الأقل!

ـ تستطيعين التحكم بنفسك! أنت لست متسرعة، ساره! هذا كل ما في الأمر!

ـ لا أستطيع البكاء على آندرو! عقلي لا يتوقف عن التفكير بذلك اليوم الذي قضيناه على الشاطئ في أفريقيا!

ـ ساره...؟

ـ نعم...؟

ـ أظننا اتفقنا على أنه من الأفضل لك أن تنسي كل هذا! ما حصل قد حصل! وقد اتفقنا على أن تستمري في حياتك بشكل طبيعي! أليس كذلك؟.

«وضعت راحة يدي اليسرى على زجاج النافذة وحدقت بإصبعي المقطوع».

ـ لا أعتقد أن تجاهل الموضوع سيساعدني على نسيان ما حصل يا لورانس، لا أعتقد أن بإمكاني أن...

«رغبت بالصمت فجأةً!»

ـ ساره..؟ خذي نفساً عميقاً!

نظرت من النافذة ووجدت بات مان الصغير مستمراً في محاربة الأشرار بشراسة قرب بركة الماء. انتهى برنامج المذياع الذي كنت أستمع إليه. وانتهى جاري من تعليق الغسيل، حيث رأيته يقف هادئاً وعينيه نصف مفتوحتين. يبدو أن لديه مهاماً أخرى، كتقطير القهوة مثلاً، أو ملء بكرة الخيوط من جديد. مهام بسيطة وأنيقة لا أكثر.

ـ والآن يا لورانس! بما أن آندرو قد رحل... هل تعتقد أنه أصبح بالإمكان أن نصبح ...

«صمت لورانس على الهاتف! ولم ينبس ببنت شفة» ثم استأنف.

ـ لم يشكل آندرو عائقاً بيننا عندما كان على قيد الحياة. هل هناك من داعٍ لتغيير الأمور الآن؟

«تنهدتُ مرة أخرى».

ـ ساره؟

ـ نعم؟

ـ أرجو أن تركزي فقط على الجنازة في الوقت الحالي! مفهوم؟...

« تباً ! كفّ عن تلطيخ الكومبيوتر بالخبز المحمّص!»

ـ لورانس؟

ـ آسف! آسف! كنت أكلم الطفل! إنه يلطخ كل شيء بقطعة الخبز المليئة بالزبدة! آسف! لكن عليّ أن أنهي المكالمة الآن!

أغلق لورانس سماعة الهاتف. ابتعدت عن النافذة وجلست على السرير، وبدأت أنتظر. لم أستطع النزول إلى الطابق السفلي والتحدث مع النحلة الصغيرة. بل وقفت أحدق في المرآة إلى الأرملة التي تقف أمامي. حاولت البحث عن بعض العلامات الأساسية التي تتشكل عند الوفاة، كالتجاعيد الإضافية على الجبين، أو سواد الجلد تحت العينين، في الحقيقة، لم أجد شيئاً من ذلك! لا شيء! كم كانت عيناي هادئتان، منذ ذلك اليوم الذي كنا فيه على شاطئ أفريقيا. كانت خسارةً لا تقدر بثمن، أكثر بكثير من فقد إصبع أو زوج!

كم كانت عيناي الخضراوتان هادئتين، عندما حدقت في المرآة. هادئتان كبقعة من الماء التي تكون إما ضحلة أو شديدة العمق.

لمَ لم أستطع البكاء؟ فقريباً سأذهب إلى كنيسة مليئةٍ بالمشيعين. قمت بفرك عيني أكثر مما نصح به خبراء التجميل. يجب أن تكون عيناي محمرّةً على الأقل لأقنع المشيعين أن وفاة آندرو تؤلمني كثيراً.

علماً بأنني منذ رحلة أفريقيا، لم أعد أؤمن بالحب الأبدي مطلقاً. وها أنا الآن أضغط بكل قوتي على جلدي، تحت رموشي. في حال لم أستطع أن أري العالم معنى الحزن، سأكون قادرة على الأقل على أن أريه ماذا يفعل الحزن بالعيون. وأخيراً نزلت إلى الطابق السفلي وحدقت مباشرةً في عيون النحلة الصغيرة. كانت لاتزال ممددةً على الكنبة فوق الوسائد، مغمضة العينين.

تقصدتُ السعال، فاستيقظت ونظرت في وجهي. حدقت بها وبعينيها البنيّتين. كان

حذائها ملوثاً بالطين. لم أكن أشعر بشيء.

ـ لم أتيت إلى هنا؟

ـ ما من مكان آخر أذهب إليه! لا أعرف أحداً في هذه البلاد سوى أنت وآندرو!

ـ أنت بالكاد تعرفيننا! لقد كان لقاءاً عابراً لا أكثر!

ـ لم أقابل أحداً غيرك أنتِ وآندرو!

ـ لقد مات آندرو! ونحن ذاهبون لدفنه بعد قليل!

«رمشت النحلة الصغيرة بعينيها اللامعتين».

ـ هل تستوعبين ما أقول؟ لقد مات زوجي! سنذهب إلى الجنازة الآن! إنها نوع من المراسم! نمارسها في الكنيسة عادةً! هذه هي العادات في هذه البلاد!

«أومأت النحلة الصغيرة برأسها»

ـ أعرف ما تفعلون هنا، ساره!

«انتابني الخوف من صوتها المتعب والثخين. هنا سمعت صوت الباب، ففتح تشارلي للحانوتي، وركض نحوي يصرخ بصوتٍ عالٍ، قائلاً:

ـ ماما! لقد وصل بروس وين!

ـ اذهب والعب في الحديقة يا عزيزي!

ـ لكن ماما! أريد أن أرى بروس وين!

ـ أرجوك يا عزيزي! أخرج للعب!

عندما ذهبت لاستقبال الحانوتي عند الباب، لاحظتهُ يُمعن النظر في إصبعي المقطوع. إن الناس يحدقون عادةً بإصبعي، لكن نادراً ما تجد شخصاً يحدق بهذه الدقة الشديدة، وكأنه يحلل ويقول في نفسه: اليد اليسرى! الإصبع الثاني! المجموعة الأولى والثانية! نعم! يمكننا إصلاح ذلك بالمعالجة الشمعية التعويضية! إصبع نحيل مكسو باللحم المصبوغ باللون الأبيض القوقازي! يمكننا استخدام مشدّ كرايولان لتغطية الرباط! وقد نضع اليد اليمنى فوق اليسرى في التابوت! قلت في نفسي: يا له من حانوتي ذكي! ليتني كنت أنا الميتة! لصنع مني هذا الحانوتي امرأةً كاملة!

ـ تعازيّ الحارة سيدتي! نحن جاهزون في أي لحظة تكونين فيها مستعدةً للذهاب!

ـ شكراً ! سأحضر ابني و...صديقتي!

«لقد تجاهل الحانوتي رائحة « الجن» المنبعثة من فمي. وعندما نظر إليّ، لاحظت جرحاً صغيراً على جبينه. كان أنفه مسطحاً ومائلاً. وكانت ملامح وجهه فارغة كعقلي».

ـ خذي وقتك سيدتي!

خرجت إلى الحديقة الخلفية للمنزل. كان بات مان الصغير يحفر تحت الأزهار، ذهبت إليه. كان يمسك بمجرفة، حيث رفع بها زهرة الهندباء من جذورها. كان طائرنا المنزلي الجائع روبن يراقب تشارلي من بعيد وهو يركع ليتفحص الزهرة عن قرب، وسألني:

ـ ماما؟ هل هذه عشبة ضارة؟

ـ نعم يا عزيزي! لكن في المرة القادمة إن لم تكن متأكداً عليك أن تسأل قبل أن تقتلعها!

ـ هل أضعها في البقعة البريّة؟

أومأت برأسي، فحمل تشارلي زهرة الهندباء ووضعها في زاوية صغيرة من الحديقة، خصصها آندرو لموقف كهذا، على أمل أن تجذب هذه الزهور بعض الفراشات والنحل. حيث كتب آندرو مرةً في إحدى مقالاته: «في حديقة منزلي الصغيرة، خصصت زاويةً بريّة لتُذكرني بالفوضى! إن حياتنا العصرية منظمة ومطهّرة كثيراً !»

طبعاً كان ذلك قبل رحلتنا إلى أفريقية!

وضع تشارلي زهرة الهندباء بين القرّاص، ثم سألني:

ـ ماما! هل الأعشاب الضارّة شريرة؟

ـ إن ذلك يعتمد على كونه إما ولداً أو فراشةً. «دحرج بات مان الصغير عينيه، كصحفي يجري مقابلةً مع سياسيٍ مراوغ. لم أستطع منع نفسي من الابتسام».

ـ ماما؟ من تكون تلك المرأة التي تجلس على الكنبة؟

ـ إنها النحلة الصغيرة!

ـ اسم مضحك!

ـ غير مضحك لو كنتَ نحلة!

ـ لكنها ليست نحلة!

ـ طبعاً، ليست نحلة! إنها مجرد شخصٍ قادمٍ من بلدٍ يدعى نيجيريا!

ـ ماما؟ هل هي لطيفة؟

ـ «وقفتُ» علينا الذهاب الآن يا عزيزي! الحانوتي بانتظارنا!

ـ أتقصدين بروس وين؟

ـ نعم!

ـ هل سنذهب إلى كهف الوطواط؟

ـ نوعاً ما!

ـ لحظة واحدة! أنا قادم!

شعرتُ بالعرق يتصبب من ظهري. كنت أرتدي بدلةً صوفية رمادية اللون، وقبعة مائلة إلى السواد. لم تكن القبعة مناسبة لمراسم الجنازة، لكنها في نفس الوقت لا تخرج كثيراً عن التقاليد. وارتديت أيضاً وشاحاً أسود مطوي فوق القبعة. جاهز كي أرخيه على وجهي عندما يحين الوقت المناسب. كم كنت أتمنى لو يخبرني أحد متى سيحين ذلك الوقت.

وضعت في يديَّ قفازات زرقاء داكنة وملائمة بما يكفي للجنازة، كان الإصبع الأوسط للقفاز الأيسر (حيث الإصبع المقطوع) مقطوعاً ومخاطاً. قمت بذلك قبل يومين عندما كنت ثملة، كان إصبع القفاز المقطوع لا يزال موجوداً على طاولة الخياطة، لم أستطع رميه في القمامة.

وضعت هاتفي النقال في جيبي وجعلته صامتاً، في حال نسيت فعل ذلك لاحقاً. كما حملت مذكرةً بمبلغ عشرة جنيهات لأغراضٍ خيرية في حال احتجت إلى ذلك. من غير المرجح أن يطلب منك ذلك في الجنازة، ولكن في حال الطلب، هل عشرة جنيهات تكفي؟ سيكون من البخل أن تحمل خمسة جنيهات! كما أنه من التبذير أن تحمل عشرين جنيهاً !

لم يكن هناك من يمكنني مشورته عن بعض الأمور العادية. وبالتالي لا فائدة من النحلة الصغيرة. حيث لا يمكنني أن أسألها، هل هذه القفازات مناسبة للجنازة؟، لأنها ستحدق في وجهي بصمت كالعادة، وكأنها لم ترَ قفازات زرقاء في حياتها. هل هذه القفازات داكنة بما يكفي أيتها النحلة الصغيرة؟

وطبعاً سيكون الحوار بين لاجئة هاربة من الرعب وبين محررة مجلة شهرية منفعلة، كالتالي، « هل يبدو هذا اللون الأزرق للقفاز جريئاً أو مبتذل وفي غير مكانه؟»

وبالتالي لاحظت أن الأمور العادية في نقاشٍ كهذا ستبدو في غاية الصعوبة مع فتاة كالنحلة الصغيرة، لم يكن هناك من أسأله. لقد رحل آندرو الآن. لم يعد هناك من يعطي رأياً فعالاً حول الحياة في بلدٍ متحضرٍ كهذا.

انتزع طائرنا المنزلي روبن دودةً بمنقاره من نبتة قفاز الثعلب. كان لون الدودة أحمر داكن كلون الكدمات.

ـ تعال يا بات مان! يجب أن نذهب الآن!

ـ دقيقة يا ماما!

كان الطائر روبن يهزّ الدودة بمنقاره. ثم ابتلعها، لينهي حياتها بلحظة، فتنتقل بذلك من النور إلى الظلمات. لم أشعر بشيء عندما شاهدت ذلك. بل نظرت إلى تشارلي حيث يقف شاحباً ومرتبكاً وسط حديقةٍ زُرعت بعنايةٍ. ثم حولت نظري إلى النحلة الصغيرة التي كانت تقف متعبةً وملطخةً بالطين، منتظرةً إيانا كي ندخل إلى المنزل.

أدركتُ الآن أن الحياة قد بدأت، هذه الحياة السخيفة بكل ما تحمله من وسائل للدفاع كنت أملكها، كالمجلة الصفيقة التي أعمل فيها، وزوجي الوسيم، وسلسلة من العلاقات الغرامية والأمومة. لقد وجد العالم الحقيقي طريقه إلى بيتي، وجلس على الكنبة في غرفة الجلوس، لم يعد بالإمكان إنكاره أكثر من ذلك.

عندما دخلت إلى المنزل من الباب الخلفي، توجهت إلى الباب الأمامي لأخبر الحانوتي بأننا سنكون جاهزين خلال دقائق.

أومأ الحانوتي برأسه، ثم نظرت إلى الرجال الواقفين ورائه. كانوا شاحبين وثملين. فقد شربوا الكثير من « الجن» ولم يكن صعباً عليّ ملاحظة التعابير الرسمية البادية عليهم. نظر الرجال إليّ بشفقة، فكان الإحساس غريباً. بالنسبة لامرأة ذات مهنة محترمة، يشفق عليها رجال يضعون وشوماً ويشعرون بالصداع! يبدو أن الناس سينظرون إليّ بهذه الطريقة من الآن فصاعداً، كمواطنة غريبة، كان عليها عدم المجيء إلى هذه البلاد.

كانت سيارة الليموزين وعربة الموتى تنتظران في الشارع أمام منزلنا. اقتربت من نافذة عربة الموتى ونظرت من خلف الزجاج إلى تابوت آندرو الموضوع فوق البكرات الفضيّة اللامعة.

حدثت نفسي، «آندروا! زوجي لمدة ثمان سنوات! يجب أن أشعر بشيءٍ الآن!»

ثم انتبهت إلى البكرات وقلت: «بكرات؟ هذا عمليٌّ للغاية!»

كانت البيوت المنفصلة تمتد على جانبي الطريق، وكانت السحب تعبر السماء بتملقٍ، موحيةً بهطول الأمطار. نظرتُ إلى الوراء حيث تابوت آندرو وفكرت بوجهه الميت. كيف مات موتاً بطيئاً خلال العامين السابقين؟ كيف لم ألاحظ ذلك التحول في تعابير وجهه؟ «من الموت الوشيك إلى الموت الأكيد!». أصبح وجه زوجي الحيّ ووجه زوجي الميت منفصلان بالنسبة لي. أشعر وكأنني سأرى الوجهان تحت غطاء النعش، منصهران كالتوأم السياميّ...عيون مفتوحة... ناظرة إلى ما لا نهاية في كلا الاتجاهين.

وفجأةً جاءتني فكرة تحمل في طياتها كل معاني الرعب، «كان آندرو رجلاً حنوناً... محباً...ورائعاً». لم تفارقني هذه الفكرة عندما كنت أحدق بتابوت آندرو، فقد وضعتها مباشرةً أمام ذاكرتي كعلم هدنةٍ مؤقت. لقد تذكرت الصحيفة التي عملنا فيها أنا وهو عندما التقينا للمرة الأولى. كان آندرو وقتها يتشاجر مع محرر الصحيفة حول بعض المبادئ السامية التي أدت إلى طرده من العمل. عندما رأيته يخرج غاضباً إلى الرواق، قلت في نفسي: أنا فخورة بهذا الرجل!

اكتشف آندرو وجودي وأنا أتنصت في الرواق، مندهشةً بسبب قرار طرده من العمل. تظاهرت حينها بأنني ذاهبة إلى غرفة الأخبار، وعندما التقيت به وجهاً

لوجه. ابتسم لي متردداً، ثم خاطبني «هل تحبين تناول العشاء مع زميل سابق؟» كان نصيب غير متوقع، وارتباطٌ كاصطياد البرق في زجاجة.

أصبح زواجنا مملاً بعد ولادة تشارلي، كان ذلك البرق كل ما استطعنا الحصول عليه. وكل الحرارة (حرارة الحب) التي استُقطبت منه انتقلت إلى طفلنا. وقد ساهمت نيجيريا في تسريع البرود في علاقتنا الزوجية، ثم جاء الموت الآن وقضى عليها. لكن الاستياء وعلاقتي الغرامية مع لورانس حضرت قبل مجيء الموت. هذا ما كان يدور في عقلي في تلك اللحظة. لم يكن حزني سريعاً على آندرو، لأنني فقدته ببطء شديد، فقد رحل من قلبي أولاً، ثم من عقلي، وأخيراً من حياتي. هنا ! وصل الحزن الحقيقي! كانت صدمةً كالزلزال الذي يرتجف في داخلي. لقد ارتعدت! ولكنني لم أذرف دموعاً!

دخلت إلى المنزل لاصطحاب تشارلي والنحلة الصغيرة. كنت مشتتة الذهن! مصابة بالدوار! مشوّشة!

خرجنا إلى جنازة زوجي، وأنا لازلت أرتجف. أدركت وقتها أننا لا نبكي على الميت، بل على أنفسنا. وشعرت بالتالي أنني لا أستحق حتى الشفقة على نفسي. وبعد أن انتهى كل شيء، قام أحدهم باصطحابنا إلى المنزل. كنت متشبثة بتشارلي في المقعد الخلفي للسيارة، حيث تفوح منها رائحة السجائر القديمة. وكزت تشارلي على رأسه، وأشرت بإصبعي إلى كل الأشياء التي كنا نراها من نافذه السيارة. كالبيوت المريحة، والمحلات التجارية والسيارات، على أمل أن يساعدنا لفظ أسماءها على تجاوز محنتنا. لم أكترث للباس بات مان الملطخ بالطين، فعندما نصل إلى المنزل سأضعه في الغسيل، وأعطيه لباس بات مان الاحتياطي النظيف. وعندما أشعر بالألم أثناء فتح غطاء علبة مسحوق الغسيل، سألجأ لاستعمال اليد الأخرى.

كنت جالسة مع تشارلي، نراقب دخول الماء إلى الغسالة من وراء بابها الزجاجي المدوّر. كانت تترنح وهي تدور كالعادة، بدأنا أنا وتشارلي حديثاً عادياً. كانت تلك هي اللحظة الأسوأ بالنسبة لي. سألته ماذا يريد أن يتناول

على الغداء. فقال لي بأنه يريد رقائق البطاطس. فرفضت طلبه! لكنه أصرّ! ثم أذعنت! كانت مهمة سهلة في تلك اللحظة. وكان تشارلي على علمٍ بذلك. حيث تغاضيت أيضاً عن الكتشاب والآيس كريم.

لاحظت ملامح النصر ترتسم على وجه تشارلي وعينيه المليئة بالرعب. هناك ألم مبرح وراء كل تلك الألفاظ العادية.

بعد تناول الغداء، اصطحبت النحلة الصغيرة تشارلي إلى الحديقة لتلعب معه. كنت أوجه كل تركيزي على ولدي لدرجة أنني نسيت وجودها. ومن المفاجئ أنها لم ترحل.

جلست بكل هدوء على طاولة المطبخ، جاءت والدتي وشقيقتي بعد انتهاء مراسم الجنازة. وبدأت مراسم ما بعد الجنازة من نقد وإشادة، تدليل وترتيب وتنظيم للحدث.

لو أخذ أحدهم صورة تذكارية بانورامية لنا جميعاً، سأظهر أنا لوحدي في الصورة، محاطةً بهالةٍ من الأطياف التي تأخذ لونها الأزرق السماوي من السترة الصوفية التي كانت أختي ترتديها، وستأخذ غرابتها من سلوك والدتي المفرط في الاطمئنان عليّ، إن كنت على ما يرام أم لا!

بالكاد سمعت صوت والدتي وهي تحوم حولي لمدة ساعة.

احترم الجميع صمتي المطبق.حيث كانوا يغسلون الصحون بهدوء تام. ويرتبون بطاقات التعزية حسب الأبجدية، ويقللون من صوت الحفيف المزعج أثناء التحرك في أرجاء المنزل. طلبت منهم بلطف أن يرحلوا!

وبعد عناق حميمٍ جعلني أندم لأنني طلبت منهم الرحيل، عدت إلى طاولة المطبخ وجلست أراقب النحلة الصغيرة وهي تلعب مع بات مان في الحديقة.

أعتقد أنه من التهور أن نغادر منزلنا، لنقضي صباحاً كاملاً في جنازة. ففي غيابنا قد يحتل بعض الأشرار شجيرة الغار في الحديقة، وبالتالي يجب التخلص منهم بمسدسات تشارلي المائية وعصا الخيزران. وهذا طبعاً عمل شاق وخطير. لقد كانت النحلة الصغيرة تزحف بيديها وركبتيها متوجهة إلى شجيرة الغار لتحاصر

بعض الأشرار حيث كان تشارلي يتربص بهم في الجهة الأخرى حاملاً مسدسه المائي، مستعداً لإطلاق رصاصة الرحمة. تعجبتُ حقاً من صحبتهم السريعة! لم أكن أرغب بذلك! لكن ما باليد حيلة! هل أدخل الحديقة قائلةً: أيتها النحلة! ابتعدي عن ولدي من فضلك! عندها سيعارض تشارلي قراري وسيطالبني بتفسير لذلك، عندها لن أجرؤ أن أخبره بأن النحلة الصغيرة ليست صديقتنا، خصوصاً بعد أن شاركته في قتل العديد من الأشرار في الحديقة.

لكن! هل أتجاهلها؟ هل أتجاهل ما حدث لي في إفريقيا؟ لا... لا لن ينفع ذلك! بالإمكان نفي الذاكرة إلى أجل غير مسمى، وترحيلها من الوعي بالانغماس بالروتين اليومي، كالعمل في مجلة ورعاية طفل ودفن الزوج. أما فيما يتعلق بمخلوق بشري، فالموضوع مختلف كلياً! كوجود فتاة نيجيرية على قيد الحياة، تقف في حديقة منزلي!

تستطيع الحكومات أن تستنكر أموراً كهذه، أو أن تنأى بشذوذات المجتمع بالإحصاء، أما البشر العاديون فلا يستطيعون ذلك!

عدت إلى طاولة المطبخ وحدقت في إصبعي المقطوع، وأدركت أن الوقت قد حان أخيراً كي أواجه ما حصل لي على الشاطئ.لقد حدث ذلك بطريقة غير اعتيادية. هناك العديد من البلدان في العالم، والعديد من المناطق الموجودة داخل العقل البشري، من غير الحكمة أن نسافر إليها. كنت دائماً أؤمن بذلك كامرأة حكيمة...مستقلة... غير متهورة، لكنني كنت أود أن يكون لي صلات مع أماكن جديدة كبقية النساء الحكيمات.

يا لذكائي! لقد ذهبت في عطلةٍ إلى مكانٍ مختلف! لم نكن أنا أو آندرو على علمٍ بوجود حرب من أجل النفط في نيجيريا! كان الصراع محدوداً... محيراً وبالكاد تم ذكره إعلامياً. ولازالت الحكومتان البريطانية والنيجيرية تنكران ما حدث إلى هذا اليوم. والله أعلم! كم من حكومات أخرى أنكرت ما حدث!

ما زلت أتعجب! كيف خطر في بالي القبول بالذهاب في رحلة إلى نيجيريا؟ كم أتمنى أن أدعي بأن هذه الرحلة هي العرض الوحيد الذي جاءني من مكتب

السياحة والسفر. لكننا حصلنا على عروض عديدة إلى بلدان أخرى. ليتني اخترت توسكاني مثلاً، أو . . . بليز!

ربما كانت الدول السوفيتية السابقة واسعة إلى حدٍ ما في ذلك الموسم! لكن لا! أنا هي العنيدة! أنا من ساهمت في إطلاق مجلة نيكسي بدلاً من اختيار مهنةٍ أخرى. أنا من بدأت بعلاقة غرامية مع لورانس بدلاً من إصلاح علاقتي مع آندرو! لقد حرّك ذلك العناد لذة المراهقين لديّ عندما وصلني طرد إلى مكتبي مكتوبٌ عليه، لم لا تجربين نيجيريا كرحلةٍ سياحيةٍ في عطلة هذا الموسم؟

لقد كتب أحد أفراد هيئة التحرير ذلك بقلم التخطيط الأسود، مما سحرني ودفعني إلى فتح الطرد، فسقطت منه تذكرتي سفر مع حجزٍ في فندق. كان ذلك الشعور كالظهور فجأةً بالبكيني في المطار.

رافقني آندرو رغماً عنه، وقد حذرت وزارة الخارجية من تجنب بعض الأماكن في نيجيريا. لكننا لم ندرك أن المكان الذي زرناه كان ضمن التحذير. فقد كان آندرو متردداً، لكنني ذكرته بأننا سافرنا إلى كوبا في شهر العسل، بالرغم من الخطورة التي كانت تحيط ببعض الأماكن هناك!

استسلم آندرو للأمر الواقع! وربما فعل ذلك كي يحافظ عليّ!

لقد أوضح مجلس السياحة الذي أرسل التذكرتين أن شاطئ آيبينوا يُعدّ «وجهةً للمغامرة». في الحقيقة، كانت الجائحة في الحدود! ففي الشمال، غابات تسبب الملاريا. ونحو الغرب، نهر الدلتا البنيّ الواسع، حيث النفط. وقد عرفت حينها أن هذا النهر منتفخ من جثث عمال النفط. وإلى الجنوب، هناك المحيط الأطلسي.

على تلك الحافة الجنوبية، قابلت فتاةً لا تنتمي لطبقة القرّاء الذين يقرؤون مجلتي. لم تكن سوى النحلة الصغيرة، هاربةً من قريتها التي تحولت إلى حقل نفط، متجهةً نحو الجنوب الشرقي بقدمين نازفتين. لقد هربت من الرجال الذين كانوا يريدون قتلها بعد أن قبضوا نقوداً كي يفعلوا ذلك. كما هربت أيضاً من الأولاد الذين طُلب منهم اللحاق بها ليقوموا بنفس المهمة.

جلستُ على طاولة المطبخ وأنا أتخيل كيف هربت هذه الفتاة عبر الحقول والغابات، إلى أن وصلت إلى الشاطئ الذي كنا أنا آندرو موجودين فيه. لقد كان ذلك الشاطئ هو أبعد ما وصلت إليه النحلة الصغيرة.

حكّني إصبعي المفقود لمجرد التفكير بذلك.

عندما دخلت النحلة الصغيرة مع تشارلي إلى البيت، قلت له أن يذهب ويلعب داخل كهف الوطواط في غرفته، وأرشدت النحلة الصغيرة على مكان الحمام، وأعطيتها بعض الملابس النظيفة.

عندما ذهب بات مان إلى السرير، سكبت كأسين من الجعة.

أمسكت النحلة الصغيرة بكأسها، وبدأت تلعب بمكعبات الثلج، أما أنا فشربت كأسي دفعةً واحدة كالدواء.

ـ حسناً! والآن! أنا جاهزة كي تخبريني بكل شيء!

ـ تريدين أن تعلمي كيف نجوت؟

ـ من البداية من فضلك! أخبريني كيف كان ذلك مذ وصلت إلى الشاطئ!

لقد أخبرتني كيف اختبأت قبل أن تصل إلى الشاطئ. وكيف ركضت لمدة ستة أيام، ليلاً عبر الحقول، وكيف كانت تختبئ في الغابات والمستنقعات عندما يحل الفجر.

أغلقت المذياع في المطبخ، وجلستُ بهدوء أستمع إليها وهي تخبرني كيف اختبأت في نتوء غابةٍ مطلةٍ على البحر، حيث مكثت هناك معظم أوقات النهار الدافئة وهي تراقب الأمواج. قالت لي بأنها لم ترَ البحر من قبل، بل أنها لم تكن تؤمن بوجوده حتى.

في وقتٍ متأخر من الظهيرة، اكتشفت نكيروكا، شقيقة النحلة الصغيرة، مكان اختباء أختها، فجلست بقربها وتعانقا لفترة طويلة. كانت النحلة سعيدة لأن أختها لحقت بها، ولكنهما كانتا خائفتين أن يلحق بهنّ آخرون من أهل القرية. حدقت نكيروكا في عيني شقيقتها وقالت بأن عليهن تغيير أسمائهنّ، فليس من الأمان أن تستخدمن أسمائهن الحقيقية التي يتم تداولها بين أفراد القرية وبصوتٍ عالٍ.

اختارت نكيروكا اسم «اللطف» بديلاً عن اسمها الحقيقي. حاولت النحلة الصغيرة أن تجد لها اسماً جديداً، لكنها لم تجده بسرعة كما فعلت شقيقتها. انتظرت الأختان، بينما كانت الظلال تزداد عمقاً. حضر طائران لتناول الحبوب من الأشجار العالية... «كانت قد أخبرتني النحلة الصغيرة ونحن جالستان في المطبخ، أنها لن تنسى أبداً تلك اللحظة الحاسمة من حياتها». طارت نحلةٌ بينها وبين شقيقتها على نسيم البحر. كانت نحلةً صغيرةً حطت على زهرة فرانجيباني شاحبة. مع العلم أنها لم تكن متأكدةً من الاسم الأوروبي للزهرة. وبعدها طارت النحلة بهدوء دون أية ضجة. لم تكن منتبهةً لجمال الزهرة قبل وصول النحلة. عندها التفتت إلى شقيقتها وأعلنت، سيكون اسمي النحلة الصغيرة!

عندما سمعت نكيروكا هذا الاسم، ابتسمت لشقيقتها. لقد أخبرتني النحلة الصغيرة أن أختها الكبيرة كانت بغاية الجمال. فكان رجال القرية معجبون بها لدرجة أنهم يقولون بأنها، «تُنسيهم مشاكلهم». بينما كانت النساء تجدنها مشكلةً بحد ذاتها. احتارت النحلة الصغيرة أيهما الأصح.

بقيت الشقيقتان جالستان بهدوء حتى غروب الشمس. ثم نزلتا إلى الرمال ولامست قدميهما الأمواج. لسع ملح البحر الجروح التي كانت على جلدهنّ، لكنهنّ لم تصرخن من الألم. فقد كان من الأفضل لهنّ التزام الصمت، ربما استسلم الرجال اللذين يلاحقونهن، وربما لا!

فقد شهدت الشقيقتان ما حلّ بقريتهنّ! على الأغلب، لن يكون هناك ناجين ليقصّوا ما حدث!

كان الرجال يطاردون النساء والأطفال الهاربين ويقتلونهم ويدفنونهم تحت فروع الأشجار والصخور.

ضمدت كل أختٍ قدمي الأخرى بورق الشجر الأخضر وانتظرتا حتى حلول الفجر. لم يكن الطقس بارداً، لكنهما كانتا ترتجفان من شدّة الجوع. وكانت القرود تصيح تحت ضوء القمر.

مازلتُ أفكر بأمرهنَّ وهما ترتجفان خلال الليل. لم تكن صورتهن تفارق مخيلتي. تخيلتهن كسرطاني بحر يتتبعان رائحة الدماء على الشاطئ، لكنهما لم يجدا

مخلوقاً ميتاً بعد. كانت مخالب السرطانين تصدر صوت طقطقة خفيفة تحت النجوم البيضاء اللامعة. ثم يختبئ واحدٌ تلو الآخر تحت الرمال للانتظار!

تمنيت لو لم يكن عقلي ممتلئاً بتلك الأفكار المخيفة. تمنيت لو كنت كباقي النساء اللواتي تهتممن بالأحذية والحقائب. تمنيت لو لم ينتهي بي المطاف إلى الجلوس في المطبخ والاستماع إلى فتاة لاجئة تتكلم عن خوفها الشديد من الفجر.

كانت النحلة الصغيرة تروي القصة على طريقتها، حيث الضباب الأبيض الكثيف يغطي الغابات عند شروق الشمس، ليمتد فوق الرمال. شاهدت الأختان زوجان أبيضان يسيران على الشاطئ. كانا يتحدثان باللغة الرسمية التي يتم التحدث بها في بلاد النحلة الصغيرة. كما كانا أول أبيضين تراهما النحلة الصغيرة في حياتها. كانت النحلة وشقيقتها تراقباهما من وراء شجر النخيل، لكنهما تراجعتا للخلف عندما اقترب الزوجان من مكان اختبائهن. وقف الزوجان ليستمتعا بمشهد البحر...

ـ اسمع صوت الأمواج يا آندرو! السلام يغطي هذا المكان بشكلٍ لا يصدق!

ـ بصراحة! أنا خائف قليلاً! يجب أن نعود إلى مجمع الفندق!

ـ الغاية من مجمع الفندق أن نخرج إلى الشاطئ! كنت خائفة منك عندما التقيتك للمرة الأولى!

ـ كنت أعرف ذلك! قطعة إيرلندية كبيرة من الحب، كشخصٍ مثلي! ياللهول! فنحن متوحشون! برابرة! متشردون! بغيضون! ألا تعلمين ذلك؟

« أووووا! ماذا دهاك يا عزيزتي؟ أليست هذه طريقة أمك في الكلام؟»

ضحكت الزوجة البيضاء، واقتربت من جسد زوجها، ثم طبعت قبلةً على خده.

ـ أحبك يا آندرو! أنا سعيدة لأننا أتينا إلى هنا! أنا آسفة جداً لأنني خذلتك! لن يحدث ذلك بعد الآن!

ـ حقاً؟

ـ أجل ...حقاً! أنا لا أحب لورانس! كيف لي أن أحبه؟ لتكن بدايةً جديدةً لكلينا.

«ابتسم الرجل الأبيض على الشاطئ».

وبينما كانت النحلة الصغيرة تراقب، وضعت يدها على أذن شقيقتها وسألتها بهمس، ماذا تعني كلمة «بغيضون»؟ التفتت أختها وحدقت في عينيها، ثم أجابتها: إنه هنا في الأسفل يا فتاة! على مقربةٍ من الـ ... متشرد!

عضت النحلة الصغيرة يدها لتمنع نفسها عن الضحك . . .

تناهى للأختين صوت كلابٍ قادم من بعيد. كان بالإمكان سماع كل صوت عبر نسيم ذلك الصباح البارد. كان النسيم في تلك البقعة يجلب كل الأصوات. رغم أن الكلاب كانت بعيدة، كان الصوت واضحاً للفتاتين.

أمسكت الأخت الكبرى بذراع شقيقتها.

«نظرت الزوجة البيضاء إلى الغابة».

ـ أووووا! اسمع يا آندرو! كلاب!

ـ ربما يقوم السكان المحليون بالصيد! فالغابة مليئة بالحيوانات المتوحشة!

ـ مع ذلك! لمَ يستخدمون الكلاب؟

ـ ماذا تريدينهم أن يستخدموا بحق الجحيم؟

ـ لا أدري! بامكانهم استخدام الفيلة مثلاً!

«ضحك الزوج الأبيض»

ـ أيتها الإنكليزية المتكبرة! لا تزال الإمبراطورية حيّة بالنسبة لك! أليس كذلك؟ عليك فقط أن تغمضي عينيك!

فجأةً ظهر جندي على الشاطئ متوجهاً نحو الزوجين الأبيضين. كان يلهث. ويرتدي بنطالاً زيتونياً وسترةً رمادية ملطخةً بالعرق، وحذاءاً عسكرياً مليئاً بالرمل الرطب، يعلق على ظهره بندقيةً، تتأرجح ماسورتها في الهواء.

ـ يا إلهي! ما هذا؟ لما جاء هذا الجندي الأحمق الآن؟!

ـ عله يقوم بواجبه، ليس إلا!

ـ نعم! لكن لم لا يدعوننا نقوم بواجبنا نحن بهدوءٍ هنا ومن دون إزعاج، ولو لدقيقةٍ واحدة؟

ـ استرخي يا عزيزي! إن تذاكر هذه الرحلة مجانية! ألا تذكر؟ فلا يمكننا القيام بكل ما نريد، على طريقتنا الخاصة!

اقترب الحارس من الزوجين، ثم توقف. كان يسعل ويضع راحتيه على ركبتيه.

ـ أرجو المعذرة سيدي! سيدتي! أنا آسف! لكن يجب أن تعودوا إلى مجمع الفندق!

ـ ولكن لماذا؟ كنا فقط نتمشى على شاطئ البحر!

ـ المكان ليس آمناً سيدتي! ليس آمنا لا لك ولا للسيد المحترم!

ـ لكن لماذا؟ ما المشكلة؟

ـ لا مشكلة يا سيدي! هذا المكان جيدٌ جداً! لكن يتوجب على جميع السياح التزام مجمع الفندق لو سمحتم!

أصبح صوت نباح الكلاب يقترب أكثر من الأدغال. سمعت الشقيقتان صوت صراخ الرجال القادمين مع الكلاب. بدأت الأخت الكبرى ترتجف. تعانقت الأختان بحرارة. بدأ كلبٌ بالنباح، ثم انضم إليه آخرون. بدأت النحلة الصغيرة تشم رائحة بول أختها المرتعشة من الخوف.

مكتبة
t.me/t_pdf

سأل الرجل الأبيض الحارس على الشاطئ.

ـ هل للمال علاقةً بكل هذا؟

ـ كلا يا سيدي!

وقف الحارس بثبات ونظر نحو الأدغال حيث صوت نباح الكلاب، ثم جهز بندقيته. رأت النحلة الصغيرة الحارس وهو يحمل بندقية موجهاً إياها نحو الأدغال.

ـ أووووا! لا نريد مشاهدة عرضك في الرماية الآن! أخبرنا كم تريد فقط؟ فزوجتي سئمت من البقاء في الفندق! كم تريد لتدعنا نستمتع بالتنزه على الشاطئ دون إزعاج؟ هل يكفي دولار واحد؟

لم يكترث الحارس للرجل الأبيض. فقد كان يراقب سرباً من الطيور الحمراء وهي تحلق فوق الأدغال على بعد مائتي ياردة.

ـ لا! لا أريد دولاراً!

ـ إذاً عشرة دولارات!

ـ أووووا! حباً بالله يا ساره! هذا كثيرٌ جداً! إنه أجر أسبوعٍ كاملٍ هنا!

ـ لا تكن بخيلاً يا عزيزي! ما قيمة العشرة دولارات بالنسبة لنا؟ من الجيد أن تكون قادراً على مساعدة هؤلاء الأشخاص! فهم لا يتقاضون سوى القليل!

ـ حسناً! اسمع! خمسة دولارات! ما رأيك؟

«كان الحارس يراقب رؤوس الأشجار. كانت أطراف سراخس النخيل توحي بالوخز على بعد مئة وخمسين ياردة».

ـ رافقاني الآن إلى الفندق! هذا أفضل لكما!

ـ اسمع! أنا آسف إن أسأت لك بطريقة عرض المال عليك! وأحترمك لأنك رفضت عرضي! لكني مللت تحكم محرر الصحيفة في حياتي لمدة سنةٍ كاملة! فلا أريد لأحد أن يتحكم في إجازتي أيضاً!

رفع الحارس فوهة بندقيته وأطلق النار من فوق رأس الرجل الأبيض ثلاث طلقاتٍ في الهواء. توقف نباح الكلاب وصراخ الرجال للحظة، ثم عاد ضجيجهم بصوتٍ أعلى. تجمّد الزوجان من شدة الدهشة، خاصةً عندما أخطأتهم الطلقات العشوائية التي أطلقها الحارس.

ـ أرجوك، سيدي! سيدتي! المشاكل كثيرة هنا! أنتم لا تعرفون هذه البلاد جيداً!

سمعت الشقيقتان المختبئتان صوت المناجل وهي تشق لها طريقاً في الغابة. سحبت الأخت الكبرى شقيقتها من المخبأ وخرجتا إلى الرمال. أصبحت الفتاتان الآن تقفان وجهاً لوجه أمام الزوجين الأبيضين - أنا وآندرو - كانتا تنظران إلينا بأملٍ وتوسل. أعتقد أنه لم يكن لديهن شيئاً تفعلنه في ذلك العالم النامي. كانتا تقفان على الرمال، وتمسكان بأيدي بعضهن بثباتٍ رغم أرجلهنّ الضعيفة. التفتت الأخت الكبرى لتراقب مجيء الكلاب التي أصبحت قريبةً جداً، بينما نظرت النحلة الصغيرة مباشرةً في وجهي، متجاهلةً آندرو والحارس.

ـ أرجوك سيدتي! خذينا معك إلى مجمع الفندق!

نظر الحارس إليها بتمعّن، ثم نظر وراءه إلى الأدغال وأومأ برأسه قائلاً:«مجمع الفندق للسياح فقط! وليس لكنّ أيتها الشابتان!»

«نظرت النحلة الصغيرة في وجهي»

ـ أرجوك! الرجال المتوحشون يطاردوننا! سيقومون بقتلنا!

كانت تكلمني كامرأةٍ راشدة، تستوعب ما يحصل. لكنني لم أفهم ما الذي يحدث. قبل ثلاثة أيام، أي قبل أن نبلغ مطار هيثرو، كنت أقف على البلاطة الخرسانية الموجودة في الحديقة وأسأل آندرو منذ متى كان يخطط لبناء بيته الزجاجي اللعين! كانت هذه أكبر مشاكل حياتي! ذلك البيت الزجاجي! البيت الغائب! وكل الهياكل الأخرى من الماضي والمستقبل التي من المفيد تشييدها عند تنامي الفتور العاطفي بيني وبين زوجي! كنت امرأةً عصرية وتعدّ خيبة الأمل أمراً مفهوماً أكثر من الخوف! «سيقوم الرجال المتوحشون بقتلها؟ شعرتُ بألمٍ في معدتي! لكن عقلي أكد لي أن ما سمعته كان مجرد تعبير مجازي!»

ـ أووووا! حباً بالله! إنك طفلة صغيرة! لم يريدون قتلك؟

ـ لأننا رأيناهم وهم يقتلون الجميع!

كنت على وشك الكلام، لكن آندرو سبقني. أعتقد أنه كان يعاني من اضطراب الرحلات الجوية الطويلة، وكأن قلوبنا قد تلاقت على الشاطئ، بينما عقولنا متأخرة، لم تصل بعد. كانت عيون آندرو تشي بخوف يسكنها، لكنه قال بحزم: «هذا هراء! إنها خدعة نيجيرية قديمة! تعالي! نعود إلى الفندق!»سحبني آندرو من يدي، فذهبت معه ناظرةً خلفي إلى الأختين الخائفتين. لحق الحارس بنا، وكان يسير إلى الوراء، موجهاً بندقيته نحو الأدغال، لحقت بنا النحلة الصغيرة وشقيقتها.

ـ كفّا أنتما الاثنتان عن اللحاق بنا!

«وجّه الحارس فوّهة البندقية باتجاه الفتاتين».

نظرت الفتاتان إليه مباشرةً. كان الحارس يكبرهنّ سناً. ربما يبلغ ستة عشر أو سبعة عشر عاماً، بشارب رفيع على وجهه. أعتقد أنه فخورٌ به. يرتدي قلنسوةً خضراء مبتلة بالعرق. استطعت أن أرى عروق صدغه النافرة، كما كان لون بياض عينيه أصفراً.

ـ ما اسمك أيها الجندي؟

ـ هذا اسمي، «سأطلق النار إن لم تذهبن من هنا!»

ـ اسمي النحلة الصغيرة! وهذا قلبي! إن كنت تريد إطلاق النار... فهيا ...افعلها!

ـ لا بأس بالرصاص! فالرصاص أسرع!

«استمرت الفتاتان بمتابعتنا على الشاطئ، فشعر الحارس بالغضب».

ـ من يطاردكنّ أيتها الفتاتان؟

ـ الرجال أنفسهم اللذين أحرقوا قريتنا! عمال شركة النفط!

«بدأت البندقية تهتز في يد الحارس وهو يقول»

ـ يا إلهي!

بدأ صراخ الرجال ونباح الكلاب يرتفع الآن لدرجة أنني لم أعد أسمع صوت الأمواج.

خرج من الأدغال خمسة كلاب مسرعة بنيّة اللون. بدى أنها تشعر بالتعب من كثرة العواء، وأطرافها تنزف من أشواك الغابة، صرخت الأختان ووقفتا خلف الحارس. توقف الحارس ورفع بندقيته، ثم أطلق النار. تشقلب الكلب الذي كان يقف في المقدمة فوق الرمال. وأصيبت أذنه وطرفٌ من رأسه. انحرف قطيع الكلاب وتوقف عن الركض. ثم بدأت الكلاب بتمزيق الكلب الميت. كانوا يقضمون لحم الرقبة، بينما كانت الساقان الخلفيتان للكلب تصارع حتى النهاية.

صرختُ مرتعبةً!

بدأ الحارس يرتجف . . .

خرج من الأدغال ستة رجالٍ مسرعين، يرتدون بناطيل رياضية ممزقة، وسترات وأحذية رياضية، وسلاسل ذهبية، متجاهلين وجود الكلاب. كان أحدهم يحمل قوساً مشدوداً. بينما الآخرون يحملون مناجلاً، وقد حذروا الحارس من إطلاق النار، ثم تقدموا نحونا.

كان لقائدهم جرح متعفن على رقبته. بمجرد أن شممتُ رائحة جرحه، عرفتُ أنه سيموت قريباً. وكان أحد رجاله يرتدي قلادةً من الأسلاك معلقٌ عليها بعض الأشياء المجففة التي تشبه الفطر. عندما نظر هذا الرجل إلى شقيقة النحلة الصغيرة، بدأ يداعب حلمات صدره بأصابعه وهو يبتسم لها. هذا في الحقيقة ما شاهدته!

ـ استمرا في السير رجاءاً سيدي! سيدتي!

لكن الرجل صاحب الرقبة المجروحة - القائد - أوقفه، قائلاً:

ـ لا! توقفوا!

ـ سأطلق النار!

ـ قد تُصيب واحد أو اثنين منا لا أكثر!

«كان الرجل حامل القوس، يوجه هدفه نحو رقبة الحارس»

ـ ربما لا تستطيع إصابة أحدٍ منا! كان عليك أن تصيبنا من بعيد قبل أن نصل إلى هنا!

تراجع الحارس إلى الخلف، وتراجعنا نحن أيضاً. أصبحت النحلة الصغيرة وشقيقتها تقفان خلفنا، الآن، أنا وآندرو نقف في الوسط بين الفتاتين والصيادين. كان الصيادون يتبادلون زجاجةً من النبيذ على ما أعتقد. يتناوبون في شربها. حدث انتصابٌ للرجل حامل القوس والسهام. كان الانتصاب بارزاً من تحت بنطاله الرياضي. لكن تعابير وجهه لم تتغير، وبقيت عيناه مثبتتان على رقبة الحارس. يرتدي منديلاً أسوداً على رقبته، كتب عليه ماركة «إيمبوريو أرماني». نظرتُ إلى آندرو، وحاولت التكلم بهدوء. لكن الكلمات لم تخرج من فمي.

ـ أرجوك يا آندرو! أعطهم ما يريدون!

نظر آندرو إلى الرجل ذو الرقبة المجروحة وسأله، ماذا تريد؟

نظر الصيادون إلى بعضهم البعض. ثم نظر الرجل المجروح إلى وجهي. كانت عيناه ترمقني بنظرةٍ غير مريحة، فكان يحدق بي بجنون، وبؤبؤ عينيه صغيراً، وقزحية عينيه تلمعان كالنحاس. تحول تعبير شفتيه من ابتسامة إلى تكشيرة، فازدراءٍ مرٍ وقاسٍ. كانت انفعالات وجهه تتغير بسرعةٍ كما تتغير محطات التلفاز عندما يضغط أحدهم بسرعة على جهاز التحكم. شممتُ رائحة عرقه وجرحه المتعفن. وقد صدر عنه أنين لا إرادي، لدرجة أنه تفاجأ وأتسعت عيناه من الدهشة.

سحب قطعة القماش الرقيقة التي كنت أضعها على جسدي ومزقها بيديه القويتين. ثم نظر بفضول إلى قطعة القماش الأرجوانية التي يمسكها بيده، وبدى متفاجئاً وهو يحدق بها.

صرختُ وسترت صدري بذراعي. ابتعدت عنه بخوفٍ من الطريقة التي كان ينظر إليّ بها.

كنت أرتدي بيكيني أخضر صغير المقاس. «أرتديه في منطقة الدلتا المتنازع عليها، في بلدٍ إفريقي وسط الحرب الثلاثية من أجل النفط. على شاطئ قريب من منطقة الحرب. لأن مجلس السياحة أرسل تذاكر مجانية لكل مجلةٍ مدرجةٍ في الكتاب السنوي «للكتّاب والفنانين» لزيارة ذلك الشاطئ. ولأنني محررة المجلة، كنت أول من استلم التذاكر المجانية من الموزعين الذين أرسلوها إلى مكتبي.

نعم! كنت أرتدي بيكيني أخضر صغير ذو عُصابة، من هرميز. واقفةً أضع ذراعيّ فوق صدري. شعرتُ أنني على وشك أن أهزم في مواجهةٍ صعبةٍ كتلك. عندما اقترب الرجل المجروح مني، شعرت بقدميَّ تغرقان في الرمل من وزنه الثقيل. ثم قام بتمرير أصابعه فوق كتفي العاري وسأل: «ماذا نريد؟... نريد ممارسة اللغة الإنكليزية معك!»

انفجر أصدقائه من الضحك. ثم تناوبوا الزجاجة التي كانوا يشربونها مرةً أخرى. وعندما رفع أحدهم الزجاجة، رأيت شيئاً دائرياً يشبه بؤبؤ العين يسبح داخلها. وعندما أنزل الرجل الزجاجة، اختفى هذا الشيء تحت السائل. «أقول أنه سائل، لأنني لم أعد مقتنعة بأن ما فيها كان نبيذ».

خاطبه آندرو، لدينا بعض المال! وسنحضر لك المزيد فيما بعد!

قهقه الرجل المجروح فبدى كالخنزير بصوته الشنيع، مما جعله يضحك أكثر. فجأة أصبحت ملامحه جدّيةً، ثم قال: أعطيني ما لديك الآن! وليس فيما بعد!

أخرج آندرو محفظته من جيبه، وأعطاها له. فأخذها منه بيد مرتجفة، ثم أخرج منها الأوراق النقدية ورماها على الرمال.

سلم الرجل النقود إلى رجاله دون أن يعدّها أو ينظر إليها. كان يتنفس بصعوبة شديدة، والعرق يتصبب من وجهه. أصبح جرح رقبته مفتوحاً أكثر الآن. ولونه أخضر مائل إلى الزرقة . . . كان جرحه مقززاً.(توجهت له بالحديث)

ـ يبدو أنكَ بحاجةٍ إلى رعايةٍ طبية! يمكننا أن نزودك بها في الفندق!

ـ لن يُصلح العلاج ما رأته هاتان الفتاتان! يجب عليهن أن يدفعن ثمن ما

شاهدنه! هيا! تعالا معي!

ـ لا!

ـ ماذا تقولين؟

ـ قلت لا! هاتان الفتاتان ستذهبان معنا إلى الفندق! إذا حاولت إيقافهن، سيطلق الحارس النار عليك!

نظر الرجل إليَّ نظرة تسامحٍ زائفة، ثم وضع يديه على رأسه ودار دورتين كاملتين، وعندما التفت نحوي مرةً أخرى، ابتسم قائلاً:

ـ من أين جئت يا سيدتي؟

ـ نحن نعيش في كينغستون!

«نظر الرجل إليَّ باهتمام...»

كينغستون! المطلة على نهر التايمز! إنها في لندن!

ـ أعرف أين توجد كينغستون! فقد درست الهندسة الميكانيكية هناك!

«نظر الرجل إلى الرمال بهدوءٍ للحظة، ثم رفع منجله بلمح البصر وضرب عنق الحارس ضربةً سمعتُ من خلالها صوت رنين تحطم العظام. فوقع الحارس جثة هامدة فوق الرمال، ومازال صوت رنين شفرة المنجل يطنّ في أذني كالجرس».

ـ هل سمعت صوتاً كهذا في كينغستون المطلة على نهر التايمز؟

«كانت الدماء غزيرةً أكثر مما يستطيع شابٌ أفريقي نحيل أن يحمل في جسده. كانت الرمال تغطي مقلتي الحارس الذي لم يتوقف عن النزيف.ورقبته مفتوحةً كالفم».

جاءني صوتٌ هادئٌ في عقلي، يقول لي: باك مان . . . باك مان . . . يا إلهي! إنه يشبه باك مان!

كنا نقف جميعاً ملتزمين الصمت، ونحن نراقب الحارس ينزف حتى الموت. تطلب ذلك وقتاً طويلاً. عندها قلت في نفسي: الحمد لله لأنني تركت تشارلي عند أبويَّ!

عندما رفعت رأسي، كان القاتل ينظر في وجهي نظرةً مألوفةً لي إلى حدٍ ما. لقد

تعرضت إلى نظرةٍ كهذه عندما كنت أنسى بطاقتي الائتمانية أثناء دفع النقود عند المحاسب. كما أن لورانس ينظر إليَّ بهذه الطريقة عندما كنت أخبره بقدوم دورتي الشهرية. كان القاتل يرمقني بنظرة عتب.

ـ لقد مات هذا الحارس بسببكِ أنت!

كان لدي بعض المشاعر في ذلك الوقت، لأنني لم أستطيع منع نفسي من البكاء.

ـ أنت مجنون!

«هزّ المجرم برأسه، ثم بدأ بتحسس مقبض المنجل بأطراف أصابعه. وبعد أن وجّه محور النصل إلى رقبتي، نظر إليَّ بحسرةٍ، قائلاً»

ـ أنا أعيش هنا! أنت هي المجنونة لأنك جئت إلى هذا المكان!

بدأت أبكي من الخوف...كان آندرو يرتجف... بدأت شقيقة النحلة الصغيرة تصلي بلغتها القبليّة، « إيكينيمي ماريا! غراشيا جوي أوبي دينويني نونيل! آي نوي نيغوزي! كالي إيكبوروا ناين نان ناغوزي! ديلي نوا آفوا إيبا جيسو!...».

نظر القاتل إلى شقيقة النحلة الصغيرة وقال لها:

ـ حان دورك الآن!

نظرت الأخت الكبيرة إليه برعب، ثم استمرت في صلاتها وهي تتمتم، « نسو ماريا نني سيوكوا! يونيل آني بو ندي نجو كيتا! نوبوسي نكي أونووا آنييي...آمين!

هز القاتل رأسه مرةً أخرى، ثم تنفس بعمق. سمعتُ الصوت المنعش والمضمحلّ للأمواج الباردة. تركت الكلاب البنيّة جثة الكلب الميت، واقتربت نحونا. كانت سيقانهم ترتجف، وشعور أجسادهم واقفة بفعل الدماء المتيبّسة عليها. اقترب القاتل خطوةً باتجاه الأخت الكبرى، لكنني لم أود أن أراه يقتلها من رقبتها هي الأخرى، أمام عينيّ. فرجوته:

ـ لا . . . أرجوك! أرجوك! دعها وشأنها!

«توقف القاتل ثم التفت إليّ وقال وهو يبتسم»

ـ أنت مرةً أخرى؟

ـ ساره! أرجوك! أعتقد أنه من الأفضل لنا هنا أن...

ـ أن ماذا...؟ آندرو، أن تصمت وتتمنى ألا يقتلوننا نحن أيضاً؟

ـ أعتقد أن هذه المسألة لا تعنينا!

ـ آ آ آه . . . لا تعنيكم؟

«التفت القاتل إلى رجاله وفتح ذراعيه»

هذه المسألة لا تعنيه! أسمعتم ما يقوله؟ هذا موضوع يخصّ الزنوج فقط!

«وقهقه عالياً» ضحك الصيادون وبدأت الكلاب تحوم حولنا. ثم التفت القاتل نحونا، وأصبحت ملامحه جدّيةً الآن.

أول مرّةٍ في حياتي أسمع رجلاً أبيض يقول بأن ما يخصني لا يخصه! لقد أخذتم ذهبنا! وسرقتم نفطنا! ما المشكلة إذاً في فتياتنا؟

ـ لا شيء! لم أكن أقصد أن...

ـ هل أنت عنصري؟

ـ لا . . . طبعاً لستُ عنصرياً!

«حدق القاتل في آندرو»

ـ والآن؟ هل تريد حماية هاتين الفتاتين أيها السيد؟

«سعل آندرو... كنت أراقبه! كنت أراقب يديه القويتين الجميلتين اللتين اعتدت على النظر إليهما وهما تمسكان بفنجان القهوة، وتنقران عبر لوحة المفاتيح، وتكتبان المواعيد النهائية. زوجي الذي كان يطبع عامود صحيفة يوم الأحد في صالة المغادرة في المطار قبل يوم. كنت أتفحص العمود لأصحح له الأخطاء الإملائية قبل أن تبدأ رحلتنا إلى هنا. كانت آخر فقرةٍ كتبها: **إننا مجتمع ذو مصلحة ذاتية! كيف نعلّم أولادنا أن يفضلوا الآخرين على أنفسهم، إن لم نكن قادرين نحن على ذلك؟»**

الآن؟ هل تريد حمايتهنّ؟

نظر آندرو إلى يديه، استمر يحدق بهما لوقتٍ طويل. كانت الطيور البحرية تحلق فوق رؤوسنا، وتنادي بعضها بخشوع، حاولت التوقف عن الارتجاف.

ـ أرجوك! إذا سمحتَ لنا باصطحاب الفتاتين معنا، سنفعل لك كل ما تأمر به! دعنا نعود إلى مجمع الفندق من فضلك! سنعطيك كل ما تطلب... نقود...دواء... أي شيء!

« صدر عن القاتل صوت عواء عالٍ ورجفةً هزّت جسده بالكامل. وعندما قهقه، سالت نقطة من الدم عبر أسنانه البيضاء المرتبة، ثم انزلقت فوق نايلون سترته الرياضية».

ـ هل تظنين أن عرضك ينفع الآن؟ ألا ترين هذا الجرح في رقبتي؟ سأموت بعد يومين على الأكثر! ما نفع المال أو الدواء؟

ـ ماذا تريد إذاً؟

نقل القاتل منجله من اليد اليمنى إلى اليسرى. ثم رفع يده اليمنى ومدَّ إصبعه الوسطى المرتجفة، ووجهها مباشرةً في وجه آندرو،

ـ لقد أعطاني الرجال البيض هذا الإصبع طيلة حياتي!

واليوم يمكنك أن تعطيني إياه كي أحتفظ به! اقطع اصبعك الوسطى يا سيد واعطيني إياه!

«ارتعد آندرو ثم خبّأ أصابعه وطوى إبهامه فوق أصابعه».

أمسك القاتل شفرة المنجل، ثم رفع المقبض في وجه زوجي مهدداً.

ـ هيا! افعلها! أعطيني اصبعك وسأعطيك الفتاتين!

حدث صمتٌ طويل . . .

ـ ماذا لو لم أفعل ذلك؟

ـ عندها يمكنك الذهاب! أنت حر! لكن قبل ذلك عليك أن تسمع صراخ هاتين الشابتين وهما تحتضران! ألم تسمع من قبل صوت فتاةٍ تموت ببطء؟

ـ لا...!

«أغمض القاتل عينيه وهزّ رأسه بتأنٍ»

ـ إنها موسيقى مؤلمة لن تنساها في حياتك! ربما ستصحو يوماً في بيتك المطل على نهر التايمز، ومن ثم ستدرك أنك خسرت أكثر بكثير من إصبعك!

بدأت النحلة الصغيرة تبكي الآن، فأمسكتها شقيقتها من يدها مواسية.

ـ لا تخافي! إذا متنا اليوم، سنتناول الخبز مع يسوع هذه الليلة!

«حدّق القاتل بتمعن في عيني آندرو»

ـ أرجوك يا سيد! أنا لست سفاحاً! لا أريد قتل هاتين المسكينتين!

مدّ آندرو يده وأخذ المنجل من يد القاتل. كان المنجل ملطخاً بدماء الحارس. نظر في وجهي، فتقدمت نحوه ووضعتُ يدي على صدره برفق، وبدأت بالبكاء.

ـ أووووا! آندرو! أظن أن عليك أن تفعلها!

ـ لا أستطيع!

ـ إنه مجرد إصبعٍ واحد!

ـ لم نفعل ما يستحق ذلك! كنا نتنزه على الشاطئ فقط!

ـ إصبع واحد فقط يا عزيزي! بعدها سنعود لنتمشى على الشاطئ ثانيةً!

«غرقت ساقا آندرو في الرمال...»

ـ لا أصدق ما يحدث!

«نظر آندرو إلى شفرة المنجل ثم كشط بالرمل ما عليها من دماء ليعقمها. وبعد أن وضع يده اليسرى على الرمل، طوى كل أصابعه باستثناء الإصبع الأوسط. ثم رفع المنجل بيده اليمنى، لكنه لم يستطع أن يهوي به نحو الأسفل».

كيف لنا أن نتأكد بأنه لن يقتل الفتاتين بعد أن أفعلها يا ساره؟

ـ عندها ستكون قد بذلت ما بوسعك!

ـ قد أصاب بالإيدز بسبب هذه الشفرة! قد أموت!

ـ أنا معك يا عزيزي! أنا فخورة بك!

كان الجو هادئاً على الشاطئ، وكانت الطيور البحرية تحلق في السماء الزرقاء الصافية. والنسيم عليل، لم يتغير إيقاع صوت الأمواج، بالرغم من الفواصل الغير محدودة بين الموجة والأخرى.

كنا جميعاً ننتظر واقفين، أنا والفتاتين والصيادين والكلاب الشرسة، ما سيفعله زوجي.

في تلك اللحظة، كنا جميعاً متساوون. والرياح الدافئة للأحداث تسيطر على حواسنا صرخ آندرو وهو يضرب المنجل بعنفٍ نحو الأرض. فأصدرت الشفرة صوتاً كصوت السوط في الهواء الساخن. لكنها كانت بعيدةً عن موضع إصبعه.

ـ لن أفعلها! هذا هراء! لا أصدق أنه سيطلق سراح الفتاتين! أنظري إليه! سيقوم بقتلهنّ في كل الأحوال!

وقف آندرو، وترك المنجل مغروزاً في الرمال. نظرتُ إليه...هنا فقدتُ الإحساس تماماً!

أدركت أنني لم أعد أشعر بالخوف مطلقاً... لم أكن غاضبةً من آندرو... فعندما نظرت في وجهه! لم أعد أرى رجلاً بعد الآن. شعرتُ بأننا سنموت جميعاً. وقد ضايقتني فكرة أننا لن نبني ذلك البيت الزجاجي في زاوية الحديقة، والذي لطالما حلمنا ببنائه.

«راودتني فكرة منطقية في تلك اللحظة، كم أنا محظوظة لأن لدي أبوين يتمتعان بصحة جيدة، تساعدهم على توفير كل الرعاية اللازمة لتشارلي!»

«تنهد القاتل»

ـ حسناً يا سيد! أنتَ من اختار! عد الآن إلى إنكلترا! وقل لأصدقائك أنك قابلت سفاحاً حقيقياً في إفريقيا!

عندما استدار القاتل إلى الوراء، جثوت على ركبتاي، ونظرتُ مباشرةً في عيني النحلة الصغيرة.

لقد رأت النحلة ما لم ينتبه إليه القاتل. لقد شاهدت النحلة السيدة البيضاء وهي تضع يدها اليسرى فوق بقعة الرمل الصلبة، وترفع المنجل بيدها اليمنى وتضربه فوق إصبعها الوسطى بضربةٍ بسيطةٍ واحدة، وكأنها تقطع رأس جزرة في حفلة ما أو على الغداء. رأت النحلة الصغيرة السيدة وهي تلقي بالمنجل على الأرض وتمسك بيدها بقوةٍ مندهشةً بما فعلته.

ـ أووووووووووووا! أووووا! أووووا!

التفت القاتل نحوي وشاهد الدماء تنبع من خلال قبضة يدي المغلقة. كان إصبعي العاري المقطوع ممدداً أمامي فوق الرمل. بدى شكله مضحكاً. شعرتُ بالخجل عندما حدّقتُ به.

نظر القاتل مدهوشاً...

ـ تباً... تباً! ماذا فعلتِ بحق الجحيم يا ساره؟ ماذا فعلتِ بحق الجحيم؟

ركع آندرو على الأرض وضمّني بقوة إلى صدره، لكنني دفعته بعنفٍ بيدي

اليمنى، وكان المخاط واللعاب يسيلان من أنفي وفمي.

ـ هذا مؤلم يا آندرو! اللعنة! إنه مؤلم كثيراً!

«أومأ القاتل برأسه، ثم التقط إصبعي المقطوع، ووجهه نحو النحلة الصغيرة، وقال»

ـ لن أقتلك! لقد دفعت السيدة ثمن بقائك على قيد الحياة!

« وجّه القاتل إصبعي المقطوع نحو الأخت الكبرى، وقال»

أما أنتِ! فسوف تموتين يا صغيرتي! لأن السيد المحترم لم يدفع ثمناً لبقائك حيّة! وكما تعرفين! يجب أن يحصل رجالي على حصتهم من الدماء!

«أمسكت الشقيقة الكبرى بيد النحلة الصغيرة، ورفعت رأسها برفق، وخاطبتها قائلة، أنا لستُ خائفة! سيرعاني الربّ!»

لن يرعاكِ أحد! «وقهقه القاتل عالياً»!

هنا... بدأ زوجي ينتحب بصوتٍ غطى على صوت الأمواج...

بعد عامين من الحادثة ...لا زلتُ أسمع صوت ذلك النحيب وأنا جالسة على طاولة المطبخ في بيتي المطل على نهر التايمز، أحدقُ بيدي التالفة الممدودة فوق غطاء الطاولة الأزرق.

غرقت النحلة الصغيرة في نوم عميق على الكنبة...نامت حتى قبل أن تشرب كأسها الذي قدمته لها.

لاحظتُ أنني لم أتذكر النقطة التي وقفت النحلة الصغيرة عندها أثناء سردها للقصة، فبدأت أسترجع الذكريات بمفردي.

قمتُ عن الطاولة، لأحضر كأساً آخر. لم يكن لدينا ليمون، فلجئت إلى بعض الليمون البلاستيكي المفرّز في الثلاجة. عندما حملتُ كأسي، تحركت مكعبات الثلج بشكلٍ خارجٍ عن السيطرة. كان طعم الشراب مقززاً، لكنه زودني ببعض الشجاعة.

حملتُ سماعة الهاتف واتصلت بالشخص الذي من المفترض أن يكون عشيقي. مع العلم أن هذه الكلمة ((عشيقي)) تجعلني أشعر بالتشنج.

لاحظتُ بأنها المرة الثانية التي اتصلت به فيها ذلك اليوم. لم أتصل به منذ أسبوعٍ

كاملٍ قبل وفاة آندرو. كانت تلك أطول فترةٍ أكون فيها مخلصةً لزوجي منذ سنوات.

ـ ساره؟ هل هذه أنت؟

كان لورانس يتكلم بهمس. شعرت بغصةٍ في فمي، فلم أجيبه على الفور . . . ساره؟ كنت أفكر بكِ طوال الوقت! هل كان الوضع مؤلماً؟ كان عليك أن تسمحي لي بحضور الجنازة!

ـ لم يكن الوضع يسمح بذلك!

ـ أووا! ساره! من سيعلم بعلاقتنا؟

ـ أنا يا لورانس! لم أعد أملك سوى ضميري الحيّ!

ـ لا بأس إن كنت لا زلت تحبين آندرو! لا مشكلة لدي على الإطلاق!

ـ أتعتقد بأنني لا زلت أحبه؟

ـ أنا أفترض ذلك لا أكثر! إن كان ذلك يساعدك!

«ضحكتُ وزفرت بصوت غير مسموع...»

ـ الجميع يحاول مساعدتي اليوم...حتى تشارلي! فقد ذهب إلى فراشه دون أدنى ضجة!

ـ من الطبيعي أن يقدم لك الناس المساعدة! فأنت تعانين يا ساره!

ـ إنني لا أطاق يا لورانس! يدهشني أن شخصاً مثلك لا يزال يهتم بي!

ـ لا تكوني قاسيةً على نفسك، ساره!

ـ لا يا لورانس! لقد رأيت تابوت زوجي أمام عينيَّ اليوم! متى برأيك يتوجب على المرء أن يلقي نظرةً على نفسه، إن لم يكن في يومٍ كهذا؟

ـ ... اممم !

ـ لا يجرؤ الكثيرون على قطع إصبعهم! أليس كذلك يا لورانس؟

ـ ماذا... ؟ لا! بالتأكيد. أنا لن أفعل ذلك!

«شعرتُ بحنجرتي تحترق . . .»

ـ ربما توقعتُ الكثير من آندرو! أليس كذلك؟ ليس فقط عندما كنا على الشاطئ!

بل في حياتي معه بشكلٍ عام.

«صمت لورانس لفترةٍ وجيزة...»

ـ ماذا كنتِ تتوقعين مني؟

«كان سؤاله غير متوقع ... لم أكن مستعدةً له... بدى من صوته بأنه غاضب» . . .

ارتجفت يدي التي أحمل بها سماعة الهاتف . . .

ـ أنت تتكلم بصيغة الماضي يا لورانس!

ـ لا!

ـ لا...! أرجوك لا!

ـ اعتقدت أن هذا هدف اتصالك! لذلك لم تودي أن أحضر الجنازة! لأن هذا ما ستفعلينه معي في حال انفصالنا ؟ أليس كذلك؟ فما ذكرتهِ مقدمة تعرفينني بها على شخصيتك الصعبة! أحسنتِ! إنك تبرهنين بأنك امرأة مستحيلة الفهم!

ـ أرجوك يا لورانس! هذا فظيع!

ـ يا إلهي! أعرف ذلك! أنا آسف!

ـ أرجوك لا تغضب مني يا لورانس! اتصلت لآخذ مشورتك!

«ضحك لورانس ضحكةً كئيبةً»

ـ أنت لا تريدين نصائح، ساره!

ـ ... لا!

ـ لا أبداً ! مطلقاً ! فأنت لا تطلبين نصائح بما يتعلق بعلاقتنا! كل ما يهمك هو إن كان لباسك الضيق يتناسب مع حذائك الأنيق! أو إن كان ذلك السوار يناسب معصمك! أنت لا تسألين عن الدخل! كل ما يهمك هو لفت نظر المعجبين بك!

ـ هل أنا سيئة إلى هذه الدرجة؟

ـ بل أنت أسوأ من ذلك، حبيبتي! لأنني لو قلت لك مثلاً أن الذهب يناسبك، ستلجئين بطريقةٍ ما إلى ارتداء الفضة!

ـ هل سأفعل ذلك؟ لم ألاحظ هذا من قبل ! أنا آسفة!

ـ لا تكوني آسفة! يعجبني عدم ملاحظتك لذلك! هناك العديد من النساء اللواتي

يعشقن لفت الأنظار!

«أخذتُ رشفةً من كأس الشراب الذي كنت أحمله في يدي الأخرى»

ـ أنت تحاول أن تزيد من ثقتي بنفسي ليس إلا! أليس كذلك يا لورانس؟

ـ أنا أوضح لك فقط أنك امرأة فريدة من نوعها!

ـ هذا مديح على ما أعتقد! أليس كذلك؟

ـ نسبياً ! نعم! والآن كفي عن استفزازي!

«ابتسمتُ للمرة الأولى منذ أسبوعٍ تقريباً!»

ـ لم نتكلم مع بعضنا بهذه الطريقة من قبل! أليس كذلك؟ أقصد... بهذه الصراحة المطلقة!

ـ تريدين جواباً صريحاً؟

ـ لا أظن!

ـ كنت أكلمك بصراحة، لكنك لم تستمعي إلي!

«كان المنزل يبدو مظلماً وهادئاً من حولي.والصوت الوحيد المسموع هو صوت مكعبات الثلج داخل الكأس الذي كنت أشربه. وعندما تكلمت، شعرتُ بتشنجٍ في صوتي، أنا أستمع إليك الآن يا لورانس! أقسم لك أنني أستمع إليك!»

وبعد هدوءٍ قصير...سمعت صوت ليندا زوجة لورانس تصرخ من بعيد...، من على الهاتف؟

ـ مجرد زميل من العمل!

«أووووا! يا عزيزي المسكين لورانس! لو كان ما تقوله صحيحاً، لاكتفيت بقول: «من العمل» وليس زميل من العمل!

فكرتُ بزوجته ليندا! يا ترى! كيف ستشعر عندما تعلم بعلاقتنا؟ ليندا ومزاجها البارد! ليس فقط في موضوع مشاركتي بزوجها! بل بسذاجة لورانس في تخيله بأن زوجته لا تعلم بأسراره! كيف يمكن للخداع أن يكتسب بعض التناظر المتفاوت بين الزوجين؟

كنت أتخيل القوّاد الرخيص الذي ستلجأ إليه ليندا عندما تعلم بعلاقة زوجها

معي!

كان شعوراً مروعاً. . . واحتراماً لليندا! أقفلت سماعة الهاتف . . .

نظرتُ إلى النحلة الصغيرة وهي غارقة في النوم على الكنبة. وفجأةً! أصبحت ذكريات الشاطئ المروعة والمجتزأة والتي لا معنى لها، تراودني وتثقل على عقلي المتعب. فاتصلت بلورانس مرةً أخرى:

ـ هل بإمكانك المجيء يا لورانس؟

ـ أودّ ذلك! لكنني لا أستطيع هذه الليلة! ستخرج ليندا مع أصدقائها! وعليَّ رعاية الأطفال!

ـ ألا تستطيع إحضار مربيةٍ لهم؟

بدى صوتي حزيناً، فلعنتُ نفسي على ذلك، وأظن أن لورانس، شعر بحزني . . .

ـ حبيبتي؟ تعلمين أنني سأحضر لو كان بإمكاني ذلك! أصحيحٌ ما أقول؟

ـ بالتأكيد . . .

ـ هل تعدينني أن تتصرفي بحكمة من دوني؟

ـ طبعاً!

ـ كيف؟

ـ سأتصرف كما اعتادت كل النساء البريطانيات أن تتصرفن قبل اختراع ما يسمى «بالضعف».

ـ «ضحك» هذا جيد! اسمعي! قلتِ أنك بحاجةٍ لنصيحة! هل تحبين أن أسديها لك الآن على الهاتف؟

ـ نعم! طبعاً! انتظر! أريد أن أقول لك شيئاً! يبدو أن المسألة معقدة قليلاً! لقد جاءت النحلة الصغيرة إلى منزلي هذا الصباح!

ـ من؟

ـ إحدى الفتيات النيجيريات اللواتي قابلتهن على الشاطئ!

ـ يا إلهي! اعتقدت بأنك أخبرتني بأن الصيادين قضوا عليها!

ـ كنت أعتقد ذلك! لقد رأيت الرجال وهم يسحبونها من يدها هي وشقيقتها.

...كانتا تصرخان وترفسان من الفزع! راقبتهن عندما اختفيتا عن ناظري! أتذكر بعدها أنني فقدت الشعور بشيء!

ـ ولكن ما الذي حدث الآن؟ هل حضرت فجأةً إلى عتبة باب منزلك؟

ـ نعم! هذا الصباح! قبل ساعتين من الجنازة!

ـ هل سمحتي لها بالدخول؟

ـ أي شخصٍ آخر، كان سيفعل هذا!

ـ كلا يا ساره! معظم الناس لا يفعلون ذلك!

ـ يبدو أنها نجت من الموت بأعجوبة يا لورانس! لم أستطيع إغلاق الباب في وجهها!

ـ إن نجت من الموت كما تقولين! أين كانت قبل أن تأتي إليكِ إلى منزلك؟

ـ جاءت على متن قارب على ما يبدو! هربت من بلادها على الأغلب، فاحتجزت لمدة عامين في مركز احتجاز المهاجرين في ((إسيكس))، وبعدها جاءت إلى هنا . .

ـ مركز احتجاز؟ يا إلهي! ماذا فعلت هناك؟

ـ لا شيء على ما أظن! مجرد طالبة لجوء لا أكثر! تم احتجازها عند الحدود!

ـ لمدة عامين؟

ـ أنتَ لا تصدقني؟

ـ أنا لا أصدقها، هي! لا أنتِ! اعتقال لمدة عامين!!! لا بد أنها فعلت أمراً خطيراً!

ـ إنها فتاة أفريقية! ولا تملك مالاً! أظن أن هذان الذنبان كافيان كي يتم اعتقالها لمدة سنتين!

ـ لا وقت للمزاح! كيف استطاعت أن تجدك؟

ـ ربما استفادت من المعلومات المكتوبة على شهادة قيادة زوجي آندرو . . . فقد ألقى بمحفظته على الرمال عندما كنا على الشاطئ.

ـ يا إلهي! هل هي بجانبك؟

ـ نعم! إنها نائمة على الكنبة!

ـ يبدو أنك تشعرين بفزعٍ كبير!

ـ شعرتُ بأنني سأفقد عقلي هذا الصباح! لم أصدق ما حدث!

ـ لماذا لم تتصلي بي؟

ـ اتصلت بك! ألا تذكر؟ كنتَ على عجلةٍ من أمرك! ولم تصل مربية أطفالك في الوقت المحدد! هل نسيت؟

ـ هل تهددك بشيء؟ هل اتصلت بالشرطة؟

ـ لا! ليس لهذه الدرجة! لقد كانت تلعب بلطفٍ مع تشارلي كل فترة ما بعد الظهيرة! كان تشارلي يلعب دور بات مان! ولعبت هي دور روبن! لقد شكلا فريقاً لا بأس به!

ـ ولم تشعري بالخوف من ذلك؟

ـ لو بدأتُ بالخوف الآن، لن أستطيع التوقف بعد ذلك!

ـ لكن ماذا تفعل عندك؟ ماذا تريد؟

ـ ربما تريد المكوث هنا لبعض الوقت! فهي لا تعرف أحداً في هذه البلاد!

ـ هل أنت جادّة؟ هل يمكن لهذه الفتاة أن تمكث هنا؟ أقصد...هل وجودها قانوني؟

ـ غير متأكدة! لم أسألها بعد! فهي منهكة الآن! أعتقد أنها جاءت سيراً على الأقدام من مركز الاحتجاز، إلى أن وصلت إلى هنا!

ـ لابد أنها مجنونة!

ـ لم تكن تملك المال! ربما لم تستطيع ركوب الحافلة!

ـ اسمعي! هذا الوضع لا يعجبني! أنا قلق بشأن بقائك معها لوحدك!

ـ برأيك! ماذا عليّ أن أفعل؟

ـ أعتقد، عليك أن توقظيها من النوم، وتطلبي منها الرحيل ! أنا جادّ فيما أقول!

ـ الرحيل إلى أين؟ ماذا لو رفضت؟

ـ عندها أريدك أن تتصلي بالشرطة كي يتخلصوا منها!

«اختنقتْ، والتزمت بالصمت . . . لم أستطيع الكلام!»

ـ أتفهمين ما أقوله، ساره؟ أريدكِ أن تتصلي بالشرطة!

ـ فهمت! ليتك لم تقل «أريدك»!

ـ أنا قلق عليكِ! أخاف أن تؤذيك!

ـ من...!؟ النحلة الصغيرة؟ لا أعتقدها شريرة لهذه الدرجة!

ـ كيف تعرفين ذلك؟ إنكِ لا تعرفين شيئاً عن هذه المرأة! ماذا لو جاءت إلى غرفتك ليلاً، وهي تحمل سكيناً؟ ماذا لو كانت مجنونة؟

ـ عندها سيعلم ابني بذلك يا لورانس! إحساسه الوطواطي سيخبره بذلك!

ـ تباً لك يا ساره! ليس هذا وقت المزاح! اتصلي بالشرطة فوراً!

«نظرتُ إلى النحلة الصغيرة وهي غارقة في النوم على الكنبة، بفمها المفتوح، نصفه. كانت تتكيء بذقنها على ركبتيها المطويتين...التزمت الصمت...»

ـ ساره؟

ـ لن أتصل بالشرطة! سأسمح لها بالبقاء!

ـ لكن لماذا؟ ما الشيء الإيجابي الذي تجدينه ببقائها؟

ـ لم أستطيع مساعدتها عندما التقيتها في المرة الأولى! ربما أستطيع الآن!

ـ وعلى ماذا ستبرهنين بتصرفكِ هذا، بالضبط؟

ـ ربما سأبرهن بأنني لست أهلاً لتقبل النصيحة، كما وصفتني منذ قليل، لورانس!

ـ ليس هذا ما قصدته!

ـ بلى! وهذا يساعدنا على التحقق من النقطة الأساسية!

ـ أية نقطة؟

ـ إنني امرأة صعبة المراس، في بعض الأحيان!

«افتعل لورانس، الضحك...»

أغلقتُ سماعة الهاتف، وحدقت لمدةٍ طويلة في الألواح البيضاء التي تكسو أرضية المطبخ.

صعدت إلى الطابق العلوي لأنام على الأرض في غرفة تشارلي. أردت أن أكون بجانبه. ربما كان لورانس على حق. لا أعلم ما قد تفعله النحلة الصغيرة أثناء الليل!

جلستُ واستندتُ بظهري على المشعاع البارد في غرفة تشارلي ووضعت قدمي تحت اللحاف، حاولت تذكر ما قاله، لورانس.

انتهيت من شرب كأسي. في الحقيقة، لم أستسغ طعم الليمون الصناعي . . . عدم

الحصول على ليمونٍ طبيعي يُعدّ مشكلةً صغيرة بالنسبة لامرأةٍ انحدرت من عائلةٍ ذات مشاكل صغيرة وسهلة الحل.

في عائلتي . . . لم تكن شائعة العلاقات خارج نطاق الزواج. كانا أبي وأمي يحبان بعضهما كثيراً. فهما يلعبان معاً دور العاشق والمعشوق لمدة خمسة وعشرين عاماً. وقد كنا نقضي عطلة نهاية الأسبوع في منزل العائلة، أو نجتمع على الغداء مع الأهل والأصدقاء.حيث كنا نقضي أيام العطل في ديفون معهم، فكانوا شركاء لنا طوال حياتنا.

كنت أتساءل كيف خرجت عن المألوف في علاقاتي؟

نظرت إلى ولدي النائم تحت اللحاف، يبدو شاحب الوجه...لا يتحرك...مرتدياً لباس بات مان! أصخت السمع لصوت تنفسه المنتظم، المعافى...كان غارقاً في النوم.

لا أذكر متى نمت بهذا العمق مذ تزوجتُ آندرو!

اكتشفت خلال الشهر الأول من زواجنا بأنه ليس بالرجل المناسب لي. بعدها، لطالما دفعني شعوري بعدم الرضا لبقائي مستيقظةً طوال الليل، فالأقوياء لا يستطيعون النوم بعد أرق. مع ذلك، كنت طفلةً سعيدة على الأقل. حين كنت ما أزال ساره سومرز فقط!

لا زلتُ أستعمل لقب«سومرز» كاسم مهني. لكنني أعتقد بأنني تناسيته على الصعيد الشخصي.

كفتاة! أحببتُ كل ما تحبه الفتيات، سوار بلاستيكي وردي اللون! ثم أساور فضية عندما كبرتُ قليلاً ! الأصدقاء الصبيان! ثم الرجال!

تشكلت إنكلترا مع ضباب الفجر! الحياة فيها توقظ الناس برفقٍ عند الصباح!

كان أول قرارٍ حقيقيٍ اتخذته في حياتي هو، دراستي الجامعية؟ فقد نصحني كل أساتذتي بدراسة القانون... لكنني وبكل بساطة اخترت، دراسة الصحافة!

التقيتُ بآندرو أوروك عندما عملنا معاً في صحيفةً مسائية في لندن! كانت صحيفتنا تُعبّر عن روح المدينة! واحد وثلاثون صفحة كانت جميعها مخصصة لأخبار

المشاهير! وصفحة واحدة فقط عن أخبار العالم، خارج المحيط المداري للندن، كانت تقدمها الصحيفة كنوعٍ من تذكرة الموت.

تبدو لندن شيقة. الرجال فيها كالسفن المحطمة! أعجبت بآندرو لأنه لم يكن يشبههم. يعود ذلك إلى دمه الإيرلندي ربما. فقد كان يسير بعكس التيار. فهو المحرر المسؤول عن الأخبار الخارجية في الصحيفة . . . أي بمعنىً آخر: كان هو العجلة التي تحرّك القارب! طردوه لما يتصف به من عناد شديد. بعد ذلك، عرّفته على أهلي، ثم استحوذت على اسمه إلى الأبد!

أورورك لقبٌ قاسٍ ، اعتقدتُ أن سعادتي ستخفف من قسوته. ولكنني كامرأة اسمها ساره أورورك! أشعر أنني فقدتُ السعادة، وحصلت بدلاً منها على شعورٍ من الانفصال المؤلم. حدث الزواج بشكلٍ مفاجئ. أعتقد أنني لو توقفت عن التفكير بذلك، لأدركت أن آندرو كان يشبهني تماماً. فقد كنا عنيدين للغاية، فتحول إعجابنا ببعض إلى استنزاف لكلينا.

زواجنا السريع كان الرد على إصرار والدتي الشديد بعدم الزواج منه إطلاقاً. كان لوالدتي رأي، «يجب على أحدكم أن يكون أقل حدةٍ وأكثر لين، على أحدكم أن يتنازل». وطبعاً أنت لن تفعلي ذلك يا عزيزتي! وأظنه هو أيضاً لن يفعل ذلك!

كان العيش تحت اسم آندرو أورورك هو ثاني قرار حقيقي اتخذته في حياتي. وقد كان قرار خاطئ. أظن بأن النحلة الصغيرة ستتفهمني! فعندما نتخلص من أسماءنا الحقيقة (أنا وهي)، حينها سنشعر بالضياع.

هل أطلب منها أن ترحل؟ لا! لا! لا أستطيع! لقد تشاركنا أحداثٍ مصيرية على الشاطئ، والتخلص منها بمثابة فقدان جزء أساسي من ذاتي!سيبدو ذلك كالتضحية بإصبع أو اسم! لن أسمح بحدوث ذلك مرةً أخرى!

كنت مستلقيةً على الأرض، أراقب تشارلي وهو نائمٌ بسلام. كم أحسده على استغراقه بالنوم هكذا!

جافاني النوم لأسبوعٍ كامل بعد عودتنا من إفريقيا.

حينها، رحل الصيادون المجرمون بعيداً عن الشاطئ، وعدنا أدراجنا بكل

بكل هدوء إلى مجمع الفندق. فقمنا بتوضيب الأغراض بعد قضاء نصف ساعة عند طبيب الفندق الذي ضمّد جدعة إصبعي المقطوع بالشاش، وربطها بإحكام. كنت في حالة ذهول! وعندما سافرنا عائدين إلى لندن، تذكرتُ أن ما أثار دهشتي واستغرابي، هو أن تستمر قصة كبيرة كهذه ببساطة بدوني دون أن أشهد نهايتها، كما كانت كل القصص تنتهي في أيام طفولتي المتأخرة.

أما ما أخذناه من انطباع عن عقلية المجرمين أظنها كانت نهاية عصر البراءة بالنسبة لنا، أما هم، فلم يكن لهم سوى صباح خميس آخر لا أكثر! فتراهم عائدين إلى عالم الموت حيث يسكنون، غير مكترثين بعالم الأحياء الذي نعتبره نحن مقصداً سياحياً نزوره لفترةٍ وجيزة، ثم نعود منه حاملين معنا الهدايا التذكارية وإحساساً مؤرّقاً يدفعنا للندم لإنفاقنا الكثير لشرائها!

في الطائرة، رفعتُ يدي المصابة عالياً بمحاولة لتخفيف الألم. بعد تناولي كميةٍ لا بأس بها من المسكنات، جاءتني فكرة بمنع آندرو من لمس جرحي بالمطلق. تخيلت، الصيادين المجرمين وهم يخطفون النحلة الصغيرة وشقيقتها عبر الشاطئ. ثم اختفى الجميع فجأةً من أفق عالمي الخاص، إلى ذلك البلد الخطير الذي يسكن عقلي، حيث لم يفارقني الأرق خلال الليل، وأنا أفكر بمصير هاتين الفتاتين الأفريقيتين.

رغم أن الأفكار السيئة لم تفارق رأسي، عدت للمجلة حيث أعمل. ويُعدّ افتتاح مجلة نيكسي هو ثالث قرارٍ حقيقي اتخذته في حياتي. وطبعاً لم أندم على ذلك! ولن أندم على القرار الرابع الذي اتخذته وهو تشارلي! أفضل قرارٍ اتخذته إلى الآن! أما القرار الخامس، ألا وهو لورانس! الذي كنت مستعدةً للاستغناء عنه. لكنني أدركتُ أن ذلك غير ضروري بعد الكارثة التي لحقت بنا على شاطئ نيجيريا!

كرّست حياتي للعمل، وأجبرتُ نفسي على نسيان وتجاهل أحداث الشاطئ المروعة. فهناك في أفريقيا الكثير من المشاكل. علينا عدم التعلق بحادثةٍ معينة ونسيان المصائب الكثيرة التي تعيشها المنطقة. لقد كانت هذه النصيحة الوحيدة التي أخذتها من لورانس، فقد أصرّ على إقناعي بذلك! وقد تبرعت ببعض المال المأخوذ

من حسابي المصرفي إلى بعض الجمعيات الخيرية الأفريقية.
عندما سألني الناس ماذا حدث لإصبعي، كنت أجيبهم بأن آندرو وأنا كنا نركب السكوتر، وتعرضنا لحادثٍ بسيط!
فقد أصبحت إمرأة بروح متعددة الأقنعة، امرأة هادئة في المنزل...مديرة في مجلة... قلقة في الليل...لكنني أعتقد بأنني نجحت بجعل الحياة تستمر لأجلٍ غير مسمى.
وقفتُ في غرفة تشارلي، وتوجهت إلى المرآة، فلاحظت وجود أكياسٍ تحت عينيّ، وخطوط حادّة عبر جبهتي. يبدو أن القناع يتحطم رويداً رويداً!
خاطبت نفسي، لا يتعلق الأمر بقراراتٍ قُمتُ باتخاذها! لأن السبب الرئيسي الذي دمّر حياتي! وقضى على آندرو! وسبب لي الأرق خلال الليل! هو ما حدث في غيابك! لقد أدركتُ أكثر من أي أمرٍ آخر، أنني أود معرفة ما حدث بعد أن أخذ الصيادون المجرمون الفتاتان بعيداً أسفل الشاطئ. أرغب حقاً، معرفة ما حصل بعد ذلك!

الفصل الخامس

عندما استيقظتُ من النوم في منزل ساره، لم أعرف أين أنا في البداية. فتحتُ عينيَّ جيداً ونظرت حولي. رأيت العديد من الوسائد الحريرية برتقالية اللون. مطرّزةً برسوم طيور وأزهار. تتسلل أشعة الشمس إلى البيت عبر نوافذ تنسدل منها ستائر طويلة من المخمل البرتقالي تلامس بلاط غرفة الجلوس، تحوي الغرفة منضدة قهوة على سطحها لوحٌ زجاج سميك. كان هناك مجلتان موضوعتان على الرف الأسفل، تحت سطح المنضدة. إحداهن عن الأزياء والموضة، والأخرى عن تحديث ديكور المنزل.

نهضت عن الكنبة، ولامست قدماي الأرضية الخشبية للمنزل. لو أخبرت فتيات قريتي في نيجيريا بهذه التفاصيل، سيستغربن ويسألنني، كيف يمكن للمنضدة أن تكون مصنوعةً من القهوة؟ وما هو المخمل؟ ولماذا تمدّ المرأة حيث كنت تقيمين عندها الخشب على الأرض؟ لما لا تضعه في كومةٍ عند إحدى جوانب المنزل كما يفعل الجميع؟ هل هي كسولة إلى هذه الدرجة؟

عندها سيكون من واجبي أن أجيب، « منضدة القهوة غير مصنوعة من القهوة! أما المخمل فهو قماش ناعم كنعومة الغيوم الصغيرة. وبالنسبة للخشب المصفوف فوق أرضية منزل ساره، فهذا ليس حطباً كما تعتقدن. إنه مجرد أرضية مصممة حسب المواصفات السويدية للديكور، من قشور خشبٍ أصلي معتَمد من قبل مجلس الإشراف على الغابات، وتحت رعاية الممارسات الأخلاقية لحماية الغابات! وقد عرفتُ هذه المعلومات لأنني رأيتُ أرضيةً كهذه بين صفحات مجلة الديكور

الموجودة على الرف تحت سطح منضدة القهوة. بعد ذلك، ستحدق الفتيات بي بدهشة، لأنهن فهمن الآن أنني وصلتُ إلى ما وراء نهاية العالم! مكانٌ يُصنع الخشب فيه عن طريق الآلات! سوف يتعجّبن من الشعوذة التي أتحدث عنها! تخيلوا كم سأكون متعبة عندما سأقول كل هذا لفتيات قريتي. هذا هو السبب الحقيقي الذي يمنع الجميع من قول أي أمرٍ لنا نحن الأفارقة. ليس لأنهم يريدون لقارتنا أن يسودها الجهل، بل لأنهم لا يملكون الوقت الكافي للجلوس وتفسير المبادئ الأولى للعالم الأول. أو ربما يرغبون بذلك لكن لا يستطيعون. فقد أصبحت ثقافتهم متطورة، لديهم الحاسوب، وأدوية الصداع التي يتناولونها دون معرفة تفسير وظيفتها، خاصةً لفتيات اعتدن على وضع كومة الحطب عند إحدى زوايا المنزل.

لو علمتم أن منزل ساره يشبه حديقة كبيرة من الغزلان الأليفة، ألن تقفزوا بسرعةٍ من مقاعدكم وتصرخوا بصوتٍ عالٍ؟، يا إلهي! أحضروا لي بندقيتي! سأذهب لاصطياد أحد تلك الغزلان الحمقاء!، بل ستبقى جالساً في مكانك، تفركُ ذقنك بحكمة، وتحدث نفسك، امممم! أعتقد أن هذه حديقة ريتشموند الموجودة خارج لندن!

طبعاً هذه القصة لأشخاصٍ متطورين مثلكم فقط!

ما من داعٍ لأصف لكم طعم الشاي الذي قدمته لي ساره عندما دخلت غرفة الجلوس ذاك الصباح. لم نكن نعرف طعم الشاي في قريتي، بالرغم من أنهم يزرعونه في الجزء الشرقي من بلادي، في الأراضي المرتفعة، حيث تنمو بعض اللحى الطويلة من الطحالب بتأثير الهواء الرطب. في الجزء الشرقي، تمتد المزارع حتى سفوح الجبال الخضراء، تتلاشى في الضباب، كما يتلاشى أيضاً الشاي الذي يزرعونه هناك، بسبب تصديره للخارج. فلم أتذوق الشاي إلا بعد أن تم تصديري للخارج أيضاً. فقد كان القارب الذي نقلني إلى هنا محمّلاً بشحنات الشاي، حيث كان مُعبّئاً في أكياس ورق بنّية مكومة في عنبر الشحن. حفرتُ بين الأكياس كي أختبئ. وبعد يومين لم أعد قادرة على الاختباء أكثر من ذلك، فخرجتُ من مخبئي، ثم قام

قبطان السفينة باحتجازي في القمرة. لأنه من غير الآمن لي أن يتركني بين الطاقم. فقضيتُ ثلاثة أسابيع وخمسة آلاف ميلاً بحرياً أنظر للمحيط من نافذةٍ دائرية صغيرة من الزجاج، وأقرأ كتاباً أعطاني إياه القبطان. بعنوان « توقعات كبيرة»، يحكي قصة صبي اسمه « بيب»، لكنني لم أعرف نهاية القصة لأن القبطان سلمني إلى سلطات الهجرة في المملكة المتحدة بمجرد وصول السفينة إلى هناك.

بعد قضاء ثلاثة أسابيع وخمسة آلاف ميل على متن سفينة محمّلة بالشاي، لو قام أحدٌ بخدشي، سيلاحظ أن رائحته لاتزال تلاصق جلدي.

عندما احتجزوني في مركز احتجاز المهاجرين، أعطوني بطانيةً بنّيةً وفنجان شاي بلاستيكي أبيض اللون. عندما تذوقته، كل ما أردتُ فعله هو العودة فوراً إلى القارب كي أعود إلى وطني.

يُعدّ الشاي الطعمة الحقيقية لبلادي، فهو مرّ ودافئ، قوي وحادّ يرسخ في الذاكرة. يذكّرك طعمه بالحنين، بالمسافة الطويلة التي قطعتها لتصل إلى هنا.

لكن طعمه يتلاشى بسرعة، يتلاشى من لسانك بينما تبقى شفتاك ساخنتان من الفنجان. ثم يختفي كالمزارع الممتدة خلف الضباب.

سمعتُ أن الشعب الإنكليزي يعد من أكثر الشعوب استهلاكاً للشاي. لا بد أنهم يعانون بسبب ذلك! كالأطفال الذين يتوقون لرؤية أمهاتهم الغائبات! كم أشعر بالأسف!

شربنا الشاي في مطبخ ساره. كان تشارلي لايزال نائماً في غرفته بالطابق العلوي. وضعت ساره يدها على يدي، وقالت: علينا التحدث عما جرى! هل تودين إخباري ماذا فعل الرجال عندما اقتادوكِ بعيداً أسفل الشاطئ؟

لم أجبها فوراً. جلستُ على الطاولة، ثم نظرتُ في أنحاء المطبخ، لأستمتع بكل ما هو جديد ورائع. فمثلاً، هناك ثلاجة في مطبخ ساره، « صندوق ضخم فضي اللون، مزوّد بآلة لصنع الثلج!» الجزء الأمامي لآلة الثلج من الزجاج الشفاف، مما يمكنك من رؤية ما يحدث في الداخل! حيث ستجد مكعبات لامعة صغيرة من الجليد! ربما ستضحكون عليّ، وتقولون، يالهذه الفتاة القرويّة الساذجة، التي تحدّق في

مكعبات الثلج!

أجل ،ستضحكون كثيراً، لكن الحقيقة، إنها أول مرةٍ في حياتي أرى فيها الماء يتجمّد ليصبح صلباً بهذا الشكل! كان ذلك بغاية الجمال! لأنه إن كان بإمكاننا فعل هذا، ربما نستطيع أن نفعله في كل الأشياء التي كانت تهرب بعيداً وتختفي في الرمال والضباب! يمكننا أن نجعل كل شيءٍ صلباً مرةً أخرى! نعم! حتى الوقت الذي كنت أقضيه وأنا ألعب في التراب الأحمر مع شقيقتي نكيروكا تحت حبل الأرجوحة. كنتُ أؤمن في تلك الأيام أن أشياءً كهذه ستكون ممكنة في بلدانٍ أخرى غير نيجيريا. لقد عرفتُ أنني سأكتشف العديد من المعجزات الكبيرة عندما أرحل عن بلدي. تمنيت العثور على مصدر كل هذه العجائب الصغيرة!

لاحظت مكعب الثلج وهو يرتجف على ذراعه المعدنية الصغيرة خلف الزجاج الشفاف البارد. كان يلمع . . . كالروح البشرية!

نظرت ساره إليّ وكانت عيناها مشرقتان!

ـ أيتها النحلة؟ أريد معرفة ما حدث! هل أنت مستعدة للكلام؟

« انتهت آلة صنع الثلج من صنع مكعب سقط في علبة جمع المكعبات، ثم بدأت بصنع مكعبٍ جديد . . . تراجعت ساره للحظة!»

ـ ساره؟ من غير الضروري أن تعلمي ما حدث! فذلك لم يكن خطأك!

«أمسكتني من يدي»

ـ أرجوك أيتها النحلة! أريد أن أعرف!

«تنهدتُ وشعرتُ بالغضب. لم أرغب بالتحدث عن ذلك. لكن، طالما ترغب هذه المرأة إرغامي على الكلام، سأحقق رغبتها بسرعةٍ كي أرتاح».

ـ حسناً، ساره! بعد أن غادرتِ أنت وآندرو، أخذنا الرجال بعيداً أسفل الشاطئ. مشينا لبعض الوقت، ربما لساعة تقريباً. ثم توجهنا نحو قاربٍ مقلوب رأساً على عقب، بعض من ألواحه متكسرة. يبدو أنه تحطم نتيجة عاصفةٍ ما، فألقوه على الشاطئ وتركوه هناك. كان الجزء السفلي منه أبيض بفعل الشمس. فقد تقشر كل طلاءه. وكانت الحيوانات البحرية القشرية تلتصق به. دفعني الصيادون

المتوحشون بعنف تحت القارب وطلبوا مني أن أنصت لهم جيداً، قالوا بأنهم سيطلقون سراحي عندما ينتهون!

كان المكان مظلماً تحت القارب! وكان سرطان البحر يتحرك من حولي.

اغتصب الرجال شقيقتي نكيروكا في الجانب العلوي من القارب! فقد سمعتُ أنينها!

لم أستطيع سماع الكثير لتراكم ألواح القارب، فقد كان الصوت مكتوماً. لكنني سمعتُ صوت أختي وهي تختنق! كما سمعتُ صوت ضربات مستمرة تنهال على جسدها من فوق الألواح. حدث ذلك في الصباح، رغم ذلك كان المكان تحت القارب مظلمٌ وبارد.

في البداية، كانت أختي تُرتل آيات من الكتاب المقدس، لكنها فقدت عقلها بعد قليل، وبدأت تغني الأغاني التي كنا نغنيها ونحن أطفال. في النهاية، لم أعد أسمع سوى صوت صراخها! كان في البداية، صراخ بسبب الألم، ثم تحول ليشبه بكاء طفلٍ حديث الولادة! كان بكاء أوتوماتيكياً خالياً من الحزن! كل صرخةٍ منه تشبه الأخرى، وكأن آلةً أوتوماتيكيةً هي من يقوم بصنع ذلك الصراخ!

كانت ساره تحدق بوجهي وأنا أسرد الحكاية. كان وجهها شاحباً، عيناها محمرتان. يداها فوق فمها، كانت ترتجف! وأنا أيضاً كنت أرتجف، لأنني لم أخبر أحداً بذلك من قبل.

ــ لم أستطع أن أرى ما فعله الرجال بشقيقتي! لكن الجانب الآخر من القارب محطماً! فاستطعتُ الرؤية من خلاله، رأيتُ القاتل المجروح وهو يدخن السجائر التي سلبها من الحارس الذي قتله! كان يلقي نظرةً على المحيط! وكأنه ينتظر قدوم أحد ما إليه! ويتلمس جرحه أحياناً! أكتافه منحنيةً للأسفل، وكأنه يحمل وزناً ثقيلاً!

«تشنجت ساره وبدأت ترتجف، مما جعل طاولة المطبخ تهتزّ معها. وبدأت بالبكاء».

ــ يا إلهي! شقيقتك الجميلة! أووووا يا إلهي! أووووا يا يسوع!

«لم أكن أود أن أسبب الألم لساره أكثر من ذلك ولم أود إخبارها بما حدث بعد ذلك.

لكنني سأفعل الآن، لأنني بدأت قصتي ولم أعد قادرة على التوقف عن الكلام».
عليّ أن أنهي ما بدأته. فلا يمكننا الاختيار متى نبدأ ومتى ننتهي. فقصصنا هي من يوضح « من نحن!».

ــ في النهاية، سمعتُ نكيروكا تتوسلهم طالبةً الموت! كما سمعتُ أصوات الصيادين وهم يضحكون! بعدها سمعتُ أصوات عظام جسد شقيقتي تتكسر! لقد ماتت شقيقتي بهذه الطريقة!

نعم، ساره! أنت على حق! كانت فتاةً بغاية الجمال! كانوا يلقبونها في القرية، بالفتاة التي تزيح الهم عن قلوب الرجال! لكن ليس دائماً، كما كان بعضهم يقول!

عندما انتهى الرجال والكلاب من شقيقتي، قاموا بإلقاء أجزاء جسدها الغير صالحة للأكل في البحر!

توقفت ساره عن البكاء والارتجاف. كانت تمسك فنجان الشاي بثبات، وكأنها ستقع إن لم تتمسك به جيداً!

ــ وأنتِ! ماذا حصل لك؟

ــ أصبح الطقس حاراً جداً،حتى تحت القارب. وبعد الظهيرة بدأ النسيم العليل يهبّ من جهة البحر. كان الرمل يتطاير فوق ألواح القارب. نظرتُ من بين الثغرات لأرى ماذا يحدث! كانت طيور النورس البعيدة تحلق بهدوء في مهب الريح خلف الأمواج العالية، وعندما تغطس في المحيط، تخرج حاملة في مناقيرها السمك الفضي اللامع! بالكاد استطعت رؤيتهم، لأنني اعتقدتُ أن مصيري سيكون كمصير شقيقتي، لذلك حاولتُ التركيز على أمرٍ جميل كي أنسى الرعب الذي كان يسكنني!

لم يقترب الرجال مني! فبعد أن انتهوا من شقيقتي! ذهبوا مع كلابهم إلى الأدغال كي يناموا! مكث قائدهم حيث هو ولم يذهب معهم! مازال جالساً على الشاطئ، حيث الأمواج تُغمر ساقيه! متمايلاً مع حركة الرياح!

بعد ذلك، أصبح الطقس حاراً لدرجةٍ لا تطاق! مما جعل طيور النورس تتوقف عن الصيد! لتطفو على الأمواج فقط! واضعةً رؤوسها في صدورها!

بدأ قائد المجرمين بالسباحة!أفسحت طيور النورس الطريق له! وصل لعمق البحر، فلم أعد أراه! لقد اختفى! كل ما استطعت رؤيته هو الخط المتمايل الفاصل بين البحر والسماء! ثم بدأت حرارة الطقس تزداد أكثر فأكثر!

هنا! خرجتُ من تحت القارب! لأنني عرفتُ أن المجرمين غارقين في النوم على الأغلب! نظرتُ حولي بحذر! لم يكن هناك أي أحد أو ظل على الشاطئ! كانت الحرارة قاتلة، لدرجة اعتقدتُ أنني سأموت من الحرّ فقط! تسللت لمقدمة الشاطئ وبللت ملابسي، ثم هرعت مسرعةً إلى مجمع الفندق! كنت أركض فوق المياه الضحلة كي لا أترك آثار أقدامي على الرمال، كي لا يتتبع الرجال أثري! وصلت إلى المكان الذي قتلوا فيه الحارس! كانت طيور النورس تتشاجر على جثته! طارت من الفزع عندما رأتني! لم أستطيع النظر لوجهه! كان هناك سرطان البحر يدخل ويخرج من فتحة بنطاله! رأيتُ محفظةً مرميّةً على الرمال، التقطها وهربت، لقد كانت محفظة آندرو يا ساره! أنا آسفة، عندما فتحتها وجدت فيها العديد من البطاقات البلاستيكية! مكتوبٌ على إحداها «شهادة قيادة » بصورة لآندرو عليها! وعنوان منزلك مكتوبٌ عليها أيضاً!

كما إنني وجدت بطاقةً أخرى في المحفظة، إنها بطاقة عمل زوجك مذكورٌ فيها رقم هاتف منزلكم! فاحتفظتُ بها هي الأخرى! حتى إنها طارت من يدي بسبب الرياح، فهرعت واستعدتها، ثم غادرت لأختبئ في الأدغال، فوجدتُ مكاناً يُتيح لي رؤية الشاطئ!

بدأ الطقس يميل للبرودة...وهنا، رأيت شاحنةً قادمة من جهة مجمع الفندق! كانت شاحنةً عسكرية! نزل منها ستة جنود، وقفوا يحدقون بجثة الحارس! ويتحسسونها بأطراف أحذيتهم الضخمة!

سمعتُ صوت أغنية مشهورة تنبعث من مذياع الشاحنة، إنها أغنية « وان» لفرقة « يو توا». فقد كنا نستمع لهذه الأغنية دائماً في منزلنا، حيث قام رجال القرية مرّةً بإحضار بعض أجهزة الراديو من المدينة، كان من المفروض حينها أن نولفه كي نستمع لإذاعة « خدمة العالم» من بي بي سي، لكن شقيقتي نكيروكا

ولفت مذياعنا نحو محطة « بورت هاركورت» الموسيقية بدلاً من ذلك! لطالما تشاجرنا أنا وهي، لأنني كنت أفضل الاستماع إلى الأخبار والأحداث الراهنة.لكنني الآن وأنا أختبئ في الأدغال خلف الشاطئ، تمنيت لو أني لم أتشاجر أبداً مع شقيقتي!

كانت نكيروكا تحب الموسيقى، فأدركت الآن أنها كانت محقة، لأن الحياة قصيرة جداً، وبالتالي لا يمكننا الرقص بسعادة على صوت الأحداث الراهنة!

هنا، بدأتُ بالبكاء، لم أبكي عندما قتلوا شقيقتي، لكنني بكيت عند سماعي للأغنية القادمة من مذياع شاحنة الجنود! حينها حدثت نفسي، « إنها أغنية أختي المفضلة! ولكنها لن تستطيع سماعها مرةً أخرى بعد الآن!».

أتعتقدين وقتها، بأنني قد جننت، ساره؟

«كانت ساره تعض أظافرها بتوتر . . .»

ـ كان كل من في القرية يحب فرقة « يو توا»، أو بالأحرى كان كل سكان نيجيريا يحبونها! أليس ذلك مضحكاً؟ إن متمردي النفط يستمعون إلى فرقة « يو توا»، وجنود الحكومة يستمعون إلى فرقة « يو توا»! أعتقدهم جميعاً يتحاربون فيما بينهم وهم يستمعون إلى نفس الفرقة!

أتعلمين...؟ أول أسبوع قضيته في مركز احتجاز المهاجرين، كان الجميع يستمع إلى فرقة « يو توا»! إنها لخدعة جيدة نعيشها جميعاً في هذا العالم المجنون، ساره! فالجميع يكرهون بعضهم البعض، لكنهم جميعاً يحبون فرقة « يو توا»!

«طوت ساره يديها فوق الطاولة، وحدقت في وجهي»

ـ هل أنت قادرة على الاستمرار؟ هل بإمكانكِ إخباري كيف نجوت؟

ـ حسناً ! كان الجنود يطرطقون بأحذيتهم مترنمين على صوت الأغنية! ثم لفّوا الجثة بقطعة قماش كبيرة، وحملوها إلى الشاحنة! فكرتُ بالذهاب إليهم لأطلب النجدة، لكنني شعرتُ بالخوف! فالتزمت مكاني حيث أنا! غادر الجنود وعاد المكان هادئاً مرةً أخرى!

عند غروب الشمس، قررتُ عدم الذهاب إلى مجمع الفندق! كنت خائفة من

الجنود كثيراً، فقررتُ السير للاتجاه الآخر! كانت الخفافيش تحوم في المكان! انتظرتُ ليحل الظلام كي أعود إلى المكان الذي قتلوا فيه شقيقتي! ما من ضوء للقمر يصل لهناك! بل مجرد وهجٍ أزرق منبعث من مخلوقات البحر الصغيرة! كنت حينها أشرب الماء من تيار للمياه العذبة قريب من الشاطئ! وأمشي طوال الليل! وعندما حل الصباح، عدتُ إلى الأدغال!

وجدتُ فاكهةً حمراء اللون! لم أعرف اسمها، لكنني كنت أتضور جوعاً! فأكلتها، كانت مرة الطعم !وأصابتني بالإسهال! كنت خائفة أن يعود الرجال ويجدونني هنا! لذلك عندما اضطررتُ إلى التبرّز، طمرتُ البراز تحت التراب، كي لا يجدوا أثراً لي!

كنت كلما سمعتُ صوت ضجةٍ ما، أتوتر خوفاً من أن يعثر الرجال على مخبأي! أُردد في نفسي، « أيتها النحلة الصغيرة! عاد الرجال كي يقطعونك إرباً إرباً»!

بقيت على هذا الحال ثلاث ليالٍ، إلى أن وصلتُ إلى الميناء، حيث الأضواء الخضراء والحمراء تومض على البحر. كان هناك سور بحري اسمنتي طويل، مشيتُ على طول الجزء العلوي من السور! كانت الأمواج تلطمني! لم يكن هناك أي حارس! هناك على الجانب الآخر من نهاية السور، كان هناك سفينتان شراعيتان بجانب بعضهما البعض! معلقٌ على إحداهما علم إيطاليا، أما الأخرى فكان علم بريطانيا يرفرف عليها بشموخ! تسلقت السفينة الإيطالية لأصل إلى الأخرى! نزلتُ إلى عنبر الشحن! من السهل إيجاده، لأن اللافتات مكتوبة بالإنكليزية! وكما تعلمين...الإنكليزية، اللغة الرسمية لبلادي!

توقفتُ عن الكلام، ونظرتُ لقماش الطاولة، تركت ساره مكانها وجلست بقربي ثم عانقتني بحرارةٍ لفترةٍ طويلة. وبدأنا بشرب فنجاني الشاي الباردين، مُسندةً رأسي على كتفها.

في الخارج، أصبح النهار أكثر إشراقاً. لم نعد نتكلم، بعد فترةٍ وجيزة، سمعتُ صوت خطوات تنزل الدرج، دخل تشارلي إلى المطبخ، مسحت ساره دموعها وأخذت نفساً عميقاً، ثم جلست باعتدال.

كان تشارلي مرتدياً زي بات مان، دون القناع والحزام. لم يبدو عليه الانزعاج من

رؤيتي. لكنه أغمض عينيه متفاجئاً بأنني لازلت موجودةً ولم أغادر! كان يفرك عينيه بنعس، ووضع رأسه في حضن أمه.

ـ لا يزال الوقت مبكراً ! لم استيقظتِ باكراً، ماما؟

ـ معذرةً، بات مان!

ـ أخبرتك، أن الوقت لا يزال مبكراً ! لم أنت مستيقظة؟

ـ أمك والنحلة الصغيرة استيقظتا مبكرتان هذا الصباح!

ـ امممممم!

ـ لدينا الكثير من المهام لننجزها!

ـ امممممم؟

ـ يا إلهي بات مان! هل تفهم ما أقول؟ أم أنك غير موافق؟

ـ امممممم؟

ـ آ آ آه !...فهمت الآن! أنت خفاش صغير يحمل جهاز تحسس الموجات الصوتية، كي تبحث عن المخلوقات المختبئة التي ستخرج فجأةً وتكسر غرضاً من أغراض البيت! أليس كذلك أيها المشاكس؟

ـ امممممم؟

«حدق تشارلي في وجه أمه وهي تنظر إليه لوهلة، ثم التفتت نحوي وابتسمت لي. كانت دموعها على وشك أن تنهمر مرةً أخرى».

ـ تشارلي يملك عينين خارقتين! أليس كذلك؟ إنهما تشبهان عينا الأفعى السامة كما في الأنظمة البيئية!

ـ كلا! هذا ليس صحيحاً!

ـ «ضحكت سارة» حسناً يا عزيزي! ما أقصده هو أن عيناك تعبران عن الكثير من الأمور!

«ضربته ضربةً خفيفةً على رأسه مازحةً...»

ـ امممممممم! لماذا تتباكين، ماما؟

«تنهدت سارة بعمق»

ـ يقولون لماذا تبكين، تشارلي! وليس لماذا تتباكين!

ـ لماذا تبكين، ماما؟

«انهارت ساره، وبدى أنها استنفذت كل قواها، ثم انحدرت للأسفل واحتوت وجهها بين ذراعيها وانفجرت بالبكاء».

ـ أووووا يا عزيزي تشارلي! ماما تبكي لأنها شربت كأسين من النبيذ ليلة أمس! ماما تبكي لأنها تفكر بأمرٍ من المفروض ألا تفكر به! أنا آسفة كثيراً يا تشارلي! لم تعد ماما حساسةً كالسابق، لذلك عندما تحبس مشاعرها كثيراً، تخرج حينها مشاعرها المكبوتة فجأةً دون سابق إنذار!

ـ امممممممم؟

ـ أووووا تشارلي!

فتحت ساره ذراعيها، فاندفع تشارلي إلى حضنها، وتعانقا بحرارة. لم يكن من المفروض أن أكون جالسةً معهم في تلك اللحظة، فخرجتُ للحديقة وجلست بجانب بركة السمك وفكرت في أختي لفترةٍ طويلة.

في وقت لاحق، عندما أصبحت الشمس أكثر ارتفاعاً في السماء، وعندما ازدادت ضجة حركة المرور على الطرق، خرجت ساره إلى الحديقة لملاقاتي.

ـ آسفة! كان عليّ أن أصطحب تشارلي إلى الروضة!

ـ لا بأس!

«جلست ساره بقربي وربتت على كتفي».

ـ كيف تشعرين، أيتها النحلة؟

ـ أنا بخير!

«ابتسمت ساره بحزنٍ»

ـ لا أعرف ما أقول!

ـ ولا أنا أيضاً !

جلست أنا وهي نراقب قطةً تتدحرج على العشب تحت أشعة الشمس في الجانب الآخر من الحديقة...

ـ تبدو تلك القطة سعيدة!

ـ امممممم . . . إنها قطة جارنا!

«أخذت ساره نفساً عميقاً»

ـ هل ترغبين بالبقاء هنا لفترةٍ وجيزة؟

ـ هنا؟ معك؟

ـ نعم! معي أنا وتشارلي!

ـ لا أعرف! وجودي هنا غير قانوني، ساره! قد يأتي الرجال في أي لحظة كي يُعيدوني إلى بلادي!

ـ لماذا إذاً أطلقوا سراحكِ من مركز احتجاز المهاجرين إن لم يكن مسموحٌ لك بالبقاء!

ـ حدث ذلك بالخطأ! فعندما يكون مظهرك لائقاً وعندما تتكلمين بلباقة... عندها يتم إطلاق سراحك عن طريق الخطأ!

ـ لكنك حرّة الآن! لن يحضروا خصيصاً من أجلك! نحن لسنا في ألمانيا النازية! ربما نستطيع أن نقوم ببعض الإجراءات من أجل سلامتك! سأخبرهم بما حصل لك هناك! كما سأخبرهم ما الذي ستتعرضين له لو عدت إلى بلادك!

ـ عندها سيقولون لك أن نيجيريا بلد آمن يا ساره! وبعدها سيأخذون فتاةً مثلي فوراً إلى المطار!

ـ أنا واثقة من أننا سنجد حلاً ما! فأنا محررة في مجلة! وأعرف الكثير من الناس! سأفعل ما بوسعي!

أطرقتُ بالأرض، فابتسمت ساره في وجهي وحنت بيدها فوق يدي...

ـ ما زلتِ صغيرة أيتها النحلة! إنك لا تعرفين كيف تسير الأمور في هذا العالم! لم تري سوى المشاكل في حياتك! لذلك تظنين أنك لن تواجهي سوى المشاكل أيضاً ! أليس كذلك؟

ـ وأنتِ أيضاً واجهتي الكثير من المشاكل، ساره! إنك ترتكبين خطأ فادحاً إن كنت تظنين أن ذلك غير طبيعي! صدقيني! فالمشاكل كالمحيط، إنها تغطي ثلثي العالم!

«جفلت ساره، وكأن أحد صفعها على وجهها...»

ـ ما الأمر؟

«وضعت رأسها بين يديها»

ـ لا شيء! يا للسخف!

«لم أعرف ماذا أقول! كنت أبحث في الحديقة عن شيءٍ أقتل نفسي به، في حال قدِمَ الرجال! رأيتُ شوكةً خضراء لنبتة ضخمة، فكرت ربما تكون وسيلة فعالة! إذا جاء الرجال! سأطعن نفسي بتلك الشوكة! كنت أحفر التربة بأظافري، فعصرت التراب الرطب بين أصابعي..»

ـ بماذا تفكرين أيتها النحلة الصغيرة؟

ـ امممممممم؟

ـ سألتك بماذا تفكرين؟

ـ آ آ آه ! كنت أفكر بنبات المنيهوت!

ـ المنيهوت؟ ولماذا تفكرين به الآن؟

ـ لأننا اعتدنا على زراعته في قريتي، كنا نزرعه ونسقيه، وعندما ينمو، نقتلع أوراقه من جذورها، لنقشرها ونبشرها ونعصرها ونخمرها، ثم نخلطها بالماء ونصنع منها عجينة فنقليها لنأكلها...لقد حلمت بها ليلة أمس!

ـ ماذا كنتم تفعلون أيضاً؟

ـ كنا أحياناً نتأرجح على الحبل!

«ابتسمت ساره، ثم نظرت إلى الحديقة»

ـ لا يُزرع المنيهوت في هذه الحديقة! لا يوجد هنا سوى أطنان من الظيان (الياسمين البري) والكثير من أزهار الكاميليا!

ـ المنيهوت لا ينمو في تربةٍ كهذه!

«كانت ساره تبتسم وتبكي بذات الوقت... أمسكت بيدها...كانت عيناها غارقتان في الدموع!»

ـ أووووا أيتها النحلة! أشعر بالذنب اتجاهك!

ـ ما حصل ليس خطأك، ساره! لقد فقدت شقيقتي وعائلتي! وأنت فقدت زوجكِ! أنا وأنتِ فقدنا أشخاصاً نحبهم!

ـ أنا لم أفقد آندرو أيتها النحلة! أنا دمرته ليس إلا! فقد كنت أخونه مع شخص

آخر! لذلك ذهبنا في رحلة إلى نيجيريا اللعينة، لأننا اعتقدنا أننا بحاجة إلى إجازة لتصحيح الأمور بيننا! هل تفهمين؟

«لم أعطي اهتماماً لما قالته ساره . . .»

أعتقد أنك ستقولين لي بأنك لم تذهبي في إجازة من قبل!.

ـ في الحقيقة! لم أكن أعرف أي رجل، سارة!

ـ نعم! بالتأكيد! نسيت أنك لا زلتِ صغيرة! أليس كذلك؟

«لزمنا الصمت لفترة . . . رنّ هاتف ساره النقال، فردّت عليه . . . وعندما انتهت المكالمة، بدى عليها التعب . . .»

ـ إنها الحضانة! يريدونني أن أذهب لاصطحاب تشارلي، لأنه يتشاجر مع بعض الأولاد . . . لقد أخبروني بأنه خرج عن السيطرة!

«عضت ساره على شفتها» هذا ليس من طبعه!

«رفعت ساره هاتفها النقال مرة أخرى وطلبت رقماً، وهي تنظر للحديقة من وراء كتفي. كانت مستمرة في عض شفتها. وبعد ثوانٍ، سمعنا صوت هاتف آخر يرن داخل المنزل. كان الصوت بعيداً قليلاً عن المكان الذي كنا نجلس فيه. تجمدت ساره للحظة، ثم أنزلت هاتفها من فوق أذنها، وضغطت أحد أزراره، فتوقف الهاتف البعيد عن الرنين.

ـ أووا يا إلهي! لا!

ـ ماذا؟ ما بك؟

ـ اتصلتُ بآندرو! لا أعرف لماذا؟ فقد اتصلتُ به أوتوماتيكياً دون التفكير! فعندما يتعرض تشارلي إلى مشكلة، كنت عادةً أتصل بآندرو! لقد نسيتُ أنه... أووا يا إلهي! يبدو أنني لم أستطيع السيطرة على نفسي بعد! اعتقدتُ أنني أصبحت جاهزة كي أستمع إلى قصتك وقصة شقيقتك! لكنني أدركت الآن أنني لم أكن مستعدة! يا إلهي! ماذا يحدث لي؟

«جلسنا بهدوء، وأمسكت بيدها، فبدأت تبكي، ثم ناولتني هاتفها، وأشارت بإصبعها على الشاشة».

هل ترين؟ لايزال رقمه محفوظاً في هاتفي!

«كان اسمه على شاشة الهاتف النقال، آندرو فقط، دون لقب العائلة».

هل تمسحين الرقم من أجلي أيتها النحلة؟ لا أستطيع القيام بذلك!

(حملتُ هاتفها بيدي...رأيتُ الكثير ممن يتكلمون عبر الهواتف النقالة، وكنت أعتقد دائماً بأن استعمالها صعب. أعرف أنكم ستضحكون عليّ قائلين، ها هي تعود الآن! هذه الفتاة السخيفة التي تفوح من جلدها رائحة الشاي، ومن أصابعها رائحة المنيهوت! لكنني في الحقيقة كنت أعتقد أنه لا بد من وجود « تردد» ما. لقد كنت أظن أن الإشارة تأتي عن طريق توليف ما، كما كنا نفعل عندما كنا نولف المذياع في القرية كي نستمع إلى البي بي سي الإخبارية! كنت أظن أن الهواتف النقالة بهذه الصعوبة! كنت أظن أنه عندما يتصل أحد ما بصديقه، سيسمع صوتاً غريباً ورقيقاً ومخنوقاً في البداية، وكأنه قد سُحق وأصبح مسطحاً كرقاقة البسكويت، ثم تم وضعه في صندوق بريد مليء بالقردة! عندها ستستقبل الاتصال بنسبة ضئيلة وفجأةً، سيقول صديقك شيئا مثل،« فليحفظ الله الملكة»، ومن ثم سيخبرك عن أحوال الطقس في الأماكن البحرية للمملكة المتحدة وبريطانيا العظمى وشمالي إيرلندا... وبعد ذلك يأتي دورك في الكلام. . .

لكنني اكتشفتُ أن استعمال الهاتف النقال أسهل مما ظننت...يبدو كل شيءٍ سهل في هذه البلاد!

كانت كلمة « خيارات» مكتوبة بجانب اسم «آندرو»، فضغطتُ عليها...كان الخيار الثالث، «حذف»، وبعد أن ضغطتُ عليه، اختفى اسم « آندرو أوروورك» تماماً!)

شكراً لك! لم أستطع القيام بذلك بنفسي! أشعر بالخوف أيتها النحلة! ليس هناك من أتصل به! لقد كان آندرو لا يطاق أحياناً! لكنه كان منطقياً دائماً! لقد كان من الجنون أن أرسل تشارلي إلى الحضانة بهذه السرعة! لكنني ظننت أن ذلك سيساعده على النسيان! لا يوجد من أستعين به! هل تفهمين أيتها النحلة؟ لا أدري إن كنت أستطيع القيام بذلك بمفردي! هل أستطيع اتخاذ القرارات

المناسبة من أجل تشارلي لوحدي؟ «السلوك المناسب، المدارس المناسبة، الأصدقاء المناسبين، الكلية المناسبة، الزوجة المناسبة . . . أووووا يا إلهي! تشارلي المسكين!

«وضعتُ يدي فوق يدها»

ـ إن أردتِ...سأذهب معك للحضانة!

«حدقت ساره في وجهي لفترةٍ طويلة ثم ابتسمت»

ـ ليس بهذه الملابس!

بعد عشرة دقائق، غادرتُ المنزل مع ساره، مرتديةً ثوباً صيفياً وردي اللون أعارتني إياه. كان أجمل ثوبٍ ارتديته في حياتي. كان مطرزاً بالورود البيضاء عند الرقبة. شعرتُ بأنني ملكة إنكلترا. كان الصباح مشمساً والنسيم بارداً. وأنا أتبع ساره على الرصيف. كنت كلما التقيتُ بقطة أو ساعي البريد أو امرأة تجرّ عربة، أسألهم « كيف حالك؟»، وكانوا جميعاً ينظرون إليّ وكأنني فتاة مجنونة! لم أعرف لماذا! فأقول في نفسي، هذه ليست طريقة تحيون بها ملكتكم!.لم تعجبني روضة الأطفال. فهي تقع داخل بناءٍ كبير، نوافذه طويلة ومغلقة بالرغم من أن الطقس كان صحواً. والهواء خانق في الداخل، حيث رائحة المراحيض والطلاء اللاصق كرائحة الجناح الطبي داخل مركز احتجاز المهاجرين. شعرت بالحزن بسبب تلك الذكرى المؤلمة. عندما كنا في مركز الاحتجاز، لم يفتحوا لنا النوافذ، لأن النوافذ كانت لا تفتح في الأصل. وفي الجناح الطبي، كانوا يعطوننا طلاءً لاصقاً، ويجبروننا على استخدامه للتعبير عن أنفسنا. كنت أستخدم الكثير من الطلاء الأحمر. وعندما شاهدت المعالجة النفسية رسوماتي، طلبت مني الاستمرار دون توقف،أجبتها، أجل سيدتي! بكل سرور! سأستمر فوراً بعد أن تتكرمي وتفتحي لي نافذةً واحدة أو باب إن كان بالإمكان! لكنني أعتقد أن نكتتي لم تعجبها . . . وفي روضة تشارلي، لا أظن أن مدربة المدرسة قد أعجبت بي هي الأخرى! عرفتُ بأنها المدربة من الشارة التي تعلقها على صدرها، حيث كتب عليها « المدربة». كانت تحدق في وجهي، لكنها لم تكلمني.

ـ أرجو المعذرة! يمنع دخول الزوار! هذه سياسة هذا المكان! هل هذه مربية

الطفل؟

«نظرت ساره نحوي، ثم التفتت إلى المدربة»

ـ اسمعي! المسألة معقدة! هل تفهمين؟

«عبست المدربة في وجه ساره، ثم سمحت لي بالوقوف عند الباب، بينما دخلت ساره كي تهدّئ تشارلي».

مسكين تشارلي! جعلوه يخلع رداء بات مان لأنه تبول فيه. هذا هو سبب المشكلة! كانوا يريدونه أن يرتدي لباساً قطنياً أبيض نظيف. لكن تشارلي لا يريد أن يكون نظيفاً. إنه يفضل رائحته الكريهة وهو يرتدي القناع والقبعة. كان وجهه محمرّاً وملطخاً بالطلاء والدموع. ويصرخ بغضب شديد. ويضرب كل من يقترب منه، يركل ويعض ويخدش ويصيح. ويقف مستنداً على الحائط قائلاً، لا . . . لا . . . لا . . . لاااااا! اقتربت ساره منه وركعت على الأرض، وواجهته وجهاً لوجه مخاطبةً إياه، أووووا يا حبيبي! حينها توقف عن الصراخ ونظر إليها. كانت شفته السفلية ترتجف. ثم أصبح فكه ثابتاً، فانحنى نحو الأسفل، وبصق عليها مخاطباً إياها، ابتعدي عني! أريد بابا!

كان الأطفال الآخرين يجلسون القرفصاء في الزاوية البعيدة من الغرفة، وكانت المعلمة تقرأ لهم حكايةً، لكنهم كانوا مشوشين بسبب تشارلي، فكانوا يراقبونه بخوفٍ من بعيد.

كانت المعلمة التي تقرأ الحكاية، ترتدي الجينز وحذاء رياضي أبيض وقميص فيروزي من النوع الثقيل. كانت تقرأ الحكاية كالتالي: . . . وقام ماكس بترويضهم مستعيناً بخدعةٍ، كيتلين..؟! التفتي ولا تنظري للوراء....وهي خدعة التحديق مباشرةً في عيونهم... إيما؟! أرجوكِ ركزي، جيمس؟! كف عن الثرثرة...مباشرةً في عيونهم . . . أوليي! لا تنظر للوراء! ليس هناك ما يثير الانتباه في الخلف...أرجو منكم أن تركزوا على الحكاية! لقد كان جميع الأطفال يركزون انتباههم على تشارلي وأمه . . .

مسحت ساره لعاب تشارلي عن خدها. وبدأت تبكي. كانت تمد ذراعيها لتحتضن تشارلي، لكنه ابتعد عنها وخبأ وجهه عند زاوية الغرفة. قالت المعلمة التي

كانت تقرأ القصة: «الزموا الهدوء».

عندما اقتربتُ من ساره، عبست المدربة في وجهي وكأنها تقول، ألم أقل لك أن تبقي عند الباب؟ فنظرتُ في وجهها نظرةً تعني: « كيف تجرؤين؟» كانت نظرةً جيدة. فقد تعلمتها من صورة الملكة اليزابيث الثانية، التي كانت مطبوعة على القطعة النقدية من فئة الخمسة جنيهات. تراجعت المدربة خطوةً للوراء، فهرعتُ مسرعةً إلى ساره، ووضعت يدي على كتفها...

نظرت ساره إليّ بحزن، وقالت.

ـ أووا يا إلهي! مسكين تشارلي! لا أعرف ماذا سأفعل!

ـ ماذا تفعلين عادةً عندما يكون بهذه الحالة؟

ـ أواجه الأمر! لكن . . . يا إلهي! لا أعرف ما الذي يحدث لي؟ لقد نسيت كيف أتعامل مع الأمر أيتها النحلة!

غطت ساره وجهها بيديها، ثم أخذتها المدربة وهدأت من روعها. أما أنا، فذهبت إلى تشارلي ووقفت بجانبه أنظر مثله إلى الحائط، دون أن أكلمه. كنت جيدة في النظر إلى الحائط دون أن أتكلم، فقد فعلتُ ذلك لمدة عامين كاملين في مركز احتجاز المهاجرين. وهذا رقم قياسي بلا شك!

كنت أفكر بما سأقوم به لو جاء الرجال فجأةً إلى الحضانة! لم تكن غرفةً عمليةً أبداً، فمثلاً، لا يوجد فيها أي وسيلة للقتل. كانت كل المقصات ناعمة ومستديرة ومصنوعة من البلاستيك، فإذا حاولت قتل نفسي فجأةً في تلك الغرفة، لن أجد أي وسيلةٍ للقيام بذلك.

مكتبة
t.me/t_pdf

بعد فترةٍ وجيزة، نظر تشارلي إليّ وسألني:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

ـ كنت أفكر بطريقة للهروب من هذا المكان!

ـ أخذوا زي بات مان مني!

ـ لما فعلوا ذلك؟

ـ لأنني تبولتُ فيه!

«ركعتُ على الأرض ونظرتُ في عيني تشارلي»

ـ يبدو أنك تشبهني! لقد قضيت عامين في مكان كهذا! إنهم يجبروننا على القيام بأشياء لا نرغب بها! ألا يُشعرك ذلك بالانزعاج؟

ـ «أومأ برأسه» نعم!

ـ وأنا أيضاً!

كنت أسمع في الخلف صوت الجميع في الحضانة وهم يعودون إلى مشاغلهم. كان الأطفال يتكلمون ويصرخون، والمعلمات تعملن وتضحكن وتوبخن الأطفال المشاغبين.

كنا أنا وتشارلي نقف في الزاوية، حيث وجّه نظره نحو الأسفل قائلاً.

ـ أريد بابا!

ـ لقد مات بابا يا تشارلي! هل تعرف ماذا يعني هذا؟

ـ نعم! إنه في الجنة!

ـ نعم!

ـ أين الجنة؟

ـ إنها مكان يشبه هذه الحضانة! أو يشبه مركز احتجاز المهاجرين! أو يشبه بلاداً غريبةً بعيدة جداً ! إن والدك يريد العودة إلى المنزل كي يراك! لكنه لا يستطيع ذلك! وأبي أيضاً!

ـ أووو! هل أبوكِ ميتٌ أيضاً ؟

ـ أجل يا تشارلي! أبي ميت وأمي ميتة وأختي ميتة أيضاً ! لقد ماتوا جميعهم!

ـ لماذا؟

ـ لقد قضى الأشرار عليهم يا تشارلي!

انحنى تشارلي للأرض لالتقاط قصاصة صغيرة حمراء من الورق، ثم مزق جزءاً منها ووضعها على لسانه كي يتذوقها. علقت الورقة بين أصابعه بسبب الرطوبة، ثم وضع لسانه بين أسنانه وهو يركز على إزالة الورقة من بين أصابعه، وبعدها نظر إلى وجهي.

ـ هل أنت حزينة مثلي؟

ـ «ابتسمت له» هل أبدو لك حزينة يا تشارلي؟.

نظر تشارلي إليّ، دغدغته من تحت إبطه، فبدأ يضحك.

ـ هل نبدو حزينين يا تشارلي؟ أنا وأنت؟ هل نبدو حزينين الآن؟

كان تشارلي يضحك ويتلوى ببراءة، فاقتربت منه ونظرتُ في عينيه، وقلت:

لن نحزن بعد اليوم يا تشارلي! لا أنا ولا أنت! وبالأخص أنت يا تشارلي! لأنك أكثر ولدٍ محظوظ في العالم! أتعرف لماذا؟

ـ لماذا؟

ـ لأن لديك أماً حنونة يا تشارلي! وهي تحبك كثيراً! وهذا لا يقدر بثمن!.

دفعتهُ قليلاً نحو أمه، فركض إليها، ودفن رأسه في ثوبها، وتعانقا بحرارة.

كانت ساره تبتسم وتبكي في نفس الوقت. وهي تهمس في أذنه، تشارلي! تشارلي! تشارلي! رد عليها بصوت مكتوم بسبب فمه المدفون في ثوب أمه، لست تشارلي يا ماما! أنني «بات مان».أمعنت ساره النظر بوجهي من وراء كتفه، وأومأت بشفتيها دون أن تصدر صوت،« شكراً لك!».

عندما عدنا إلى المنزل، كان تشارلي يمشي وهو يتأرجح بيني وبين النحلة الصغيرة. كان يوماً جميلاً. كانت الشمس حارّة، والهواء يئزّ من صوت النحل. كما كانت رائحة الزهور تفوح في كل مكان. كانت الحدائق الخارجية للمنازل تفترش الرصيف بألوانها الزاهية. كان الجو مفعماً بالأمل.

ـ أعتقد بأني سأعلمك أسماء جميع الزهور الانكليزية! فهذه تسمى، الفوشيا! وتلك تسمى «صريمة الجدي»! ماذا بك...؟ لما تضحكين؟

ـ لا يوجد ماعز هنا! لذلك تملكون كل هذه الزهور الجميلة!

ـ كان لديكم ماعز في قريتك؟

ـ نعم! وقد أكل كل الزهور التي كانت موجودة هناك!

ـ أنا آسفة!

ـ لا تكوني آسفة! لقد أكلنا كل الماعز!

ـ«قطبت حاجبيها» ماذا؟ أظن أنني أفضل « صريمة الجدي!».

ـ ربما سآخذك معي إلى قريتي يوماً ما، وستأكلين نبات المنيهوت لمدة أسبوع،

وبعدها ستخبرينني إن كنت تفضلين «صريمة الجدي» أم الماعز!
ابتسمت ثم انحنت لتشم رائحة زهرة صريمة الجدي. فلاحظتُ أنها بدأت تبكي من جديد.
ـ أووا أنا آسفة! يبدو أنني لا أستطيع التوقف عن البكاء! انظري! فأنا أبكي طوال الطريق!
نظر تشارلي إلى أمه، فداعبته من رأسه، لأطمئنه بأنها على ما يرام. تابعنا سيرنا، ثم سألتني ساره بعد أن مسحت أنفها بمنديل، إلى متى سأبقى على هذه الحال برأيك؟
ـ مضى عام كامل على مقتل شقيقتي!
ـ حينها لم تكوني قادرة على التفكير بطريقة سليمة؟
ـ حينها لم أكن قادرة على التفكير أبداً! كنت فقط أركض وأركض . . . أركض من المكان الذي كانت أختي تتعذب فيه! ثم دخلت بعدها إلى مركز احتجاز المهاجرين. كان الوضع سيئاً هناك! حيث كان من الصعب التفكير بوضوح. مع أنكِ لم ترتكبي أية جريمة، كلما سألتِ أحداً: « متى سأخرج من هنا؟»، ما من إجابة لسؤالك! وبعد شهر أو ستة أشهر، تبدأين بالتفكير، «ربما سأقضي الباقي من عمري في هذا المكان! ربما سأموت هنا! أو لعلني ميتة بالفعل!» في أول سنة قضيتها هناك، كنت أفكر فقط بطريقة تساعدني على التخلص من نفسي! عندما يموت الكثيرون، تجدين أحياناً أنه من الأفضل لك أن تنضمي إليهم! لكنك تسمعين ضباط يحفزونك على المقاومة بعبارات كـ« استمري! لا تيأسي! استمري! استمري! وكأنك شخص عنيد لا يريد الاستمرار! في الساعة الخامسة، يقوون من عزيمتك،ويطالبونك بالاستمرار، وعند السادسة، هم أنفسهم، يُعيدونك إلى الزنزانة!
ـ ألم يقدموا لك أية مساعدة في ذلك المكان؟
ـ حاولوا مساعدتنا! هناك بعض الأشخاص الطيبين، كالأطباء النفسيين والمتطوعين! لكنهم لم يستطيعوا تقديم الكثير لنا، حيث قالت لي إحدى الطبيبات النفسيات،« إن ممارسة الطب النفسي في هذا المكان يشبه تقديم وجبة على متن طائرة

محطمة، فلو أردتُ معالجتك كطبيبة، سأمنحكِ مظلة للهبوط بدلاً من شظائر الجبن والمخلل. . . «حتى يكون تفكيرك سليماً يا ساره، عليكِ أن تكوني حرّة أولاً! ألا تظنين ذلك؟

مسحت ساره زوايا عينيها بمنديل وقالت

ـ لا أظن أن الوضع عندي سيكون كذلك أيتها النحلة!

ـ لكنني سأساعدك!

ـ«ابتسمت ساره» إنك في السادسة عشرة من عمرك أيتها النحلة! كما أنك لاجئة! ويتيمة! حباً بالله! أنا من يجب عليها أن تساعدك!

«وضعتُ يدي على كتفها، وأمسكتُ يدها اليسرى ورفعتها في وجهها. كان تشارلي يراقبنا باندهاش . . .»

ـ اسمعي يا ساره! لقد ساعدتني بما فيه الكفاية! فقد قطعت إصبعك من أجلي! لقد أنقذت حياتي!

ـ كان عليّ أن أساعدك أكثر! كان عليّ أن أساعد شقيقتك أيضاً!

ـ كيف؟

ـ كان عليّ التفكير بحلٍ ما!

ـ لقد فعلتِ ما بوسعك يا ساره!

ـ ما كان علينا أن نتعرض لموقفٍ كذلك الذي عشناه في نيجيريا أيتها النحلة! لقد ذهبنا في عطلة إلى مكانٍ لا يحق لنا التواجد فيه!

ـ وما الذي كان سيحدث لو لم تذهبي إلى هناك يا ساره؟ لو لم تكوني أنت وآندرو هناك، لقتلوني أنا ونكيروكا معاً!

ثم التفتُ إلى تشارلي وقلتُ له:

لقد أنقذت أمك حياتي يا تشارلي! هل تعرف ذلك؟ لقد أنقذتني من الأشرار!

نظر تشارلي إلى أمه: كما يفعل بات مان؟

ابتسمت ساره، وبدأت الدموع تتغلغل في عينيها، ثم أجابته: نعم! مثل « بات ماما!»

ـ هل هذا هو سبب فقدانك لإصبعك، ماما؟

ـ نعم يا عزيزي! هذا هو السبب!

ـ هل البطريق الشرير هو من أخذه؟

ـ كلا يا عزيزي!

ـ إذاً هل هو طائر البفن؟

ـ«ضحكت ساره» نعم يا عزيزي! لقد كان طائر البفن الفظيع!

ـ «ابتسم تشارلي» طائر البفن الشقي، الشرير!

ثم ركض على الرصيف، وهو يطلق النار على الأشرار ببندقية وهمية.

«التفتت ساره نحوي»

ـ بارك الله فيكِ!

أمسكتُ ذراعها بقوة، ووضعتُ راحة يدها اليسرى فوق السطح الخلفي من يدي، وجعلتُ يدانا متطابقتان. كان إصبع ساره المفقود يوازي تماماً إصبعي الموجود.

لقد رأيت كيف يمكننا إحياء ذلك الإصبع المفقود مرةً أخرى. أعرف أن ما أفكر به يُعدّ نوعاً من الجنون، لكن قلبي كان ينبض بشدّة.

ـ إن كنت تريدين أن أبقى عندك، عليكِ أن تسمحي لي بمساعدتك! ربما سأبقى لشهر واحد، أو حتى لأسبوع! لأن الرجال سيأتون عاجلاً أم آجلاً! أما في هذه الفترة التي سأقضيها عندك، ستعامليني وكأنني ابنتك! وسأعاملك وأحبك كأنك أمي! وسأحب تشارلي وكأنه أخي!

ـ يا إلهي!

ـ ما الأمر؟

ـ لا شيء! لكنني اعتدتُ عندما أكون عائدة من الحضانة مع الأمهات الأخريات، أن أتكلم عن الرياضة والحلويات . . .

«تركتُ يد ساره بحزن، ثم نظرتُ إلى الأرض . . .»

أووووا أنا آسفة أيتها النحلة! لكن كل هذا يحدث بسرعةٍ مفاجئة وبجدّية كبيرة!

هذا كل ما في الأمر! أنا حائرة جداً! أحتاج لبعض الوقت كي أفكر بذلك!

نظرتُ إلى ساره مرةً أخرى، ولاحظتُ في عينيها بأن هذا الطلب كان جديداً بالنسبة

لها. فلا تعرف ماذا ستفعل. كانت عيناها توحيان بأنها قد ولدت للتو. لقد كنت أعرف تلك النظرة! فلو قابلتم الكثير من الأشخاص الذين قابلتهم في مركز احتجاز المهاجرين، عندها ستدركون معنى تلك النظرة! لقد جعلتني نظرة ساره أرغب بإزالة ذلك الألم الذي يسكن حياتها بأقصى سرعة!

ـ أنا آسفة يا ساره! أرجوك إنسي الموضوع! سأغادر الآن! كانت الطبيبة النفسية في مركز الاحتجاز، محقة. لم يكن بوسعها مساعدتي أكثر من ذلك! يبدو أنني لا زلتُ مجنونة!

«لم تنبس ساره ببنت شفة. لقد أمسكت بذراعي فقط ، وتبعنا تشارلي إلى أسفل الشارع. كان تشارلي يركض ويقطف رؤوس الورود بعنف في طريقه بين الحدائق. كان يضرب الورود بحركات الكاراتيه، وكانت البتلات تتساقط بهدوء. كان ذلك يذكرني بقصتي مع نكيروكا، وبقصتي مع إيفيت. لقد كنت أدوس البتلات بقدمي عندما كنا نعبر فوقها، فأدركتُ أن قصتي مصنوعة فقط من النهايات!

عندما وصلنا إلى المنزل، جلسنا في مطبخ ساره، وشربنا الشاي مرة أخرى، ثم سألت نفسي إن كانت تلك ستكون المرة الأخيرة التي أشرب فيها الشاي. عندما أغمضتُ عينيَّ، تلاشى كل شيء في الضباب والرمال، قريتي، عائلتي، طعم الشاي . . . كانت تلك خدعةً جيدة.

وعندما فتحتُ عينيَّ مرة ثانية، رأيتُ ساره وهي تراقبني . . .

ـ أتعلمين أيتها النحلة! لقد كنت أفكر بما قلتهِ عن بقائك هنا! أقصد عن الطريقة لنساعد بعضنا البعض! أظن أنك محقة! ربما حان الوقت للتفكير بجدّية! ربما هذا هو زمن التفكير الجدّي!

الفصل السادس

بدأت الحياة الجدّية في ذات يوم رمادي مشؤوم في لندن. لم أكن أبحث عن الجدّية في حياتي. في الحقيقة، لم أكن أسعى وراء الأمور الجدّية.

بلغ تشارلي حينها الثانية من عمره تقريباً، كنت أودع مرحلة الإنطواء الناجمة عن الأمومة المبكرة، لأستقبل مرحلة الموضة والتنانير المفضلة. وبالتالي بدأت أشعر بالرياء.

قررت قضاء يوم في الحقل، كي أثبت لموظفات قسم التحرير أنه من الممكن كتابة مقال صحفي دون مساعدة من أحد. كنت أتمنى أن ألهم الموظفين للانغماس في روبورتاج بسيط، كي أوفر من ميزانية التكليف الملقاة على عاتقي. كان مجرد عرض بسيط اقترحته بلطف على مكتب المجلة، للأخذ بعين الاعتبار الملاحظات البليغة للعاملين، بالتتابع على الورق، بدلاً من كتابتها عشوائياً وبشكل فردي على صناديق العينات.

كنت أرغب حقاً إسعاد الموظفين الذين يعملون لدي. عندما كنت في مثل سنهم، كنت متخرجة حديثاً من كلية الصحافة، ومهووسة بالحصول على وظيفة. فكنت أفضح الفساد، وأكشف الحقائق. كم كان ذلك الترخيص المطلق يناسب شخصيتي! حيث أصل به إلى أعداء المهنة، وأبدأ أسئلتي، من؟ ماذا؟ أين؟ متى؟ لماذا؟.

أما الآن، عندما أرى نفسي واقفة في بهو مبنى وزارة الداخلية في شارع مارشام، أنتظر مقابلة عند الساعة العاشرة، أدركت حينها، أنها لا تعنيني كثيراً. ربما

ونحن في العشرين من عمرنا، يدفعنا فضول طبيعي اتجاه الحياة، أما في الثلاثين، يتملكنا الشك بوجود هذا الفضول. أمسكتُ بمفكرتي الجديدة والدكتافون، على أمل التخلص من بعض آثار خيبات الأمل الشبابية التي يتعرضون لها في بداية رحلتهم المهنية.

كنت غاضبة من آندرو. لم أستطيع التركيز. ولم أبدو كصحفية آنذاك. كانت صفحات مفكرتي بيضاء فارغة. فقمت قبل المقابلة بحشوها بملاحظات مأخوذة من مقابلة وهمية.

عبر بهو مبنى وزارة الداخلية، كان أفراد القطاع العام يتحركون حاملين صواني القهوة المصنوعة من الكرتون. كنت أسمع خشخشة أساور النساء اللواتي يتجولن بالثياب المنتفخة من ماركة M&S. بينما الرجال يعرجون في المشي، مختنقين من ربطات العنق التي كانوا يلبسونها. الجميع ينحني ويعتذر ويتصنع الرقي بتوتر، يحملون أجسادهم كمذيعي نشرات الأحوال الجوية المستعدين لخفض سقف التوقعات من أجل عطلة نهاية الأسبوع.

حاولتُ التركيز على المقال الذي رغبت بكتابته. احتجت لبعض الجمل المتفائلة، والقليل من التعابير الإيجابية والنيّرة، بحيث تكون مختلفة تماماً عما يمكن أن يكتبه آندرو في صحيفة التايمز. لقد كنا أنا وآندرو نتشاجر حول هذا الأمر. كانت نسخته من المقال كئيبة لحد كبير. يبدو أنه بدأ يؤمن بأن بريطانيا على وشك الغرق في البحر. فقد كثرت الجرائم، وانحدر مستوى التعليم، وبدأت أعمال الهجرة بالزحف، كما انهارت الآداب العامة. وكأن كل شيءٍ يتدهور ويتسرب ويضمحل! كم كنت أكره تلك السلبية في الكتابة!

بلغ تشارلي الثانية من عمره الآن، وأعتقد أن من واجبي التركيز على مستقبله.

وعيتُ بأن العبث بما يخص مستقبل ولدي لن يكون استراتيجيةً بناءة بالنسبة لي.

ـ آندرو... لماذا أنت سلبي في كتاباتك إلى هذه الدرجة؟ إذا كانت البلاد تتجه نحو الانحدار كما تعتقد! لما لا تكتب عن المسؤولين عن ذلك؟

ـ أووووا حسناً ! مثل من برأيك؟

ـ كوزارة الداخلية مثلاً ! فهم في النهاية المسؤولون عن خط الجبهة!

ـ أووووا! هذا مدهش بالفعل، ساره! فالناس يثقون كل الثقة بوزارة الداخلية! أليس كذلك؟ ما الاسم الذي ستطلقينه على مقالتك المتفائلة؟

ـ أتقصد عنوان المقالة؟ حسناً ! ما رأيك بـ « معركة من أجل بريطانيا!».

«كنت أعرف أنه سينفجر من الضحك! فقد كنا نعيش فترة اندلاع أزمة! أخبرته بأنني أقوم أخيراً بأمرٍ بنّاء فيما يخص مجلتي. فأخبرني بأنني قد أقلعتُ أخيراً عن ديموغرافية هذه المجلة. وبرأيه أنني أصبحتُ متقدمة في السن، بمعنىً آخر، كل ما كتبته في السنوات العشرة الأخيرة لم يكن سوى خربشة صبيانية لا أكثر. مما جرح شعوري وجعلني أتألم!»

كنت لاأزال أشعر بتوتر عند وصولي لمبنى وزارة الداخلية. كان آندرو يؤنبني ساخراً، ماذا تريدين من وزارة الداخلية أن تفعل بالضبط لهذا البلد اللعين؟ أن تعالج الحياة البائسة بالعنف؟

طبعاً كان آندرو يتمتع بترسيخ الجرح! ولم يكن هذا أول شجار بيننا منذ ولادة تشارلي! فقد كان ينهي الشجار دائماً بانتقادي على طريقة تربيتي لابننا، مما كان يغيظني كثيراً!

وقفتُ في البهو، بينما المحررون يتجولون أمامي بثيابهم الرثة.وأنا ساهمة مطرقة رأسي في الأرض وأنا أنظر لحذائي، راودتني أول فكرة منطقية لأيام، فقد لاحظتُ بأنني لم أحضر إلى الوزارة لتوضيح وجهة نظر لهيئة التحرير! فكبار المحررين يكفون عن كتابة التقارير بهدف الحصول على بعض الجنيهات يدعمون بها ميزانيتهم! لاحظتُ بأن سبب مجيئي كان كي أوضح نقطةً لآندرو! وعندما حضر «لورانس أوسبورن» الرجل الطويل...المبتسم...الوسيم، وقدم نفسه عند الساعة العاشرة، أدركت أن النقطة التي كنت أريد توضيحها لآندرو، لن تكون بالضرورة مرتبطة بقسم التحرير!

نظر لورانس إلى حقيبته قائلاً:

ـ هذا غريب! أخبروني بأن هذه المقابلة « غير عدائية»!

«لاحظتُ أنني كنت أنظر إليه بغضب! فاحمرت وجنتاي!»

ـ أووووا يا إلهي! أنا آسفة! كأنه نهار سيء!

ـ لا تقولي هذا! أخبريني بأنك تحاولين أن تكوني لطيفةً معي! أنتم الصحفيون تفعلون ذلك دائماً، هذه الأيام!

«ابتسمتُ له . . .»

ـ سأكون لطيفاً معكِ! أظن أن الصحفيين يقومون بعمل رائع!

ـ هذا لأنك لم ترَ الإحصائيات كما رأيناها!

«ضحكتُ له، فرفع حاجبيه . . .»

ـ أتظنين أنني أمزح؟

كان صوته خافت وغير ملحوظ. يبدو أنه لم يدرس في مدارس عامة. لاحظتُ لمسة من الخشونة في حروفه الصوتية، كما شعرتُ ببعض الوحشية في أسلوبه، وكأنه كان يبذل جهداً. كان من الصعب عليّ تحديد صوته.

رافقني لورانس في جولةٍ لداخل المبنى، حيث مررنا بوكالة استعادة الأصول، ومكتب السجلات الجنائية. كان يتحدث معي برسمية، لكن باسترخاء. يخبرني عن معدّل الجرائم...فنجان من القهوة... شيء من هذا القبيل!

كنا نمشي في غرف مضاءة غير طبيعية، تحوي مواد طبيعية.

ـ لورانس! ما عيوب بريطانيا برأيك؟

«توقف لورانس وامتقع وجهه»

ـ إنك تسألين الرجل الخطأ! لو كنت أعرف جواباً، لساهمتُ في الإصلاح!

ـ أليست هذه مهمتك في وزارة الداخلية! لما لا تفعل ذلك؟

ـ في الحقيقة، أنا لا أعمل في أي قسم من الوزارة! خضعت للتجربة لفترة وجيزة، ولم أثبت جدارتي، لذلك عُينت في المكتب الصحفي!

ـ لكنني متأكدة أن لديك رأياً قد يكون فعالاً !

ـ كل الناس لديهم آراء! وربما هذا هو الخطأ في هذه البلاد! ماذا بك! لماذا تبتسمين؟

ـ ليتك تقول ذلك لزوجي!

ـ آ آ آه! يبدو أن لديه آراء معينة! أليس كذلك؟

ـ نعم! في كثير من الموضوعات!

ـ حسناً ! ربما عليه أن يعمل هنا! فالجدل مرغوب به في هذه الأقسام! فمثلاً في مقابلتك الأولى...

«نظر لورانس إلى حقيبته، وهو يبحث عن اسم ما».

ـ أنا آسفة! ظننت أن المقابلة ستكون معك أنت!

ـ أووا لا! أنا أقوم بالإحماء فقط، لا أكثر! أنا آسف! كان عليّ أن أوضح ذلك!

ـ أووووا!

ـ لا تشعري بالإحباط! فقد جعلتُ يومكِ جميلاً! أليس كذلك؟ لديك ثلاثة رؤساء أقسام ووكيل حقيقي دائم! أعتقد أنهم سيقدمون لك أكثر مما تحتاجين لمقالتك!

ـ لكنني كنت مسرورة بالحديث معك!

ـ ستتخطين ذلك!

ـ هل تعتقد هذا؟

«ابتسم لورانس . . . كان شعره أسود مجعد . . . لامع جداً ومقصوص بعناية فائقة من الجوانب والخلف. وكانت بدلته أنيقة أيضاً...من ماركة Kenzo على ما أعتقد! فكانت تليق به كثيراً. ومنظره بالبدلة لافتاً، حيث ذراعاه تبعدان قليلاً عن جسمه، وكأن البدلة مصنوعة من جلد حيوان، ذبح حديثاً ، مما جعل قساوة جسده تؤثر على ملمس الجلد».

ـ غالباً ما ينزعجون مني هنا عندما أتحدث مع الزوار! يبدو أنني لم أتقن أسلوب وزارة الداخلية في الكلام!

تفاجأتُ عندما لاحظتُ بأنني أضحك. كنا نمشي عبر الرواق، بين مكتب السجلات الجنائية، ومكتب الخدمة العلمية الشرعية. بدأ الناس يتحركون بسرعة مفاجئة عبر الرواق. كما تجمع حشد كبير منهم أمام شاشة تلفزيونية كانت معروضة هناك.

شعرتُ بيد لورانس الحذرة على ظهري الصغير وهي تدفعني برفق بين الناس.

كان الشعور مريحاً، وكنت أمشي ببطء كي أشعر بضغط يده الدافئة على ظهري.

سمعنا صوت خبر عاجل على الشاشة التلفزيونية، « استقالة وزير الداخلية!»

كانت تُعرض لقطات للوزير على الشاشة، وهو شاحب الوجه، يسحب كلب حراسته، ويصعد إلى المقعد الخلفي لعربة التعذيب التي كانت تشبه إلى حدٍ ما سيارة وزارية!

وضع لورانس رأسه بين الحشد الذي كان ينظر إلى الشاشة باندهاش، ثم همس في أذني:

ـ انظري إلى هؤلاء الأوغاد! لقد تم صلب هذا الرجل للتو! والكل ينظر إلى الشاشة بدهشة خوفاً على مصائرهم في وظائفهم!

ـ ماذا عنك؟ ألم يؤثر بك الخبر؟

ـ أووا! طبعاً! إنه خبر سيء بالنسبة لي! بالنظر للسجل الباهر لإنجازاتي، سأصبح كلب الحراسة المقبل الذي سيرافق ذلك الرجل!

«اصطحبني لورانس إلى مكتبه. قائلاً بأنه يريد أن يتفحص رسائله. شعرت بتوتر . . . لم أعرف من ماذا! لم تكن هناك أي صورة للورانس على الحائط. رأيت فقط صورة عامة لجسر واترلو موضوعة في إطار. كما رأيت بطاقة مغلفة لصورة حشدٍ واقف وسط حريق!»

كما أنني رأيت انعكاس صورتي على زجاج النافذة، فقلت في نفسي:

«أووا! لا تكوني سخيفة!»

حوّلت تركيزي إلى الجدار الرمادي المسطح لمبنى المكاتب المجاور. وانتظرت لورانس حتى ينتهي من تفقد بريده الالكتروني.

ـ أعتذر منكِ! لكن، علينا إعادة جدولة مواعيد مقابلاتك! بسبب الفوضى التي ستحل هنا في الأيام القليلة القادمة!

«رنّ الهاتف، وضع لورانس السماعة على أذنه، واستمع للحظة»

ـ ماذا؟ ألا يستطيع أحد أكثر تفوقاً القيام بذلك؟ حقاً ؟ أووا ممتاز! كم من الوقت لدي؟

«وضع لورانس السماعة على الطاولة بانفعال، وأسند رأسه فوق المكتب.
كنا نسمع أصوات الضحك والصياح وإغلاق الأبواب القادمة من الرواق . . .
ـ الأوغاد!
ـ ما الأمر؟ هل ضربت تلك المكالمة الرقم القياسي لديك؟
ـ بالتأكيد . . . عليّ كتابة رسالة لوزير الداخلية المستقيل لأعبر فيها عن الأسف العميق الذي تعيشه دائرتنا بسبب استقالته المفاجئة!
ـ لا يبدو عليكم الأسف كثيراً!
ـ وفقاً لإحساسك الصحفي الخارق، لا أظن أننا قد لاحظنا ذلك على أنفسنا!
فرك لورانس عينيه، والتفت إلى شاشة الكومبيوتر، ووضع أصابعه فوق لوحة المفاتيح، ثم تردد فجأةً. . .
يا إلهي! أقصد! ما الذي كنت ستكتبينه لو كنت مكاني؟
ـ لا تسألني! هل كنت تعرف الرجل شخصياً؟
ـ كنت أدخل إلى أماكن، يتواجد فيها ليس أكثر! لقد كان جباناً في الحقيقة! لا تشفقي عليه لأنه ضرير. أعتقد أن ذلك مكنه من الوصول إلى مبتغاه! ينحني للأمام واضعاً يده على سرج كلبه! وكانت يده ترتجف! أعتقد أنه كان بارع في التمثيل! لأنه لم يكن يرتجف عندما كان يقرأ على طريقة بريل ((طريقة في القراءة والكتابة خاصة بالمكفوفين))!
ـ يبدو لي، أنك لن تشتاق له أبداً!
ـ كنت معجباً به نوعاً ما! فقد كان ضعيفاً، وذلك الضعف مصدر لقوته! كان نموذجاً يحتذى به بالنسبة لرجلٍ فاشلٍ مثلي!
ـ أووووا! هذا ما يسمونه بانتقاص الذات!
ـ وبالتالي...؟
ـ وبالتالي أثبتت الدراسات أن هذا تفكير خاطئ! فالنساء يتظاهرن أنهن يلجئن دائماً إلى استطلاعات الرأي في أمور كهذه!
ـ ربما أنا أتظاهر فقط بأنني أعاني من انتقاص الذات! ربما أكون شخصاً ناجحاً! ربما

لو أصبحت مومس قسم الصحافة في وزارة الداخلية، سأكون في قمة مسيرتي المهنية!

«قال لورانس كل هذا دون أن تتغير ملامح وجهه، ثم حدق في عينيّ، فلم أعرف أين أوجه نظري».

ـ دعنا نعود إلى موضوع مقالتي!

ـ نعم! معك حق! يبدو أننا ابتعدنا عن الموضوع الرئيسي! أليس كذلك؟

«شعرتُ بالأدرينالين يجتاح صدري. يبدو أن الحواجز بيننا بدأت تتكسر بهدوء. لكننا استطعنا السيطرة على أنفسنا. كان بإمكاننا فعلها لو أردنا، فالمسافة بيننا كانت قريبة جدّاً...مجرد علقة غرامية عابرة بين راشدين...مجرد لقاء بين الأحبة ...نوبة فجائية...شهوة محرّمة كانت تنمو بيننا كبراعم من أصابع اليدين والقدمين!

كنت أنظر إلى الأسفل إلى بلاط مكتب لورانس. أشعر أنني أراه الآن وبكل وضوح! ذلك البلاط الرمادي اللامع...الخشن...البرّاق...الشهواني...الفاحش...كنت أحدق بالبلاط وكأنني لم أرَ بلاطات في حياتي. لم أكن أرغب بالنظر إلى لورانس!

ـ أرجوكَ! توقف!

«نظر إليّ ببراءة»

ـ أتوقف عن ماذا؟

ثم صمتنا للحظة...فأخذتُ نفساً عميقاً... كانت إحدى مصابيح الإنارة تطن فوق رؤوسنا بصوت عالٍ...

ـ لماذا استقال وزير الداخلية برأيك؟

ـ «مندهشاً» لا تقولي أنك لا تعرفين السبب! اعتقدتُ أنك صحفية!

ـ ليس بالمعنى الحرفي للكلمة! فمجلة « نيكسي» تُصدر أخبار اليوم بنفس الأسلوب الذي تتبعه صحيفة الإيكونوميست في صناعة الأحذية! أي على أساس «حب المعرفة»!

ـ استقال وزير الداخلية لأنه حصل على تأشيرة دخول من أجل جدّة عشيقته!

ـ هل تصدق هذا الكلام الفارغ؟

ـ لا يهمني الموضوع! لكنه لم يبدو لي غبياً لهذه الدرجة!

«سمعنا أصوات ضحك وصياح خارج مكتب لورانس، كما سمعت صوت كراتٍ من الورق تُلقى بعنف في سلة المهملات المعدنية.

ـ كأنهم يلعبون كرة القدم في الرواق! يبدو أنهم يحتفلون!

ـ أتظنهم طردوه من منصبه؟

ـ لا أعرف ماذا فعلوا له يا ساره! فهذا ليس من شأني! مهمتي الآن، أن أكتب رسالة وداع من أجله! ماذا عليّ أن أكتب برأيك؟

ـ من الصعب أن تكتب عن رجلٍ لا تعرفه جيداً ! أظن يتوجب عليك أن تلتزم بالعموميات فقط!

ـ بتذمّر، لكنني سيء في ذلك! عليّ أن أعلم معنى ما سأكتبه! لا يمكنني كتابة كلام معسول غير مفهوم!

ـ أنا مثلك! وبالمناسبة...إن أعجبك ذلك أم لا...ستكون أنت من سأجري معه المقابلة!

ـ وبالتالي؟

ـ وبالتالي ستجعل الأمور صعبةً عليّ!

ـ من حيث ماذا؟

ـ من حيث أنك أولاً لم تحدد هوية هذا المكان...فلا جوائز عن مباريات الغولف! ولا صور عائلية على الجدران! لا شيء يمكنني من معرفة هويتك!

ـ عندها...أظن أن عليك أن تتمسكي بالعموميات!

ـ ممتاز!

ـ شكراً!

ـ شعرتُ بارتفاع الأدرينالين في صدري مرةً أخرى . . .

ـ يبدو أن هذا المكان لا يلائمك! أليس كذلك؟

ـ اسمعي! أظن أنهم سيطردونني من هنا غداً، إن لم أكتب خطاباً مناسباً لرئيس المكتب خلال الدقائق العشرين المقبلة!

ـ ماذا تنتظر، إذن؟

ـ في الحقيقة! لا أستطيع التفكير في أي شيء!

ـ أمر مخجل! لم تبدو لي فاشلاً في البداية!

ـ وأنت في البداية، بدوت جميلةً لدرجةٍ جعلتني اعتقد بأنك لا ترتكبين الأخطاء!

« ابتسمت له بعفوية»

ـ هل شعري الأشقر هو السبب برأيك؟

ـ ربما أصولك هي التي تحدد ذلك!

ـ حسناً! لا أعتقد أنك فاشل! أنت تعيس فقط!

ـ لديك عينان تسبران العواطف؟ أتعتقدين ذلك؟

ـ أجل!

«رمش لورانس بعينيه، ثم نظر إلى لوحة المفاتيح...كان محمرّاً من الخجل...»

ـ أووووا! أنا آسفة! يا إلهي! ما كان عليّ قول هذا! لقد انجرفتُ في الحديث! فأنا لا أعرفك حتى! أنا حقاً آسفة! ربما، جرحت مشاعرك!

ـ ربما أنا سريع التأثر!

«كان يجلس على كرسي ملكي، أزرق اللون، فاستدار بكرسيه الدوار نحو شاشة الحاسوب، وطرق على لوحة المفاتيح القديمة الطراز والتي كانت تصدر صوت صرير أثناء النقر على الأزرار. مكث فترةً لا بأس بها دون حراك، فاضطررت للوقوف والنظر من وراء كتفه إلى الشاشة لأرى ما كان يكتب .

« حاولتَ قصارى جهدك، ومازال هناك الكثير...».

هذا كل ما قرأته من الجملة الغير مكتملة... كانت تتوسط الشاشة دون قرار أو تحذير... تراجع المؤشر في نهاية السطر...

فجأة سمعتُ من النافذة صوت صفارات رجال الشرطة تصفر في كل أنحاء الشارع...التفت لورانس نحوي بكرسيه الدوار مصدراً صرير عند دورانه.

ـ أخبريني أمراً !

ـ نعم؟

ـ هل زوجك، سبب تعاستك؟

ـ ماذا؟ أنت لا تعرف أي أمرٍ عن زوجي!

ـ بالعكس! أنتِ من أخبرتني بأنك لا توافقين على آراء زوجك! صحيح...؟ لماذا إذاً كنتِ تتكلمين عنه طوال الوقت؟

ـ ذكرتُ اسمه بالصدفة ليس إلا!

ـ بالصدفة؟ أنت من ذكر اسمه . . . وعن عمد!

«توقفتُ للحظة...كان فمي مفتوحاً وأنا أحاول تذكر ما قلته. فابتسم لورانس بمرارة لكن دون مكر...»

أعتقد بأنك أنتِ أيضاً تشعرين بالتعاسة!

«ابتعدت بسرعة من وراء كتفه، احمرّت وجنتاي، فهرعتُ إلى النافذة. إتكأتُ برأسي على الزجاج البارد وحدقتُ نحو الأسفل إلى الحياة اليومية في الشوارع». اقترب لورانس مني ووقف بجانبي.

والآن جاء دوري في الاعتذار! أفترض أنك ستطلبين مني أن أترك الملاحظات الدقيقة لكم أنتم، أيها الصحفييون!

«ابتسمتُ رغماً عني»

ـ ماذا كنتَ تقصد بذلك السطر الغير مكتمل؟

ـ أتقصدين، « لقد حاولت قصارى جهدك، ومازال هناك الكثير ...» لا أدري...ربما أكتب،« مازال هناك الكثير من النتائج العظيمة التي ستثمر بسبب إنجازاتك الكبيرة...» أو ربما، « سنرى الكثير من النجاحات نتيجة أعمالك العظيمة...»أترين؟ أمراً من هذا القبيل.

ـ أو ربما يمكنك تركه كما هو!

ـ لم أنتهي منه بعد!

ـ لكنه جيد نوعاً ما! ألا تظن ذلك؟

تحرك المؤشر على الشاشة... عندها فتحتُ شفتاي، فانقض عليّ لورانس وبدأنا نقبل بعضنا بشراسة...تشبثت به وتأوهتُ في أذنه...وبعد ذلك رفعتُ

لباسي الداخلي من تحت تنورتي، وعدلتُ بلوزتي...كان قد تراجع لورانس ليعود إلى مكتبه.

نظرتُ من النافذة، فرأيتُ عالماً مختلفاً عما رأيته منذ قليل.

ـ لم أفعل هذا مع أحدٍ من قبل!

ـ أعرف ذلك!

حدق لورانس بالسطر الغير مكتمل، على الشاشة لمدة دقيقة كاملة. كان لا يزال أحمر الشفاه مطبوعاً على شفتيه. ثم ضغط نقطة توقف عند نهاية السطر ليكتمل بذلك. بعد عشرين دقيقة، حول الرسالة على طريقة بريل للمكفوفين ووضعها في البريد. لم يهتم زملاءه كثيراً بتصحيح الأخطاء المطبعية.

فجأةً اتصل بي آندرو ! كان هاتفي على مكتب لورانس. لن أنسى أبداً ما قاله حينها، « هذا رائع، ساره! ستشغل هذه القصة الصحف لأسابيع! لقد كلفوني بكتابة مقالة طويلة عن سقوط وزير الداخلية! هذا ما يسمونه الأجر الوسخ يا ساره! لقد زودوني بفريق من الباحثين! لكنني سأقضي كل وقتي في المكتب حتى أنتهي من كتابته! أعتقد أنكِ ستكونين بخير لتعتني بتشارلي! أليس كذلك؟»

أغلقتُ هاتفي بهدوء...كان ذلك أسهل من إعلاني له عن التغيير المفاجئ الذي طرأ على إسلوب حياتنا...كان أسهل من إخباره، بأن زواجنا تعرض لجروح قاتلة...بالصدفة طبعاً،... عن طريق عصابة من البلطجية يصعدون على أكتاف رجلٍ أعمى!

ـ لورانس، أرغب حقاً برؤيتك مرةً أخرى!

كانت علاقتي معه علاقة مكتبية عابرة! . . . علاقة غداء سريع، بتنورة قصيرة! علاقة تسلل إلى أحد الفنادق الفخمة بعد الظهيرة! وعندما يكون آندرو منشغلاً في المساء، كنت أسعى للحصول على جليسة أطفال لتشارلي، كي أخرج مع لورانس ونفعل ما يحلو لنا.

أحياناً، وفي فترة الغداء الممتدة تقريباً إلى وقت الشاي، كنت أحمل كأس النبيذ الأبيض في يدي، ولورانس ممدداً بجانبي على الفراش وهو عارٍ. عندها...فكرتُ في

كل الصحفيين الذين لم يحصلوا على جولات سياحية! وكل وجبات الإفطار الفجائية في الاجتماعات الإعلامية! وكل البيانات الصحفية الموجودة في حاسوب لورانس، بالإضافة إلى المؤشر الذي كان يومض في نهاية كل جملة ناقصة، مثل، يمثل هذا الهدف الجديد تقدماً ملحوظاً آخر في برنامج الحكومة المستمر حول....

كانت علاقتي بلورانس تشبه تقديم وجبات الطعام في طائرة محطمة. كنا نهرب من يأسنا ونلجأ لبعضنا. ولمدة ستة أشهر، أصبح الوقت في بريطانيا يتباطأ تدريجياً خلال ساعات العمل اليومية. كم كنت أتمنى أن يكون ذلك طبيعياً، بدون خطر وبدون انفعال... مجرد علاقة عابرة...مجرد مؤشر وامض قبل أن نسترد حياتنا القديمة!

لكن مع ذلك، كان كل شيءٍ رائعاً !كنت قد سلمت نفسي إلى لورانس بطريقة لم أفعلها أبداً مع آندرو! سلمته نفسي بيسر...دون بذل أي جهدٍ يُذكر! كنت أبكي ونحن نمارس الحب! لم أكن أتصنع! أعانقه بقوة لحد أن تؤلمني ذراعاي! كنت أستلذ حنانه العذب! داريت عنه مشاعري، حتى أنني لم أدعه يعرف بأنني كنت أفتح هاتفه البلاك بيري، وأقرأ رسائله وأفكاره عندما يكون نائماً. في بداية علاقتي معه، اعتقدتُ أن كل ما فعلته يمكن القيام به مع أي أحدٍ آخر. لاعتقادي بأن العلاقة هي الأساس، لا الرجل. لكنني بعد فترة، بدأتُ أعشق لورانس. كما بدأتُ أدرك أن إقامة علاقة يُعدّ إثماً صغيراً نسبياً ! لكن أن أستقل وأهرب من آندرو!...كان عليّ أن أقع في الحب.

لم أبذل جهداً كي أحب لورانس، كل ما فعلته هو السماح لنفسي بالسقوط! عندها قلت في نفسي، هذا آمن تماماً ! فقد وجد العقل كي يستوعب صدمات السقوط! دائماً ما كنت أبكي عند ممارستنا الحب! لكنني الآن أبكي لأننا لم نعد نستطيع فعل ذلك! إخفاء علاقتي مع لورانس تسبب لي القلق. كانت لقاءاتنا الغرامية تتم بسريّة تامة دون علم آندرو، ولم أكن أذكر شيءٍ عن آندرو أو عمله عندما أكون برفقة لورانس، كي لا ينزعج. عملت على تشييد سياج عال حول هذه العلاقة. خلقت واقع خيالي في ذهني، تصرفتُ وكأنني في بلدٍ آخر عندما أكون مع لورانس، كنت

أحمي حدودها بلا تهاون.

انعكس ذلك، بتغير ملحوظ على شخصيتي، تغير لا جدال فيه، يصعب إخفائه. بتُّ أشعر بالسعادة... وأصبحتُ أقل حساسية وجدّية ً. بدأت بشرتي تتوهج بإشراقٍ بادٍ، حتى أنني حاولتُ إخفاء ذلك باستخدام كريم الأساس. لكن ذلك لم ينفع.

ببساطةٍ عدتُ للتمتع بالحياة، غالباً ما كنت أذهب للحفلات أكثر من ذي قبل. وكان لورانس يدعوني إلى كل المناسبات التي كانت تقام تحت رعاية وزارة الداخلية. فالوزير الجديد يحب الظهور في وسائل الإعلام، ليخبرهم بنيته عن الضرب بيدٍ من حديد من أجل مصلحة البلاد. كانت السهرات لا تنتهي، خصوصاً سهرات ما بعد الحفلة الرسمية. تعرفت على أناسٍ كثيرين، من ممثلين ورسامين ورجال أعمال. كنت أشعر بإحساس لم أشعر به مذ تزوجتُ آندرو... الإحساس بأنني جذابة،مثيرة... ثملة من شرب الشمبانيا، أنظر حولي إلى كل تلك الوجوه المشرقة والمبتسمة...كنت أضحك عندما تراودني فكرة أنه قد يحدث شيء فجأةً...لذلك عملت على ألا أكون متفاجئة عندما يحدث فعلاً!

وفي إحدى الحفلات التقيتُ بآندرو، صدفةً...بالمناسبة، هو لا يحب الحفلات، ونادراً ما يحضرها بهدف البحث عن بعض الحقائق من أجل كتابة مقالاته الكئيبة.

وعرّفنا حينها لورانس على بعضنا...فقد كانت الغرفة مكتظة بالمدعوين، والموسيقى البريطانية لإحدى الفرق الرائدة تصم الآذان. كان لورانس ثملاً ومحمرّاً من تأثير الشمبانيا، ويحتويني بيده الحنونة على ظهري الصغير...

ــ أووووا! أهلاً وسهلاً بالسيد آندرو أورورك! أقدم لك ساره سومرز! محررة مجلة «نيكسي». عزيزتي ساره! إن آندرو يكتب في صحيفة التايمز! وهوكاتب مذهل وآرائه قوية وفعالة! أنا متأكد بأنكما ستتفقان مع بعضكما!

ــ قال لنا القس نفس الكلام!

ــ عفواً....!؟

ــ كان القس متأكداً بأننا سنتفق مع بعضنا عندما قام بتزويجنا في الكنيسة!

كان آندرو الطريف يبتسم بتثاقل، بينما أزاح لورانس المسكين يده بسرعة عن

ظهري. وقد لاحظ آندرو ذلك، ففارقته الابتسامة.

ـ لم أكن أعلم أنك ستكونين هنا، ساره!

ـ أووووا حسناً! آندرو! لم يكن مخطط لذلك! أنت تعلم ظروف عملي في المجلة! أنا... أنا...!

«بدأ جسدي بفضح سرّي! كنت أحمر من رأسي لكاحلي! فاستيقظ ضميري وبدى مستعداً للانتقام، مستعداً لترسيم الحدود، للاستيلاء على حياتي الجديدة. أطرقت للأسفل إلى حذائي، ثم للأعلى، فرأيتُ آندرو يقف صامتاً دون حراك... حيث استنزف كل الآراء والأفكار!»

في تلك الليلة، كنا نقف أنا وآندرو عند القاعدة الفارغة في نهاية حديقة المنزل، التي كان يخطط لبناء بيته الزجاجي عليها، نتناقش بكيفية «إنقاذ زواجنا!»... كم تبدو مؤلمة هذه العبارة! كل ما كان يقوله آندرو يشبه كتاباته في صحيفة التايمز، وكل ما أقوله أنا يشبه كتابات صفحة المشاكل الاجتماعية في مجلتي!

ـ هل نسيتي أن الزواج، التزام مدى الحياة ؟

ـ استولى عليَّ شعور بعدم الرضى! كنت منهارة تماماً !

ـ السعادة ليست بشيئ نلتقطه من على الرف! السعادة ما نسعى لتحقيقه!

ـ كنت تخيفني! لم أعد أشعر بالحب أو الدعم منك!

ـ الثقة بين البالغين أمرٌ صعب المنال! كما أنها هشة من الصعب إعادة بنائها!

كنا في شجار لا نقاش... لم نتوقف إلا عندما رميته بإناء الزهور الزجاجي. فطار الإناء مجانباً كتفه وتحطم على القاعدة الإسمنتية لمخطط بيته الزجاجي. دُهش آندرو . . . ثم غادر المنزل لمدة ستة أيام. سمعتُ لاحقاً، أنه سافر لإيرلندا ليحتسي الخمر برفقة شقيقه!

بدأ تشارلي بالذهاب للحضانة في ذلك الأسبوع. فوت آندرو على نفسه حدثاً مهماً. فقد صنعتُ كعكة لتشارلي بهذه المناسبة. كنا لوحدنا تلك الليلة. لم أكن معتادة على الجلوس لوحدي في المنزل. أصبح البيت هادئاً تماماً بعد نوم تشارلي. كنت أسمع صوت شحرور يغرد عند الغسق. الجو ممتع بدون تذمر آندرو المستمر

وتعليقاته السياسية. تحول ذلك الهدوء إلى متعة ملموسة بحد ذاته...صمت مطبق! كنت أرش بعض حبيبات السمارتي فوق جليد الكعكة الرطب، بينما أستمع إلى البرنامج الإذاعي «كتاب الأسبوع». فجأةً شعرتُ بالاضطراب فانفجرتُ بالبكاء. كنت أحدق في الكعكة المكونة من ثلاث طبقات من الموز، والمزينة برقائق الموز المجفف وكريمة الموز المجلدة. كان ذلك قبل سنتين من قدوم الصيف. عندما بلغ تشارلي الثانية من عمره، كان الموز هو أكثر ما يحبه في العالم. أنظر إلى الكعكة وأقول في نفسي، أحب أن أكون والدة تشارلي! ومهما حصل...سأكون فخورة بذلك دائماً!

بينما كنت أحدق في الكعكة، رنّ الهاتف...

ـ ألو...ساره؟ هل أستطيع القدوم؟

ـ ماذا، لورانس؟ الآن؟ إلى منزلي؟

ـ قلتي أن آندرو قد ذهب!

ـ أووووا! يا إلهي! أقصد . . . أنت لا تعرف أين أقيم!

ـ حسناً! أين تقيمين؟

ـ في كينغستون!

ـ سأكون هناك خلال أربعين دقيقة!

ـ لا يا لورانس . . .لا!

ـ لكن لماذا؟ لن يعرف أحد، ساره!

ـ أعرف لكن...انتظر لحظة... أرجوك، دعني أفكر!

انتظرَ لورانس على الهاتف. على الراديو، كان المذيع يعلن عن برنامج يبشر بأخبار جيدة. كما يبدو، هناك العديد من المفاهيم الخاطئة حول نظام الائتمان الضريبي، وسيسعى البرنامج لتوضيح بعضها. كنت أضغط بأظافري على راحة يدي وأحارب بيأس الجانب المظلم من شخصيتي الذي دفعني للتفكير بأن ليلة واحدة مع لورانس مع زجاجة من النبيذ أفضل بكثير من الاستماع للراديو.

ـ لا . . . أنا آسفة! لن أسمح لك بالقدوم إلى منزلي!

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأن منزلي هو عائلتي، لورانس! ومنزلك هو عائلتك! وعندما تأتي لمنزلي، ستنهار حياة كلينا بالتأكيد!

أخفضت سماعة الهاتف، وفكرت بهدوء لبضع دقائق. في محاولة للحفاظ على مسافة بيني وبين لورانس كي أحمي تشارلي. اعتقدت بأني فعلتُ الصواب. فالأمور معقدة بما فيه الكفاية، لدرجة أنني لا أستطيع البوح عنها لوالدتي. فقد نمر بظروف تسمح للرجال باختراق أجسادنا، لكن دون أن يدخلوا منازلنا. فلا زال جسدي يؤلمني من صدى صوت لورانس. تفاقم الإحباط عندي لدرجة جعلتني أهوي بسماعة الهاتف على الكعكة المثالية التي صنعتها لتشارلي، مراتٍ متلاحقة إلى أن حطمتها بالكامل. أخذتُ نفساً عميقاً، ثم أشعلتُ الفرن، وبدأتُ بصناعة كعكة أخرى.

في اليوم التالي، كان أول يوم لتشارلي في الحضانة، تأخر قطار الأنفاق عن موعده،مما أدى لتأخري على تشارلي. عندما وصلت، كان يبكي. فقد كان آخر طفل يقف هناك. رأيته يصرخ ويضرب بقبضتة الصغيرة ركبة مدربة المدرسة. عندما تقدمت نحوه، لم ينظر إليّ. فسحبته من يده إلى البيت، وأجلسته على طاولة المطبخ وخففتُ الإنارة، ثم أحضرتُ كعكة الموز ووضعتُ عليها ٢٠ شمعة. عندها نسي تشارلي الاستياء، وبدأ يبتسم. . . أعطيته قبلة وساعدته في إطفاء الشموع.

ـ تمنى أمنية، تشارلي!

ـ أريد بابا!

ـ هل تريده فعلاً، تشارلي؟ أحقاً تريد بابا؟

«أومأ بالإيجاب». ارتجفت شفته السفلية، كما ارتجف قلبي أيضاً. بعد انتهائه من تناول الكعكة، سار بخطى قصيرة قلقة ليلعب بسياراته الصغيرة. كانت طريقته في المشي غريبة نوعاً ما...«السير بقلق»، ولدٌ في الثانية من عمره يمشي بخطىً ارتجالية طائشة، ويتجنب الوقوع على الأرض فهو إما محظوظ أو محمي من

السماء...«حياة طفل صغير تسير بساقين قصيرتين».

عندما ذهب تشارلي إلى فراشه، اتصلتُ بزوجي...

ـ يريدك تشارلي أن تعود، آندرو!

«صمت آندرو لفترة...»

آندرو...؟ أتسمعني؟

ـ ماذا؟ تشارلي يريدني؟

ـ أجل!

ـ وماذا عنكِ؟ هل تريدينني أنتِ أيضاً؟

ـ أنا أريد فقط ما يريده تشارلي!

«ضحك آندرو ضحكة مريرة غير جدّية»

ـ إنكِ حقاً تعرفين كيف تجعلين الرجل يشعر بأنه مميز!

ـ أرجوك، آندرو! أعرف أنني جرحتك بقسوة! يمكننا إصلاح ذلك الآن!

ـ أنتِ على حق! يمكننا إصلاح ذلك!

ـ لا يمكنني تربية طفلنا لوحدي، آندرو!

ـ وأنا لا يمكنني السماح لمومس أن تكون أماً لولدي، ساره!

تكمشت بسماعة الهاتف بقوة، تملتكني موجة من الذعر تسللت لداخلي. فقد قالها آندرو بصوت خافت « مومس تكون أما لولدي؟...قالها ببرود...وكأنه يريد تهذيب الكلمة، فبدل أن يقول، زانية، خائنة ونرجسية، اختار المصطلح المناسب تماماً، «مومس» حاولت السيطرة على صوتي، لكنني لاحظت التوتر الواضح فيه.

ـ أرجوك، آندرو! إننا نتكلم عنك وعني وعن تشارلي! لا تتخيل كم يهمني أمركما، كثيراً! أما فيما حصل بيني وبين لورانس . . . فأنا آسفة جداً!

ـ لماذا فعلتِ ذلك، ساره؟

ـ كل ما فعلته لا يعني شيئاً ! صدقني! فقد كانت مجرد علاقة جنسية عابرة! تفوهت بهذه الكذبة بعفوية جعلتني أدرك كم كانت رائجة (الكذبة) في تلك الأيام.

ـ مجرد علاقة جنسية عابرة؟ هذا هو العرف في هذه الأيام! أليس كذلك؟ أصبح الجنس كلمة اعتيادية ككل الكلمات! أمر لا يستحق الذكر، ساره! مجرد خيانة أليس كذلك؟أنتِ فقط، كسرتِ قلبي يا ساره؟

ـ توقف...أرجوك توقف! ماذا تريدني أن أفعل كي أصلح الأمور؟

«أخبرني أنه لا يعرف، بكى على الهاتف، لم يفعل هذان الآمران في حياته،ـ البكاء وعدم المعرفة ـ عندما سمعته يبكي، بدأت بالبكاء أنا أيضاً. وعندما انتهينا، التزمنا بصمت طويل على الهاتف. صمت لهدف، ألا وهو الإدراك بأن هناك ما يستحق أن نبكي من أجله. إدراك مشكوكٌ به، كالحياة التي تنتظر من يوثقها».

ـ أرجوك يا آندرو! قد نحتاج لفترة استجمام! فنحن بحاجة لبداية جديدة!

«ابتلع آندرو ريقه»

ـ حسناً !

ـ علينا الابتعاد عن كل شيء! علينا أن نغادر لندن! أن نترك العمل لفترة، وكذلك تشارلي! سنتركه عند جده وجدته لبضعة أيام! فنحن بحاجة إلى إجازة!

ـ «تذمر آندرو»، أووواا! يا إلهي! إجازة؟

ـ نعم يا آندرو! أرجوك!

ـ يا إلهي! حسناً ! أين؟

اتصلتُ به في اليوم التالي...

ـ حصلت على تذاكر سفر مجانية، آندرو! إلى شاطئ إيبينوا في نيجيريا! تذاكر مفتوحة يا عزيزي! يمكننا الانطلاق يوم الجمعة!

ـ هذه الجمعة؟

ـ يمكنك إرسال مادتك للنشر قبل الانطلاق، وعندما نعود ستكمل عملك!

ـ إلى أفريقيا؟

ـ هناك حيث الشاطئ، آندرو! الجو ماطر هنا! بينما جاف هناك! هيا، دعنا نستمتع ببعض الشمس!

ـ نيجيريا؟ لما لا نذهب إلى إيبيزا مثلاً أو جزر الكناري؟

ـ لا تكن مملاً، آندرو! على كل حال...إنها مجرد رحلة إلى الشاطئ! هيا فلن يأكلنا أحد هناك!

اقتحمت الأحداث الخطرة، حياتنا دفعةً واحدة، هذا ما حصل لنا «أنا وأندرو» مذ عدنا من أفريقيا...الصدمة، الاتهام المضاد، فالعامين المروعين اللذين قضاهما آندرو تحت تأثير الاكتئاب الحاد، وبعد كل ذلك، علاقتي المستمرة مع لورانس التي لم أقدر على إنهائها للآن. أعتقد أنني كنت مكتئبة كل الوقت أيضاً. رغم السفر خارج لندن بهدف تبديد الحزن، لكن لا فائدة ترجى. تشعرين أحياناً بأنك تحملين أعباء الدنيا كلها في قلبك.

«هذا ما فسرته للنحلة الصغيرة وقت الظهيرة عند مرافقتها لي لاصطحاب تشارلي من الحضانة».

جلستُ أتناول معها الشاي على طاولة المطبخ . . .

ـ أتعلمين، أيتها النحلة؟ كنت أفكر بما قلته عن بقائك هنا! وعن إمكانية مساعدتنا لبعضنا البعض! أعتقد أنكِ على حق! فنحن بحاجة للمضي قدماً!.

«أومأت النحلة الصغيرة برأسها».

كان بات مان الصغير يلعب تحت الطاولة بدمية على شكل بات مان. ويبدو أن الدمية كانت منشغلة بعراك يائس مع زبدية من الكورن فليكس.

كنت أشرح للنحلة الصغيرة الطريقة التي سأساعدها بها...

ـ أول ما سأقوم به هو تعقب أثر المسؤول عن أوراقك الرسمية...أووواا! يا تشارلي! لا تلعب بالطعام...ثم سوف نتحدى... أووواا! أرجوك، تشارلي! لا تبعثر رقائق الذرة في كل مكان... ثم سنعدل وضعك القانوني، وسنعرف إن كان بإمكاننا إجراء حق المطالبة! لقد بحثت في شبكة الانترنت، وعلى ما يبدو ...تشارلي؟ أرجوك! إن اضطررت لالتقاط تلك الملعقة مرة أخرى، سآخذ منك دمية بات مان! أتسمعني؟... وعلى ما يبدو، إن استطعنا أن نحصل لك على إقامة مؤقتة، عندها سأعمل على تحصيل حقك في إجراء امتحان الحصول على الجنسية البريطانية! وهذا أمر بسيط

للغاية...تشارلي! حباً بالله! يكفي! أخرج الآن! أخرج من المطبخ وعدْ عندما تكون قادراً على التصرف بأدب...، مجرد أسئلة عامة عن ملوك وملكات إنكلترا والحرب الأهلية، وسأساعدك على الدراسة، وبعدها سوف...، تشارلي! يا إلهي! أنا آسفة! لم أقصد جعلك تبكي! أنا آسفة جداً، بات مان! تعال حبيبي!

«ابتعد تشارلي عني وارتجفت شفته السفلية واحمر وجهه، ثم بدأ بالصراخ، ودخل في معركة من الحزن لا يدخلها سوى الرضع والأبطال. كان بكاءه صادقاً وبريئاً».

ربتت النحلة الصغيرة بلطف على رأسه، فدفن وجهه في حضنها، وقد رأيت قبعة الوطواط ترتعش بينما كان يجهش بالبكاء.

ـ أووووا يا إلهي! أيتها النحلة! أنا آسفة! أنا في حالة من الفوضى في هذه اللحظة!

ـ لا بأس، ساره! لا بأس!

كانت حنفية المطبخ تقطر، فنهضتُ وشددتها بإحكام، لكن قطرات الماء لم تتوقف. ولم أفهم لما سبب لي ذلك الكثير من الإزعاج.

ـ أووووا أيتها النحلة! يجب أن نتكاتف ونتعاون! علينا ألا نبقى مكتوفتا الأيدي!

بعد قليل، طرق أحدهم باب المنزل. فاستجمعتُ قواي. وفتحتُ الباب، كان لورانس يقف حاملاً حقيبة السفر على كتفه. بملامح مرتاحة وابتسامة تلقائية عندما نظر إليّ.

ـ لا أدري إن كان هذا هو العنوان الصحيح!

ـ لا أظن ذلك!

ـ ظننت أنك ستسرين برؤيتي!

ـ دفنت زوجي للتو! هذا لا يجوز! ماذا عن زوجتك؟

ـ أخبرتُ ليندا بأنني أخضع لدورة في الإدارة، في برمنغهام لمدة ثلاثة أيام!

ـ هل تعتقدها، صدقتك ؟

ـ اعتقدت بأنك تحتاجين لبعض المساعدة!

ـ شكراً ! لقد حصلت عليها!

من مكانه في الردهة نظر لورانس لوراء كتفي حيث النحلة الصغيرة، ثم سألني: ـ هل تلك هي؟

ـ ستمكث هنا طالما أنها تريد ذلك!

ـ «أخفض صوته»،هل وجودها قانوني؟

ـ لا يهمني ذلك...وأنت؟

ـ إنني أعمل في وزارة الداخلية، ساره! قد أخسر وظيفتي إن اكتشف أحدهم أنني على علم بأنك تؤوين عندك لاجئة غير قانونية، دون أن أفعل شيئاً...عندها سينتهي أمري! قد أُطرد من العمل إن دخلت منزلك الآن، ساره!

ـ امممممم! إذاً لا داعي لتدخل!

«احمر وجه لورانس، وتراجع خطوة للوراء، وبدأ يمسح رأسه براحة يده...»

ـ أنا مثلك غير مرتاح، ساره! فأنا لا أحبذ أن تكون علاقتي بكِ سرية أيضاً! ليتني أحب زوجتي! وليتني لم ولا أعمل لدى قوى الشر في هذه البلاد! أتمنى لو كنت مثلك مثالياً! لكنني لست كذلك، ساره! فلا يمكنني أن أتصرف وكأنني إنسان مهم! إنني لا شيء، ساره! حتى القصة التي اختلقتها كي آتي إليك! ثلاثة أيام في بيرمينغهام؟ سحقاً ! لا يمكنني تعلم شيء، يعرف الجميع أنه لا أمل مني؟ هذا مأساوي! ألا تظنين ذلك؟ هذا ما كنت أفكر فيه، سارة، عندما اختلقت الكذبة! أنا غير محرج من علاقتي معك، بل من القصة الوهمية التي اختلقتها، لتبرير لقائي بكِ!

ـ لورانس، تذكرني بسبب إعجابي بك! لا يمكن لأحد لومك لأنك تتصرف على طبيعتك! أليس كذلك؟

ـ «زفرَ لورانس الهواء من فمه بحزن» ليس هناك دليل قاطع على ما تقولينه! ترددتُ قليلاً، فمدّ ذراعيه وأمسك بيدي...أغمضت عينيَّ، وشعرت بدفءٍ عندما لمستُ جلده الناعم. فسحبته خطوة للأمام، بينما كنت أترنح تقريباً...»

ـ هل تريدين أن أدخل؟

ـ لكن لا تعتاد على ذلك! اتفقنا؟

«ابتسم لورانس، وبتردد، وطئت قدمه عتبة الباب، فقد رأى النحلة الصغيرة واقفة خلفي بهدوء.

ـ لا تقلق بشأني! فأنت، لم تراني رسمياً! لأنك في بيرمينغهام! وأنا في نيجيريا!

«ابتسم لورانس ابتسامة خفيفة»

ـ يا ترى من منا سينكشف أمره أولاً ؟

دخلنا جميعاً، غرفة الجلوس. كان بات مان يوجه مسدسه الناري، أقصد المائي نحونا... في عالم تشارلي الخيالي، غالباً ما تكون خدمات الطوارئ مؤذية ـ نظر تشارلي إلينا.

ـ بات مان! هذا لورانس! وهو صديق أمك!

وقف تشارلي وتوجه حيث يقف لورانس. وعندما حدق به، بدى أن إحساس الوطواط لديه كان يخبره بأمرٍ...

ـ هل أنت أبي الجديد؟

ـ لا لا لا يا تشارلي، إنه...!

«شعر تشارلي بالحيرة...فانحنى لورانس وقابله وجهاً لوجه».

ـ كلا يا بات مان! أنا صديق ماما، فقط!

ـ «بهدوء»هل أنت طيب أم شرير؟

ـ «ابتسمَ». في الحقيقة يا بات مان! أنا مجرد شخصية ثانوية، بريئة من شخصيات القصص المصورة، إحدى الشخصيات التي تقف في الخلف بين الحشود!

ـ لكن هل أنت طيب أم شرير؟

ـ إنه طيب بالتأكيد يا تشارلي! أتظن بأن أمك تسمح بدخول الأشرار إلى هذا المنزل؟

«طوى تشارلي ذراعاه ولزم الصمت، لم يتكلم أحد...سمعنا في الخارج أصوات الأمهات يندهن لأولادهن كي يشربوا الشايّ».

في وقت لاحق، وبعد أن خلد تشارلي إلى الفراش، بدأت بتجهيز طعام العشاء، بينما كان لورانس يجلس مع النحلة الصغيرة على طاولة المطبخ. وبينما كنت

أبحث في الخزانة عن علبة الفلفل، وجدتُ علبة من البسكويت كان آندرو يحبها. شممتُ رائحتها بخلسة، تفوح منها رائحة اللوز والمشمش، مما جعلني أذكر كيف كان يتجول آندرو في المنزل عند منتصف الليل حين يعاني من الأرق، غالباً ما كان يعود للفراش وتفوح من فمه رائحة هذا البسكويت، في آخر أيامه، ما ساعد على بقاءه حياً، هو ست قطع من البسكويت وقرص دواء سيبراليكس يومياً.

أمسكت بعلبة بسكويت، وفكرت بإلقائها في القمامة، لكنني لم أستطيع. كم شعرت بالحزن حينها، ها أنا، غير قادرة على التخلص من شيء كان يريح آندرو ويشعره بالأمان.

حينها، شعرتُ فجأةً بأنني خائنة، لذلك لم أكن أحبذ فكرة دخول العاشق إلى منزل المعشوق...

احترقت عجة الفطر قليلاً بينما كنت أفكر بآندرو، جلستُ لتناول الطعام معهما، لورانس والنحلة الصغيرة!

كان الوضع مزرياً ! لم يتوجها بكلمة واحدة، أحدهما للآخر. نتناول الطعام بصمت، على صوت طقطقة أدوات المائدة.

وأخيراً تنهدت النحلة الصغيرة وصعدت للأعلى كي تنام في السرير الذي جهزته لها في غرفة الضيوف.

وضعتُ الصحون في الجلاية ونقعتُ المقلاة في مغسلة المطبخ...

ـ ماذا، سارة؟ ما الذي فعلتهُ؟

ـ كان بإمكانك بذل بعض الجهد!

ـ أجل! صحيح! لكنني اعتقدتُ بأننا سنكون لوحدنا الليلة! لم يكن الموقف سهلاً!

ـ تذكر أنها ضيفتي، لورانس! كان بإمكانك على الأقل أن تُظهر بعض الأدب!

ـ لا أعتقد بأنك تدركين ما تقحمين به نفسك، ساره! أظن أن السماح لها بالبقاء سيثير لك الكثير من المشاكل! فكلما ترين وجهها، ستتذكرين ما حدث لك على الشاطئ!

ـ قضيتُ عامين وأنا أستنكر وأتجاهل وأتناسى ما حدث على الشاطئ! وهذا

ما فعله آندرو أيضاً! مما أدى إلى انتحاره في النهاية! لن أسمح لذلك أن يقضي عليَّ وعلى تشارلي! سأساعد النحلة الصغيرة! وسأعيد الأمور لطبيعتها! عندها سأستمر في حياتي!

ـ أجل! لكن ماذا لو لم تستطيعي؟ أنتِ تعلمين تماماً مصير تلك الفتاة! سينفونها من البلاد!

ـ أنا واثقة أن الأمور لن تصل لهذا الحد!

ـ ساره! لدينا دوائر رسمية متخصصة في توصيل الأمور إلى ذاك الحد! وأنت تعلمين ذلك! تُعدّ نيجيريا بلد آمن رسمياً، وهذه الفتاة لا عائلة لديها هنا...فقد اعترفت هي بذلك...وبالتالي لديهم كل الأسباب لنفيها...

ـ لكنني سأحاول!

ـ لن تسمح لك الحكومة بذلك، بسبب البيروقراطية، وسيعيدونها إلى ديارها...أما أنتِ فستتعرضين للأذى...صدقيني! أنت منهارة بما فيه الكفاية، ساره! وتحتاجين للكثير من الطاقة الإيجابية! لديك ولد عليك تربيته لوحدك الآن! تحتاجين أُناس يساعدونك، وليس أُناس يدمرونك!

ـ مثلك أنت، لورانس؟

ـ أريد أن أكون مهماً بالنسبة لك، ساره! وددت ذلك مذ التقينا للمرة الأولى في الوزارة! وأعتقد أنني لم أخيب ظنك! أليس كذلك؟ بالرغم من علاقتي التعيسة مع زوجتي، وعلاقتك مع آندرو، ورغم كل شيء...كنا نقضي وقتاً ممتعاً، ساره! أليس ذلك ما كنت تريدينه؟

ـ لا أعتقد أن ذلك يتعلق بقضاء الأوقات الممتعة، لورانس!

ـ وهل تعتقدين أنني أتهرب من الموضوع؟ أنا أقوم بما هو أفضل لك! لن أتوقف لمجرد أن الأمور بدأت تصبح أكثر خطورة! لكن عليك أن تختاري! لن أستطيع مساعدتك إن وجهتي كل تركيزك على تلك الفتاة!

«شحب وجهي، وبكل هدوء أجبته»

ـ لا تقل لي أنك تطلب مني أن أختار بينكما!

ـ لا، ساره! أنا لا أطلب منكِ ذلك مطلقاً! ما أقصده هو أن عليك أن تختاري بين حياتك وحياتها. كما عليك أن تبدئي بالتفكير بمستقبلك أنت وتشارلي! تشارلي طفل لطيف يا ساره! لكن يجب عليك أن تفكري بمنطق من الآن فصاعداً!

«ضربتُ على الطاولة بعنف»

ـ لقد أُجبرتُ على قطع إصبعي من أجل تلك الفتاة! أيمكنك أن تخبرني ما المنطق في إلغاء عمل بدأته من قبل؟ أتريدني حقاً أن أفكر بمستقبلي؟ لقد قطعت إصبعي يا لورانس! هل تعتقد أنني عاجزة عن تقطيعك أنت أيضاً؟

ـ أنا آسف! ما كان عليّ المجيء إلى هنا!

ـ بالضبط! ربما أنت على حق!

«جلستُ على طاولة المطبخ، بينما لورانس يلتقط معطفه، ويحمل حقيبة سفره. وعندما همَّ بفتح الباب الأمامي، هرعت إليه، فرأيته يبتعد بخطى سريعة.

ـ لورانس؟

«التفتَ إلى الوراء...»

ـ إلى أين أنت ذاهب؟ لا يمكنك العودة إلى بيتكَ الآن!

ـ أووواا! لم يخطر ببالي ذلك!

ـ من المفروض أن تكون في بيرمينغهام الآن!

ـ سأنزل في فندق! هذا مناسب لي! سأقرأ كتاباً عن القيادة! ربما أتعلم شيئاً ما!

ـ أووواا! لورانس! تعال إلى هنا!

مددتُ ذراعي نحوه، فعانقني ووضعت وجهي على رقبته...كان واقفاً دون حراك. شممتُ رائحة جسده، فتذكرتُ كل لقاءاتنا السرية في الفندق...كم كنا نستمتع وقتها!

ـ أنت حقاً رجل فاشل!

ـ أشعر أنني سخيف! لقد دبرتُ كل شيء! فقد أخذتُ إجازة من العمل! واخترعت قصة كاذبة لزوجتي ليندا! كما أنني اشتريتُ ألعاباً لأولادي، في حال نسيت ذلك في طريق العودة! لقد جهزتُ كل شيء! اعتقدتُ أنها ستكون مفاجأة

سارّة لكِ! لكنها كانت مفاجأة على الأقل! أليس كذلك؟

صفعته بتوددٍ...

ـ أنا آسفة! أنا حقاً آسفة! كنت وقحةً معك! شكراً لأنك أتيت لرؤيتي! أرجوك، لا تذهب إلى الفندق! لا أحب أن تكون بمفردك هناك! لن أحتمل ذلك! أرجوك إبقى هنا!

ـ ماذا؟ الآن؟

ـ أجل! أتوسل إليك!

ـ لا أظنها فكرة جيدة، ساره! أعتقد أنه من الأفضل لي التريث والتفكير بما قلته منذ قليل، بأنك غير عاجزة عن تقطيعي!

ـ توقف عن ذلك أيها الماكر النذل! توقف قبل أن أغير رأيي!

«ابتسم لورانس، فطوقت رقبته براحتيَّ...»

ـ ما قصدته هو أنني لو اضطررت إلى تقطيعك، سيؤلمني ذلك أكثر بكثير من قطع إصبعي!

«عندها حدق في وجهي لفترة طويلة»

ـ أووواا! ساره!

صعدنا معاً للطابق العلوي، وأدركتُ متأخرةً بأننا نمارس الجنس على سرير غرفة نومي أنا وآندرو، فقد كنت أدفن وجهي على شعر صدره الناعم، بينما أساعده على خلع ثيابه، وفجأةً تمزقت حمالة صدري، وطار المشبك المعدني لحزامه. فانتبهتُ أنه كان مستلقياً مكان آندرو. وقد كان مقعر ظهره الأملس والمتعرق يتقوس باعتزاز، مقارنةً بالاكتئاب الذي كان آندرو يظهره في الفراش. ترددتُ في البداية، وتجمدت أوصالي، وقد لاحظ لورانس ذلك على ما أعتقد... لكنه حافظ على الزخم. وألقى بجسده المثير فوق جسدي، وكنت ممتنة له لأنه بذلك حال دون انشغالي عنه والتفكير بغيره.

سمحت لنفسي بالذوبان تحت نعومة جسده الممشوق، وكياسة حركاته ورشاقته. فقد كان طويلاً ونحيلاً. لم أعاني من أي ضغط مؤلم في حوضي، أو صعوبة خروج النفس من رئتاي، أو أي خطورة في ممارسة الجنس، كما كان يحدث لي مع

آندرو. فقد كان آندرو يجعلني أتأوه من شدة الحرمان بقدر ما كنت أتأوه من شدة اللذة. هذا ما كان يعجبني في مطارحتي الغرام مع لورانس...خفة حركاته المثيرة في الجنس!

لكن ثمة خطأ ما هذه الليلة، ربما كان بسبب حضور آندرو الفعال داخل الغرفة، فقد كانت كتبه وأوراقه مبعثرةً في كل الأرجاء، فوق الرفوف وفي الزوايا، وعندما خطر آندرو ببالي، تذكرتُ النحلة الصغيرة. صحيح، كنت ولورانس نمارس الجنس معاً، لكن جزءاً مني كان يفكر ويقول، «في الصباح! عليَّ الاتصال بوكالة الحدود والهجرة، لتعقب أوراقها الرسمية، ويجب أن أبحث لها عن محامي وأبدأ بإجراءات المطالبة...وبعدها...»

بعدها لم أستطيع تسليم نفسي إلى لورانس كالسابق. وفجأةً شعرت بأنه قد أصبح خفيفاً جداً. بالكاد لامست يداه أصابعي. وعندما وضع جسده فوق جسدي، شعرتُ بأنني أمارس الحب مع سحابة صيفية، أو فراشة شتاء تفتقر للجاذبية...

ـ ساره؟ ما الأمر؟

ـ أووا! يا إلهي! أنا متأسفة!

توقف لورانس عن الاهتزاز، واستلقى على ظهره، وعندما أمسكتُ قضيبه، لاحظتُ أن انتصابه قد ضعف.

ـ أرجوكِ! لا تفعلي ذلك!

تركت قضيبه وأمسكت بيده، لكنه سحبها سرعان ما لمستها...

ـ أنا حقاً لا أستطيع أن أفهمك، ساره!

ـ أنا حقاً آسفة، لورانس، لقد تذكرتُ آندرو! لم يمر وقت طويل على وفاته!

ـ لم يكن آندرو عائقاً بيننا حتى عندما كان على قيد الحياة!

«رأيت في الظلام، طائرة منخفضة تخرج من مطار هيثرو، كما رأيت بومتان تنعقان وسط صوت هدير الطائرة، حيث كان صوت النعيق يشبه صوت أنين المحركات...»

ـ أنتَ على حق! لم يكن آندرو هو السبب!

ـ من إذاً؟

ـ لا أعرف! أنا حقاً أحبك، لورانس! صدقني؟ لكن هناك بعض الأمور يجب القيام بها!

ـ أمور تتعلق بالنحلة الصغيرة؟

ـ نعم! فأنا غير مرتاحة! لا أستطيع التوقف عن التفكير بذلك!

ـ وماذا بشأننا، ساره؟ هل ستجدين وقتاً للتفكير بنا يوماً ما؟

ـ أووواا! بالطبع سأفعل! فأنا وأنت لدينا الكثير من الوقت! أليس كذلك؟ لدينا ستة أسابيع...ستة أشهر...أو حتى ست سنوات للقيام بالعديد من الأشياء التي ستعزز علاقتنا. خاصةً بعد رحيل آندرو. لكن النحلة الصغيرة لا تملك كل هذا الوقت.

لقد أخبرتكَ بذلك قبل قليل، إن لم نسرع في تدبير أمورها، سيجدونها وينفونها من البلاد. عندها ستختفي هذه الفتاة من حياتنا، أتعلم كيف سيكون مستقبلنا بعد ذلك؟ حينها، لن أستطيع النظر في وجهك، لأنني أدرك بأنه كان عليّ بذل جهد أكبر لمساعدتها! هل هذا المستقبل الذي ترغب به؟

ـ أووواا! يا إلهي! لما لا تكونين كالآخرين؟ لماذا تهتمين كثيراً بشأنها؟

ـ تريدني أن أكون كالآخريات؟... شقراء، طويلة، تحب الموسيقى والأفلام وتسعى للحصول على رجلٍ مثير بهدف الصداقة أو ربما أكثر من ذلك؟

ـ حسناً! حسناً! فهمت! أنا مسرور لأنك لستِ مثلهن! لكنني حقاً لا أريد أن أخسرك بسبب فتاةٍ لاجئة لا أمل لها في البقاء طويلاً على أية حال!

ـ أووواا! لورانس! لن تخسرني! لكن ربما ستكون النحلة الصغيرة، برفقتنا لفترة وجيزة!

«ضحك لورانس...»

ـ ماذا... ما بكَ؟

ـ إنه لأمرٌ مثالي! أليس كذلك؟ يأتي هؤلاء المهاجرون، كي يسلبوننا نسائنا . . .

«كان لورانس يبتسم باحتراس... إحساس مُبهم جعلني أتساءل كيف يجد هذا

الرجل نكتته مضحكة لهذا الحد؟...من الغريب أن تشعر بالغموض مع رجل كهذا، في الواقع لم يبدو لورانس صعب الفهم في بداية معرفتي به، وقد لاحظتُ بأنني لم أكن أجد صعوبة في فهمه إلى الآن، ربما كنت أنا السبب. ابتسمتُ له باسترخاء، ثم قبلته على جبينه.

ـ شكراً لك، لورانس! شكراً لأنك لم تزيد صعوبة الأمر أكثر مما هو عليه.

عندها حدق لورانس في وجهي، بدى وجهه حزيناً ونحيلاً في ظل الوهج البرتقالي القادم من عواميد الإضاءة في الشوارع عبر الستائر الحريرية الصفراء لغرفة النوم.

شعرتُ بتشنج فجائي في معدتي، كما شعرتُ بقشعريرة في ذراعيّ . . .

ـ ساره! في الحقيقة! أظن أنكِ لا تعرفين مدى صعوبة ذلك!

الفصل السابع

في الصباح الباكر، دخلت ساره إلى غرفتي . . .

ـ أنا مسرورة لأنك مستيقظة! لم يعد لدينا حليب لفطور تشارلي! سأقصد المتجر قبل أن يستيقظ! لن أتأخر! هل تأتين معي؟

«كانت تمطر في الخارج، فذهبنا في سيارتها. مساحات الزجاج الأمامي للسيارة تصدر صريراً...وساره تمضغ شفتها بأسنانها»

ـ اسمعي! سيمكث لورانس في المنزل لصباح اليوم التالي! قد يبدو الأمر مفاجئاً! لذلك أردتُ أن محادثتكِ على انفراد! أريدك أن تتفهمي الوضع!

«بدأتُ بالضحك... فتفاجأت ساره وحدقت مندهشةً...»

ـ أنا أتفهم الوضع! كلنا نحاول الحصول على السعادة في هذا العالم الواسع! فأنا سعيدة لأنني أعتقد أن الرجال لن يحضروا اليوم للتخلص مني! وأنت سعيدة لأنك تتخذين قراراتك بنفسك! ولورانس أحد قراراتكِ! أليس ذلك صحيحاً؟

«ضحكت ساره وأومأت برأسها، وهي تقود السيارة وسط المطر...»

ـ جيد! يبدو ذلك أسهل مما ظننت!

«ابتسمتُ لها . . . كنت سعيدة لأنني رأيتها تضحك هكذا . . .»

ـ لا أعتقدك مخطئة لأنك راغبةً بعيش الحياة التي ولدتِ من أجلها! فالكلب يبقى كلباً، والذئب يبقى ذئباً! هذا مثل شائع في بلادي!

ـ هذا جميل!

ـ في الحقيقة! هذا المثل ليس من بلادي!

ـ ماذا!

ـ بالضبط! لم نخترع مثلاً عن الذئاب؟ لدينا ٢٠٠ مثل عن القردة، و٣٠٠ مثل تتناول نبات المنيهوت! فنحن نتكلم عن أشياء نعرفها! لكنني لاحظت في بلادكم عندما أنوه، « هذا مثل شائع في بلادي! يتقبل الناس ذلك بكل جدّية . . .»

«ضحكت ساره ثانيةً»

ـ إنها خدعة جيدة! أليس هذا ما تقولينه في العادة أيتها النحلة؟

«ابتسمت، فقد كانت السعادة بالنسبة لساره مستقبل طويل تعيش فيه الحياة التي اختارتها. فالكلب يبقى كلباً، والذئب يبقى ذئباً، والنحلة تبقى نحلة...وعندما يفرغ الحليب، يتوجب على كل المخلوقات الذهاب للمتجر وشراءه من هناك...»

باركك الله لأنك تتفهميني، أيتها النحلة!

أنا أتفهم، لكن مستقبل وسعادة ساره أمران يصعب عليّ تفسيرهما لفتيات قريتي. فمستقبل البلد يتكون من موارده الطبيعية، وبلادي هي المصدّر الأكبر... فالبضائع المصدرة تغادر الموانئ البحرية بسرعة كبيرة، لدرجة أن الفتيات في القرية لا يشاهدون ذلك، وبالتالي لا يعرفون ما هو! في الحقيقة، يبدو المستقبل كالغازولين...لقد اكتشفت ذلك من الصحف التي كنت أقرأها في مركز احتجاز المهاجرين، عندها فهمتُ ما حدث لي عندما كنت في بلادي.

ما حدث هو أن شركات النفط اكتشفت كنزاً مستقبلياً مهماً مخبأً في باطن الأرض بقريتي، وللدقة، اكتشفوا النفط الخام، وهو ما يسمونه « المستقبل قبل صقله». كان ذلك يشبه حلم المستقبل، كأي حلم ينتهي باستيقاظ مذعور.

جاء الرجال بينما كنا نُعد طعام العشاء. دخان الخشب يختلط مع البخار الكثيف لقدور المنيهوت المغلي تحت شمس الغروب الذهبية، وقد حدث ذلك بسرعةٍ مفاجئة، حيث حملت النساء أولادهن وهرعن بذعر إلى الأدغال...في مخبئنا، كانت تصل إلينا أصوات صراخ رجال القرية وهم يحاربون الدخلاء.

«أضاءت إحدى أزرار لوحة عدادات السيارة»

أووووا، مؤشر البنزين! نحتاج للتزود بالوقود!

كانت الأمطار تغطي الطريق...توقفت ساره عند محطة البنزين، فخرجنا منها، لم يكن أحدٌ سوانا، سمعتُ زخات المطر وهي تنهمر فوق مضخات البنزين.

نظرت ساره وهي تحمل خرطوم البنزين . . .

ـ هل ما زلت ترغبين بالبقاء عندي؟

ـ أجل!

كان صوت البنزين وهو يتدفق من المضخة، يشبه صوت صراخ عائلتي...كانت ساره قد وضعتْ فوهة الخرطوم في خزان الوقود، مما حجب عني رؤيته يتدفق إلى الداخل. للأسف!.

في الحقيقة، كنت لا أزال أجهل شكل البنزين. إن كان منظره كرائحته في ذلك الصباح الممطر، أعتقد أنه سيبعث سعادةً هائلةً لدرجةٍ قد تسبب العمى أو الجنون لكل من ينظر إليه. ربما بسبب ذلك لم يسمحوا لنا برؤية البنزين. عند انتهائنا من التزود بالبنزين، دخلت ساره إلى متجر المحطة لتدفع لهم، وخرجت حاملةً زجاجة كبيرة من الحليب، فعدنا إلى المنزل. كانت ما تزال الساعة السادسة والنصف صباحاً.

عندما دخلنا، أغلقت ساره باب المنزل الأمامي وأخذت تتثاءب...

ـ لن يستيقظ تشارلي قبل ساعة على الأقل! أعتقد بأني سأعود إلى الفراش!

«أومأتُ برأسي، فابتسمت لي، وبدى الرضا واضحاً على وجهها، فلاحظتُ بأن ذلك بالضبط ما كانت ساره ترغب به. التفهم !»

دخلتُ للمطبخ لأحضّر لنفسي فنجاناً من الشاي . . .

التفهّم، ربما يكون اسم مناسب لقريتي، حتى قبل مجيء الرجال اللذين أحرقوا الأكواخ وحفروا من أجل النفط. ربما يكون اسماً مناسباً للمساحة الموجودة المحيطة بالشجرة الضخمة التي كنا قد ربطنا عليها إطار السيارة القديم لنتأرجح، ونثب على مقاعد سيارة والدي القديمة (البيجو)، وسيارة عمي المحطمة (المرسيدس). وعندما كنا نرتل ترانيم الكنيسة من كتاب ممزق الغلاف وصفحاته مثبتة بشرائط لاصقة. كنا نعرف ممتلكاتنا جيداً...فنحن لم نمتلك شيئاً. يبدو أن هذا أمرٌ يتفق عليه عالمكم مع عالمنا.

حتى المبشرين...غادرونا وتركوا لنا الكتب المقدسة التي لا تستحق عناء شحنها ثانيةً إلى بلادكم.

في قريتنا، كانت بعض من صفحات الكتاب المقدس مفقودة، حيث ينتهي الكتاب عند الآية السادسة والأربعين للفصل السابع والعشرين من إنجيل متّى. لذلك ينتهي كتابنا الديني عند هذه الجملة، « إلهي! إلهي! لماذا تركتني؟». كنا نعتقد أن الكتاب ينتهي هنا.

كنا نحيا بسعادة خالية من الأمل...كم كنت صغيرةً وقتها! ولم أكن أسعى للحصول على مستقبلٍ، لأنني لم أكن أدرك أنه من حقي أن أحصل عليه. لم نكن نعرف عن العالم سوى أمر واحد فقط، تعلمناه من ذلك الفيلم القديم الذي شاهدناه في القرية. والتي تدور أحداثه حول رجلٍ كان على عجلة من أمره، فهو يسافر إما بالطائرة النفاثة أو بالدراجة النارية . . . وأحياناً رأساً على عقب. كانت تصلنا بعض الأخبار عبر الراديو الهوائي، لكن الموسيقى هي أكثر ما كنا نستمع إليه. لدينا تلفاز، لكنه لا يستقبل أية محطة، وبالتالي، كان علينا خلق البرامج بأنفسنا. كان تلفازنا بإطارٍ خشبي بدون شاشة، حيث كانت أختي نكيروكا تضع رأسها داخل الإطار وتقوم بالتمثيل . . . خدعة جيدة! أليس كذلك؟ عرفت الآن أنه كان علينا أن نسمي ذلك،« تلفزيون الواقع».

كانت شقيقتي تضبط القوس فوق رأسها وتغرز زهرةً في شعرها، وتبتسم عبر الإطار الفارغ للتلفاز وهي تقول:

ـ مرحباً بكم! إليكم أخبار الـ BBC! ستمطر اليوم السماء، الكثير من الآيس كريم! لا داعي للذهاب إلى النهر للحصول على الماء! لأن المهندسين سيحضرون من المدينة كي يركبوا أنابيب المياه وسط القرية!

كنا جميعاً نجلس ونراقب نكيروكا وهي تقدم نشرة الأخبار...كنا نحب تلك الأخبار الخرافية التي كانت تقولها لنا . . . ففي فترة بعد الظهر، كنا نستمع إليها ونشعر بالفرح والدهشة، حيث كنا نقول: واااااااااااااااااووو!

إحدى السمات الجيدة للتفهّم، هو القدرة على التكلم مع شاشة التلفاز، حيث كنا نصيح على نكيروكا ونسألها،

ـ في أي ساعة بالضبط ستمطر السماء الكثير من الآيس كريم؟

ـ في وقت مبكر من المساء! طبعاً عندما يكون الطقس أكثر برودة!

ـ كيف عرفت ذلك، أيتها المذيعة؟

ـ لأن الطقس يجب أن يكون بارداً، كي لا تذوب الآيس كريم! يبدو أنكم لا تعرفون شيئاً أيها الأولاد!

«كان الأولاد يهزون برؤوسهم موافقين! فمن الواضح أن الطقس يحتاج لبعض البرودة كي يتحقق حلمهم».

في الحقيقة! كنا نشعر بالرضا عند الاستماع لنشرة الأخبار! يمكنكم لعب نفس الخدعة في بلدانكم، لكن ذلك صعب! لأن جهاز التلفاز هنا لا يجيب على أسئلة المشاهدين!

في ذلك الصباح، بعد أن عدنا من محطة البنزين، وخلدت ساره إلى النوم. استيقظ تشارلي وطلب مني تشغيل جهاز التلفاز. كان قد دخل المطبخ حافي القدمين، مرتدياً زي بات مان...

ـ صباح الخير بات مان الصغير! أتريد تناول طعام الفطور؟

ـ لا ، لا أريد. أريد مشاهدة التلفاز!

ـ هل تسمح لك أمك بمشاهدة التلفاز قبل تناول الفطور؟

«نظر تشارلي إليّ وكأنه أستاذ صبور قام بالإجابة على السؤال ثلاث مرات لطالبٍ بطيء الفهم، ثم أجابني:»

ـ في الحقيقة! ماما نائمة!

دخلنا غرفة المعيشة وشغلنا التلفاز، وشاهدنا ما يُعرض على الشاشة بدون صوت. كانت تعرض أخبار الـ BBC الصباحية، حيث شاهدنا لقطات لرئيس الوزراء وهو يلقي خطاباً. التصق تشارلي بالشاشة، وحرك أذني قبعة بات مان التي كان يرتديها، قائلاً وهو يُشير.

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ هذا هو الجوكر! أليس كذلك؟

ـ كلا يا تشارلي! هذا رئيس الوزراء!

ـ هل هو طيب أم شرير؟

ـ البعض يظنه طيباً، والآخرون يجدونه شريراً!

ـ هذا مضحك! هههههههه!

ـ هذه هي الديمقراطية يا تشارلي! إن لم تكن تملكها، فعليك أن تسعى لذلك!

«كنا جالسين نراقب رئيس الوزراء وهو يحرك شفتيه . . .»

ـ ماذا يقول؟

ـ يقول بأن السماء ستمطر الكثير من الآيس كريم!

ـ متى؟

ـ حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر! عندما يكون الطقس أكثر برودة! كما يقول بأنه سيسمح للشباب الهاربين من المشاكل في بلادهم أن يقيموا في هذه البلاد، شرط أن يعملوا بجدٍ دون أن يحدثوا أي شغب!

ـ أعتقد أن رئيس الوزراء رجل طيب!

ـ تقصد لأنه سيعامل اللاجئين معاملةً حسنة؟

ـ لا . . . لأنه قال بأن السماء ستمطر الكثير من الآيس كريم!

«قاطع حديثنا صوت ضحك عند الباب. التفت للوراء، فرأيت لورانس حافي القدمين ومرتدياً برنس الحمام. لم أعلم كم مضى من الوقت وهو يستمع إلى حديثنا».

ـ حسناً! يبدو أننا نعرف كيف نكسب تصويت ذلك الصبي!

نظرتُ إلى الأرضية بخجل . . .

أووووا! لا تكوني خجولة! إنك تجيدين التعامل مع تشارلي بامتياز! لما لا نتناول الفطور معاً؟.

ـ حسناً! هل تريد تناول الفطور يا بات مان؟

حدق تشارلي بلورانس، ثم أومأ برأسه موافقاً. وبدأت أبحث بين القنوات على قناة تشارلي المفضلة، وعندما وجدتها، هرعت إلى المطبخ . . .

ـ ساره نائمة! يبدو أنها بحاجة إلى الراحة! قهوة أم شاي؟

ـ شاي من فضلك!

حضَّر لورانس الشاي لكلينا. وضع فنجاني على الطاولة أمامي بحذر، عمل على توجيه مقبضه نحو يدي، وجلس مبتسماً على الجانب الآخر من الطاولة. كانت الشمس تنير المطبخ بأشعتها الصفراء الدافئة. لم تكن أشعةً متباهية . . . فهي ليست بحاجة للعظمة كي تنير المكان . . . كانت أغراض المطبخ تشع وكأن نوراً داخلياً تلقائياً يخرج من أعماقها. . . كان لورانس وفنجانه البرتقالي وفنجاني الأصفر وغطاء الطاولة القطني الأزرق، جميع الأشياء تشع من تلقاء نفسها...منحني نور الشمس شعور بالتفاؤل، خطر في بالي، إنها لخدعة جيدة!

ـ اسمعي، أيتها النحلة! ربما نقوم أنا وأنت بوضع خطة ما بشأن قضيتك! سأكون واضحاً معك! أعتقد أن عليك الذهاب إلى الشرطة لتسليم نفسك! عليكِ ألا تحمّلي ساره مسؤولية إيوائك عندها!

«ضحكتُ وفكرت بطريقة إيوائي عند ساره! شعرتُ بأنني مجرد زورق!»

ما قلته لا يدعو للضحك!

ـ لا يبحث عني أحد! لم عليّ الذهاب إلى الشرطة؟

ـ أعتقد أن وجودك، سيشكل خطراً كبيراً على ساره في الوقت الحالي!

«نفختُ لأبرّد فنجاني الساخن...فصعد البخار إلى الأعلى بتوهج . . .

ـ هل تظن بأن وجودك مناسب لساره في الوقت الحالي، لورانس؟

ـ طبعاً! بالتأكيد . . .

ـ ساره امرأة طيبة! لقد أنقذتْ حياتي!

ـ «ابتسم لورانس» أعرف ساره حق المعرفة! قصت لي كل ما حدث!

ـ عليكَ أن تعلم بأنني هنا لمساعدتها فقط!

ـ لا أظنها بحاجةٍ لمساعدة فتاةٍ مثلك!

ـ سأعامل ابنها وكأنه أخي...سأنظف منزلها وأغسل ثيابها، حتى إنني سأغني لها عندما تكون حزينة! ما المساعدة التي تقدمها أنت، لساره، لورانس؟ يبدو أنك من

الأشخاص الذين يقدمون المساعدة في السرير فقط!

ـ لن أعتبر ما قلتهِ، إساءة منك! إنك من أولئكَ النسوة اللواتي يحملن أفكاراً مضحكة عن الرجال!

ـ أنا إحدى تلك النساء اللواتي شهدن أمور غير مضحكة يفعلها الرجال!

ـ أووا! أرجوك! نحن في أوروبا! تعلمنا كل ما هو سائد لدينا فقط!

ـ أتعتقد بأنك مختلفٌ عنا؟

ـ يعود ذلك لطريقة تفكيرك!

ـ الكلب يبقى كلباً! والذئب يبقى ذئباً!

ـ أهذا ما يقولونه في بلادك؟

«ابتسمتُ . . .»

ـ «عبس لورانس»أنا لا أفهمكِ! لو كنت تدركين خطورة وضعك لما ابتسمت بهذه السذاجة!

ـ إن لم أبتسم، سيصبح وضعي أخطر!

«كنا نشرب الشاي ونحدق ببعضنا البعض. كانت عيناه خضراوان كعينيّ الفتاة ذات الثوب الساري الأصفر التي كانت معي في مركز احتجاز المهاجرين...كان يراقبني دون أن تطرف عينه...»

ـ ماذا ستفعل، في حال لم أذهب إلى الشرطة؟

ـ تريدين أن تعرفي إن كنت أريد تسليمك بنفسي؟

ـ نوعاً ما!

«نقر لورانس فنجانه بأطراف أصابعه»

ـ سأفعل الأفضل، لساره!

«تسلل الخوف إلى معدتي وأنا أراقب لورانس وهو ينقر بأصابعه. ببشرته البيضاء الهشة كبيضة طائرٍ بحري. يعانق فنجانه بأصابعه الناعمة الطويلة الملتفّة على الفنجان الخزفي البرتقالي وكأنه حيوان صغير على وشك القيام بأمرٍ مغفل إن سنحت له الفرصة بالهرب».

ـ أنت تخيفني، لورانس!

ـ إنها ردة فعل، ليس إلا! هذا ما لم يفعله آندرو! كسجلٍ عالق! فقد تمسك بمبادئه بأسلوبٍ دفعه للقضاء على نفسه وعلى ساره! هذا ما جعله يخسرها!

ـ ما من مبادئ لديكَ أنت أيضاً؟

«عبس لورانس وهو جالس على كرسيه»

ـ مبدأي الأساسي محبتي لساره! لا يمكنكِ تخيل كم تعنيه لي هذه المرأة! بدونها... تصبح حياتي مملةً تماماً! سأفعل ما أستطيع للحفاظ عليها! هل تفهمين؟ أي شيء.

ـ أنت قلق لأنني قد أبعدك عنها! لذلك لا ترغب بوجودي! وليس لأنك حريص على مصلحتها!

ـ أنا قلق لأنها قد تُقدم على عملٍ أخرق كي تساعدك! ربما تشتتين انتباهها! وقد تغيرين مجرى حياتها أكثر مما يلزم!

ـ وهل أنت قلق لأنها قد تنساك تماماً بمجرد أن يتغير مجرى حياتها؟

ـ نعم! بالضبط! فأنتِ لا تتخيلين ما سيحدث لي إن فقدتُها! قد أنهار! أو ربما أصاب بالجنون! عندها ستكون نهايتي! وهذا ما يخيفني كثيراً! حتى لو اعتقدتِ أن ذلك مثيرٌ للشفقة!

«أخذتُ رشفةً من فنجاني، تذوقتُ الشاي بتلذذ»

ـ لا! ليس مثيراً للشفقة! ففي بلادي، كان الموت يطاردنا بوحشية. أما في بلادكم، يبدأ الموت بالهمس في أذنك حتى تدمر نفسك بنفسك! عرفتُ ذلك لأنه كان يهمس في أذني وأنا محتجزة في مركز الاحتجاز،الموت موت وجميعنا نخشاه. الجميع دون استثناء...

«بدأ لورانس يدور فنجانه مراراً وتكراراً»

ـ هل أنت فعلاً هاربة من الموت؟ أقصد، الكثير من الناس يأتون إلينا بهدف التنعم بحياةٍ مريحة!

ـ إن أعادوني إلى نيجيريا، سيلقون القبض عليّ هناك! ولو علموا من أكون وماذا رأيت، عندها سيسعى السياسيون لإيجاد طريقة للتخلص مني! وفي حال كنت

محظوظة، قد يزجونني في السجن! فكل من شاهد ما فعلته شركات النفط في بلادي، يتم سجنه لفترةٍ طويلة! أشياء فظيعة تحدث داخل السجون في نيجيريا! وإن استطاع أحدهم الخروج منها. صدقني! سيخرج فاقداً عقله تماماً...

«أومأ لورانس»

ـ ما تخشينه سيحدث لك في النهاية! إن ساعدتك ساره أم لا! فهذه ليست بلادك! سيأتون للبحث عنك! أعدك بذلك! سيحضرون في النهاية! صدقيني!

ـ يمكنك إخفائي!

ـ نعم! بالتأكيد! كما فعلوا مع آن فرانك، في العليّة! كم ساعدها ذلك!

ـ من تكون، آن فرانك؟.

ـ مجرد فتاة لا تعني لي شيئاً!

«تملكني غضب ينفجر في داخلي، لدرجة شعرت بألم شديد في مقلتيّ، ضربت الطاولة بعنف، فارتعد لورانس من شدة المفاجئة...»

ـ ستكرهك ساره إن بلغت الشرطة بمكان وجودي!

ـ لن تعرف ساره بذلك! فأنا أعلم كيف يتصرفون مسؤولوا الهجرة! سيأتون لأخذك في الليل! لن يكون لديك الوقت لإخبار ساره! لن يكون لديك متسع من الوقت للكلام!

ـ سأجد طريقة أخبرها بها بكل ما تنوي فعله! وسأجد طريقة أتواصل بها مع زوجتك لأخبرها عن أسرارك! سأدمر حياتك، لورانس! سأدمر حياتك الأسرية و السرّية أيضاً!

«حدق لورانس في وجهي مندهشاً، وبدأ يتمشى في المطبخ ماسحاً شعره براحة يده»

ـ بالطبع! أعتقد أنك قادرة على ذلك!

ـ بالتأكيد! أرجو ألا تظن بأنني سأغفر لك، لورانس! سأسعى إلى إيذائك يا عزيزي!

«نظر لورانس إلى الحديقة الخارجية»

ـ أووووووووووووووا! هذا مضحك! كنت مستيقظاً طوال الليل، وأنا أفكر بما سأفعله بك! فكرتُ بمصلحة ساره! ومصلحتي طبعاً! في الحقيقة لم أحسب

حساباً لتهديدك هذا! كان عليّ فعل ذلك! كنت أفترض أنك من المسالم لا الثائر! عندما أخبرتني ساره عنك! تخيلتُ فتاة مختلفة عمن تجلس أمامي الآن!

ـ قضيت مدة عامين وأنا محتجزة في هذه البلاد! تعلمتُ خلالها لغتكم وقوانينكم! أنا أشبهك الآن، لورانس، أكثر مما أشبه نفسي!

ـ «ضحك لورانس مستهزئاً» لا! لا أظنكِ تشبهينني أبداً!

«جلس لورانس أمام طاولة المطبخ مرة أخرى، واضعاً رأسه بين يديه»

ـ اسمعي! إني مجرد حثالة! أنا رجل فاشل! لقد نلتي مني أيتها اللاجئة! لن تخبري ليندا... أليس كذلك؟

«لحظتُ تعب في عينيه . . . تنهدتُ وجلستُ أمامه . . .»

ـ قد نصبح أصدقاء، لورانس!

ـ «ضحك»، اعترفت لك للتو بأنني سأقضي عليك، في حال استطعت ذلك! والآن أنت اللاجئة الصغيرة الشجاعة! وأنا الرجل النذل الأناني! أظن أن أدوارنا ترتسم بوضوح كامل الآن!

ـ وأنا أنانية أيضاً، لورانس! لا تنسى ذلك!

ـ لا! أنت لست كذلك!

ـ هل تعتقد بأنني مجرد فتاة صغيرة لطيفة؟ وفي عقلك، ربما لاتزال تعتبرني غير موجودة! يبدو أنك لا تصدق بأنني قد أكون ذكية كأي شخصٍ أبيض! وبالتالي لن تصدق بأنني قد أكون أنانية كأي شخصٍ أبيض أيضاً!

«كنتُ أصرخ من شدة الغضب...ولورانس يضحك عليّ . . .»

ـ أنانية؟ أنتِ!؟ من يأخذ آخر قطعة بسكويت من العلبة؟ ومن يستعمل آخر قطرة من معجون أسنان ساره؟

ـ كنتُ السبب في موت زوجها!

ـ «حدقَ في وجهي»، ماذا؟

«شربت الشاي الذي أصبح بارداً الآن، ووضعت الفنجان على الطاولة. يبدو أن ضوء المطبخ أصبح بارداً أيضاً، لاحظت التوهج يتلاشى عن كل الأدوات في المطبخ. وبدأ

البرد ينخر عظامي... يبدو أن موجة الغضب قد خرجت كلها من أعماقي...»

ـ لورانس؟

ـ نعم؟

ـ ربما من الأفضل لي أن أذهب إلى مكانٍ آخر!

ـ لحظة! توقفي! ماذا قلتِ للتو؟

ـ ربما تكون على حق! من الأفضل لساره وتشارلي ولك أن أغادر هذا المكان! بإمكاني الهرب بعيداً! أنا جيدة في الهروب، لورانس!»

ـ «بهدوء» اصمتي.... «ثم أمسك معصمي بقبضته»

ـ توقف! أنتَ تؤلمني!

ـ إذاً أخبريني بما اقترفته؟

ـ لا أود إخبارك! إنني خائفة الآن!

ـ وأنا أيضاً! تكلمي!

«تمسكتُ بحافة الطاولة، وأنا أتنفس بصعوبة من شدة الخوف»

ـ قالت ساره أنه كان من الغريب جداً وصولي إلى هنا يوم جنازة آندرو!

ـ وماذا بعد؟

ـ لم يكن ذلك صدفةً . . .

«أفلت معصمي، ووضع يديه خلف رقبته، ثم توجه نحو النافذة وأطال النظر للخارج، ثم عاد والتفت إليّ وهمس سائلاً»

ـ ما الذي حدث؟

ـ لا أعتقد أن من واجبي أن أخبرك! ما كان عليّ أن أبوح بشيء! لقد كنت غاضبة!

ـ أخبريني!

نظرتُ إلى يدي من الخلف! وأدركت أنني أود البوح بهذا السر لأحدٍ ما! وكنت أعلم بأنني لن أبوح به لساره! نظرتُ إلى لورانس . . .»

ـ اتصلتُ بآندرو صباح ذلك اليوم، حين خرجت من مركز احتجاز المهاجرين! وأخبرته بأنني قادمة!

ـ هل هذا كل شيء؟

ـ خرجت من مركز الاحتجاز لأصل إلى هنا، سيراً على الأقدام! فقد وصلتُ خلال يومين! واختبأتُ في الحديقة! انظر من النافذة لورانس! هناك...خلف تلك الشجيرة حيث تجلس القطة!. انتظرتُ لفترةٍ! لم أعرف ماذا أفعل! ربما كنت أريد أن أشكر ساره لأنها أنقذت حياتي! لكنني أردت معاقبة آندرو لأنه تسبب في مقتل شقيقتي! ولم أعرف كيف أنفذ هذان الأمران! لذلك انتظرت ليومين كاملين! شعرتُ حينها بجوعٍ شديد! فخرجتُ من مخبئي وأكلتُ بذور الطيور، وشربت الماء من الصنبور الموجود في الحديقة! عندما حل الصباح، كنت أراقب المنزل من النوافذ! وعندما خرج آندرو وساره إلى الحديقة! كنت أستمع للطريقة التي يتكلم بها آندرو مع ساره وتشارلي! كان أسلوبه فظيعاً! فقد كان غاضباً طوال الوقت! لم يكن يلعب مع تشارلي! وعندما تكلمه ساره، كان يصرخ معنفاً إياها! حتى عندما يكون وحده، لا يتوقف عن الصراخ، فقد كنت أراه يقف في أخر الحديقة ويكلم نفسه! بل أنه كان يصرخ معنفاً نفسه أحياناً، يضرب رأسه بقبضة يده! يبكي كثيراً! رأيته يجثو على ركبتيه ويبكي لساعةٍ كاملة! عندها اعتقدتُ أن الأرواح الشريرة تسيطر عليه! كان يعاني من الاكتئاب، مما كان يزيد من صعوبة الأمر على ساره، وعليه أيضاً! كنت أراقبه لفتراتٍ طويلة! ذات مرة وبينما كنت أراقبه وهو يبكي، نسيتُ أن أختبئ جيداً، حينها رفع آندرو رأسه ورآني. فقلت في نفسي، أووووا! لا! والآن أيتها النحلة الصغيرة! لكنه لم يتقدم نحوي! بل حدق في وجهي باندهاش وقال، أووا! يا إلهي! هذا ليس أنت! أليس كذلك؟ أنت لست هنا! اخرجي من رأسي! هذا ليس حقيقي! لا أصدق! ثم أغمض عينيه وفركهما بقوة . . . وبينما كان يفعل ذلك . . . عدتُ إلى مخبأي خلف الشجرة. وعندما فتح آندرو عينيه مرة أخرى، نظر إلى المكان حيث كنت واقفة، لكنه لم يجدني هذه المرة، عاد حينها للتكلم مع نفسه . . .

ـ هل اعتقد بأنه يهلوس بك؟ يا للأبله المسكين!

ـ نعم! لكنني لم أحزن لحاله في البداية! في اليوم الثالث، خرج إلى الحديقة مرةً بينما كانت ساره في العمل، وتشارلي في الحضانة! كان ثملاً على ما أظن! لأن

كلماته غير متوازنه حينها!

ـ قد يكون ذلك بتأثير ما كان يتناوله من دواء!

وجه لورانس شديد البياض الآن، ولايزال يحدّق مدهوشاً . . .

ـ تابعي، أرجوك . . .

ـ كان لايزال الوقت مبكراً، بدأ آندرو بالصراخ.

«تعالي . . . تعالي . . . اخرجي . . . لقد رأيتك! ماذا تريدين الآن؟»

لم أتفوه ولا بكلمة واحدة . . .

« أرجوكِ! أعلم بأنكِ مجرد شبح! ماذا أفعل كي تغادري وتتركينا؟»

«عندها، خرجتُ من خلف الشجيرة، فارتعب آندرو عندما خاطبته»

ـ أنا لست شبحاً!

«بدأ يضرب رأسه بيديه وهو يقول»

ـ لا! هذا ليس حقيقي! كله تخيلات! أنت لستِ هنا بالتأكيد!

«أغمض آندرو عينيه وبدأ بهز رأسه بجنون. وبينما كان يفعل ذلك، خرجت أنا من مخبأي واقتربت منه...عندما فتح عينيه ورأى كم كنت قريبةً منه، صرخ وهرع هارباً إلى المنزل. حينها شعرتُ بالأسف عليه، ولحقت به إلى البيت...»

ـ أرجوكَ! اسمع! أنا لست شبحاً! جئت لأنني لا أعرف أحداً غيركم في هذه البلاد!

ـ المسيني! أثبتي أنك لست شبحاً!

«عندها اقتربت منه ووضعت يدي برفقٍ على يده، عندما شعر بلمسة يدي،أغمض عينيه لفترةٍ طويلة، ثم فتحهما مرة أخرى، وصعد السلالم بشكلٍ معاكس، وجهه ناحيتي، كنت ألحق به وهو يقول.»

ـ أخرجي، أخرجي من هنا!.

« ثم هرع مسرعاً إلى غرفة عمله، وأغلق الباب. كنت أصيح من خلف الباب»

ـ لا تخف مني! إني مجرد شخصٍ مثلك!

«لم أسمع أي رد...فخرجتُ من المنزل!»

كان لورانس يرتجف، لاحظتُ تموجات على سطح الشاي في فنجانه . . .

ـ وبعد فترةٍ وجيزة، عدت ودخلت المنزل، كان آندرو يقف على كرسي وسط

الغرفة! ويربط كبلاً كهربائياً بالطوق الخشبي المعلق في السقف، وربط الطرف الآخر من الكبل حول رقبته، بعدها...حدق بي وحدقت به، عندها همس قائلاً:

ـ ما حدث كان منذ وقتٍ طويل! أليس كذلك؟ لما لم تبقي هناك؟

ـ أنا متأسفة! المكان هناك لم يكن آمناً!

ـ أنا متأكد بأنك ميتة! فقد تخلصوا منك هناك! إنكِ في مخيلتي فقط! مجرد تخيلات!

«نظر إليّ لفترةٍ طويلة، كانت عيناه تحمرّ وتتجول في أرجاء الغرفة. عندما اقتربتُ منه، بدأ يصرخ بجنون»

ـ إذا اقتربتي أكثر سأقتل نفسي!

«لذلك توقفت...»

ـ لماذا تفعل ذلك؟

ـ «بهدوء قال» لأنني عرفتُ من أكون!

ـ لكنك شخصٌ طيب يا آندرو! فأنت تهتم بأمور هذا العالم! لقد قرأت مقالاتك في صحيفة التايمز عندما كنت أتعلم الإنكليزية!

ـ ما الكلمات سوى كلامٍ فارغ! أنتِ شاهدتني على حقيقتي حين كنا على الشاطئ! أنا شخص يجيد ترتيب الكلمات! لكنه عاجز عن قطع إصبعٍ واحد في سبيل إنقاذ حياة إنسان!

ـ هذا لا يهم! انظر! أنا هنا الآن! ومازلت على قيد الحياة!

ـ ماذا حدث للفتاة التي كانت معك؟

ـ إنها بخير! لكنها لم تستطع مرافقتي!

«عندها، حدق آندرو في عينيّ جيداً لدرجة، لم أعد قادرة على النظر في عينيه، فحولت نظري إلى الأرض . . .»

ـ إنكِ كاذبة!

«حينها أغمض عينيه، وانزلق عن الكرسي. فأصدر صوتاً عند اختناقه، كالصوت الذي سمعته عندما كانت شقيقتي تحتضر.

«تشبث لورانس بطاولة المطبخ بتوتر»

ـ سحقاً!

حاولتُ مساعدته، لكن وزنه كان ثقيلاً جداً! لم أستطع رفع جسده. حاولت كل ما بوسعي، لكنني شعرتُ بالإرهاق، ثم بدأت بالبكاء. لم أستطع أن أخفف من ثقل الوزن عن الحبل المشدود. وضعت الكرسي تحت قدميه ليقف عليه من جديد، لكنه ركله بعيداً. بعد فترةٍ طويلة، توقف عن الصراع، لكنه بقي حياً. فقد كنت أراقب عينيه تحدقان بي، جسده يدور ببطء، وكلما التقت عينيه بعينيّ، رمقني بنظرةٍ حادّة. كانت عيناه منتفختان وأصبح وجهه بنفسجي اللون. مع ذلك، مازال يحدق بي. فحدثت نفسي.

ــ يجب إنقاذه! يجب أن أنادي أحداً من الجيران! يجب أن أتصل بالإسعاف! نزلتُ للطابق السفلي لطلب المساعدة! لكنني فكرت، إذا طلبت النجدة! ستعرف الشرطة أنني هنا! وإن علموا! سيقومون بترحيلي إلى بلادي! أو أنهم سيفعلون ما هو أسوأ من ذلك! .

هناك أمرٌ لا تعرفه، لورانس، حين أطلقوا سراحنا من مركز احتجاز المهاجرين، قامت إحدى الفتيات اللواتي كنَّ معي، بشنق نفسها أيضاً، عندها هربتُ من ذلك المكان، وبالتأكيد عرفت الشرطة أنني كنت هناك. لقد كنت متواجدة أثناء عمليتيّ انتحار! هل تفهم يا لورانس؟ قد يشتبه بي رجال الشرطة! فربما يتهمونني بكل ما حصل! لذلك، هربتُ من غرفة آندرو وأنا أمسك رأسي بين يديَّ، وأفكر ماذا سأفعل! هل أضحي بحياتي كي أنقذ آندرو؟ فقلت في نفسي: طبعاً عليّ أن أنقذه مهما كلفني الأمر، لأنه إنسان من لحم ودم! لكن عليّ أيضاً أن أنقذ نفسي، لأنني أنا أيضاً إنسان من لحمٍ ودم! بعد أن وقفت لما يقارب الخمسة دقائق، وأنا أفكر بمن يستحق الحياة أكثر! كان قد فات الأوان، قمتُ بإنقاذ نفسي...

توجهت بعدها إلى الثلاجة وأكلت، لأنني كنت أتضور جوعاً، انتهيت وعدتُ إلى مخبأي في الحديقة، خلف الشجيرة، ولم أخرج منه إلى يوم الجنازة!

«كانت يداي ترتجفان، أخذ لورانس نفساً عميقاً، وكانت يداه ترتجفان أيضاً...

ــ يا إلهي! كم هذا خطير...إنه خطير جداً!.

ــ أترى يا لورانس؟ أترى لماذا أرغب بشدة في مساعدة ساره؟ أترى لماذا أريد

مساعدة تشارلي؟ لأنني قمتُ بالخيار الخطأ يا لورانس! لقد تسببتُ في موت آندرو! والآن عليّ فعل كل ما بوسعي كي أصلح الأمور!.

«كان لورانس يحوم حول طاولة المطبخ بتوتر. يتشبث ببرنسه بقوة، ويفتل قماشه بعصبية...توقف فجأةً».

ـ هل ساره على علم بكل هذا؟

ـ لا! أخاف أن أخبرها! فلو فعلت، ستطردني من هنا، ولن أكون قادرة على مساعدتها، وبذلك لن أستطيع التعويض عن كل الأمور السيئة التي قمت بها. وإن لم أفعل ذلك، لا أعرف ما يمكن أن يحدث لي! لا أستطيع الهرب مرةً أخرى! لا أعرف مكاناً آخر! فقد علمتُ من أكون! وهذا لا يشرفني! أنا مثلك لورانس، ومثل آندرو! لقد حاولتُ إنقاذ نفسي! أرجوك، أخبرني! ما الحيلة للخروج من كل ما أنا فيه؟

«حدق لورانس في وجهي»

ـ ما فعلته يسمى جريمة! والآن لم يعد لي خيار آخر، سأتصل بالشرطة!

ـ «بدأتُ بالبكاء» كلا. أرجوك! لا تتصل بالشرطة! سيأخذونني من هنا! وأنا أريد فقط مساعدة ساره! ألا تريد أنت أيضاً مساعدتها؟

ـ أنا أعشق ساره، لا تكوني سخيفة! لا أحتاج لك لمساعدتها! هل ظننتِ أن مجيئك سيساعد ساره؟

ـ أرجوك، أتوسل إليك!

«كانت الدموع تنهمر من عينيَّ ضرب لورانس سطح الطاولة بقبضته»

ـ تباً...

ـ أنا متأسفة، لورانس. أنا حقاً متأسفة!

ضرب لورانس جبينه براحة يده...

ـ أيتها الساقطة! لا يمكنني الذهاب إلى الشرطة! لا أريد لساره أن تعرف كل هذا! فرأسها مليء بالأفكار السلبية بما فيه الكفاية! فلو علمت بأنكِ كنتِ هنا أثناء موت آندرو، ستفقد عقلها بالتأكيد. عندها ستكون نهايتي ونهايتها دون شك! وطبعاً، ستعلم زوجتي لينـدا بالأمر! فالصحف هنا لا تتوقف عن النشر! ولا يمكنني تصور ما سيحدث عندما تعلم ساره بأنني على علمٍ بكل هذا، دوناً

عنها! والشرطة . . . أووواا! تباً! إن لم أخبر الشرطة، سأكون تحت طائلة المسؤولية مثلك تماماً! ماذا لو علموا بطريقةٍ ما أنني على علمٍ بكل شيء؟ فأنا من يعاشر زوجة رجلٍ ميت! وبالتالي لدي دافع! اللعنة عليك! ربما أدخل السجن! إن لم أرفع سماعة الهاتف الآن وأتصل بالشرطة...قد أدخل السجن بسببك يا نحلتي الصغيرة! هل تفهمين ذلك؟ قد أدخل السجن بسببك، مع إنني لا أعرف حتى الآن اسمك الحقيقي!

«طويتُ يديَّ فوق يدي لورانس، ونظرتُ لوجهه، لم أستطيع رؤية ملامحه بوضوح من غزارة الدموع في عينيَّ...»

ـ أرجوك...يجب أن أبقى هنا! يجب أن أعوض عن كل ما فعلته! أرجوك يا لورانس! لن أخبر أحداً عن علاقتك السريّة مع ساره! وعليك ألا تخبر أحداً عن وجودي هنا! أرجوك أنقذني، لورانس! أطلب منك أن تنقذ حياتي!

«حاول لورانس سحب يديه من تحت يديَّ، لكنني تشبثتُ بهما جيداً، واتكأتُ بجبيني على ذراعيه...»

أرجوك، قد نصبح أصدقاء. يمكننا أن نتكاتف . . .

ـ أووواا! يا إلهي! ليتك لم تخبريني بكل ذلك!

ـ أنت من أجبرني، لورانس! أنا متأسفة! أعرف أن ما طلبته صعباً! أعرف أنه حمل ثقيل. عليك أن تخفي الحقيقة عن ساره! أشعر وكأنني أطلب منك قطع إصبعك من أجلي!

«سحب لورانس يديه من تحت يديَّ بعنف، ثم ابتعد عني تماماً. جلستُ على الطاولة مغمضة العينين. كان الجو هادئاً في المطبخ...انتظرتُ ولم أعرف كم من الوقت قد مضى وأنا منتظرة...انتظرتُ لتجف دموعي وأتخلص من الذعر في أعماقي . . . لم يبقَ سوى البؤس الثقيل الذي سرّب الألم إلى رأسي ومقلتاي. لم أكن أفكر بشيء، كنت فقط أنتظر...»

وفجأةً! وضع لورانس راحتي يده على وجنتيَّ. ارتبكت ولم أعرف إن كان عليّ أن أبعد يديه أو أضع يديَّ على وجنتيه أيضاً. بقينا هكذا لبعض الوقت، شعرتُ بيديه ترتجفان، ثم دار وجهه ليصبح مقابل وجهي تماماً، حدقتُ في عينيه.

ـ كم أتمنى أن أخفيك عن وجه الأرض! لكنني نكرة! فأنا مجرد موظف مدني! لن أخبر الشرطة عنك! طبعاً هذا إن لزمتِ الصمت! لكن لو نطقتِ بكلمة واحدة عن علاقتي مع ساره، أو عما حدث لك مع آندرو...عندها، أقسم لك بأنني سأسعى لترحيلك إلى نيجيريا، حتى لو كان ذلك آخر ما أفعله قبل أن تنهار حياتي بالكامل!

«تنفستُ بعمق»

ـ . . . أفهم ذلك، لورانس!

«سمعنا صوت ساره وهي تنزل من الطابق العلوي»

ـ من سمح لك بمشاهدة التلفاز يا بات مان؟

«أبعد لورانس يديه عن وجهي، وبدأ يحضّر المزيد من الشاي. دخلت ساره إلى المطبخ وهي تتثاءب. ونور الشمس يزعج عينيها. وتشارلي يمسك بيدها».

ـ نسيت إخباركما عن قواعد هذا المنزل، وبما أنكما جديدان هنا، عليكما أن تعلما أنه لا يسمح للأبطال الخارقين، وخصوصاً « فرسان الظلام» بمشاهدة التلفاز قبل تناول طعام الفطور! هل هذا صحيح يا بات مان؟

«ابتسم تشارلي لها وأومأ برأسه . . .»

ممتاز! هل نأكل خبز الخفافيش أم رقائق الخفافيش يا تشارلي؟

ـ خبز الخفافيش!

«توجهت ساره إلى المحمصة الكهربائية، ووضعت بداخلها شريحتان من الخبز، كنا أنا ولورانس نراقبها، فالتفتت إلينا...»

ـ هل كل شيءٍ على ما يرام هنا؟ ما الخطب؟ هل كنت تبكين؟

ـ لا! لا شيء! أنا معتادة على البكاء قليلاً في الصباح!

«عبست ساره في وجه لورانس»

ـ هل اعتنيت بها؟

ـ طبعاً! فأنا والنحلة الصغيرة على وشك أن نصبح أصدقاء!

ـ جيد! لأنه علينا جميعاً أن نتكاتف كما تعرفان! أليس كذلك؟

«نظرت ساره لكلينا، ومطت ذراعيها وهي تتثاءب»

ـ بداية جديدة....

«نظرنا أنا ولورانس إلى بعضنا»

والآن، سأصطحب تشارلي إلى الحضانة، وبعدها سنبدأ بتعقب أوراق النحلة الصغيرة، سنبحث لك عن محامٍ أولاً. أعرف محامياً جيداً كنا نستدعيه إلى المجلة

«ابتسمت ساره لي، ثم توجهت إلى لورانس . . .»

أما أنت...سأخصص لك وقتاً لأشكرك فيه على مجيئك. قاطعاً كل تلك المسافة إلى بيرمينغهام!

«احتوت ساره وجه لورانس بيديها، لكنها تذكرت وجود تشارلي في المطبخ، فأبعدت يديها بسرعة ووضعتهما على كتفيه...»

ذهبتُ أنا إلى غرفة الجلوس كي أشاهد نشرة الأخبار بدون صوت... كانت المذيعة تشبه شقيقتي نكيروكا كثيراً. . . كان قلبي يفيض بكثير من الأمور التي أرغب بقولها للمذيعة . . . لكن للأسف! في إنكلترا، لا يمكن التحدث مع مذيعة الأخبار كما كنا نفعل في قريتي.

الفصل الثامن

تذكرتُ يوم أصبحتُ فيه جزءاً لا يتجزأ من إنكلترا، عندما بدأت معالمها تلتصق بمنحنيات جسدي، عندما أصبحت ميولنا مشتركة. كنت حينها في الثامنة من عمري. حيث كنت أركب دراجتي بين الأزقة الضيقة، مرتديةً ثوبي القطني ليتطاير عبر حقول الخشخاش الدافئة، أمضي بحريّة لأسفل المنحدر، وأدخل الغابة المكسوة بالشجر والنباتات البريّة. . . لأرقب جدول الماء يتدفق بحنان تحت الجسر القرميدي.

توقفتُ، فأصدرت المكابح صوت صرير من السرعة المفرطة في قيادة الدراجة كي أستغل ضيق الوقت. كنت ألقي بدراجتي فوق كومةٍ من البقدونس والنعنع البرّي، وأغطس في مياه الجدول الباردة وأنفض الطين العالق بصندلي وعند مجرى النهر، كانت الأسماك تندفع بعيداً حيث الظل والظلمة تحت الجسر. أنقع وجهي في الماء العذب وأشربه بتلذذ.

ذات مرة...راقبتُ ثعلباً يجفف فروه في الضفة الأخرى من النهر.كان يبادلني النظر من خلال كومةٍ من الشعير، أمعنت النظر به، كان يحدق بي بعينين بلون الكهرمان، في تلك اللحظة وفي هذه البلاد، أدركتُ بأن تلك الفتاة هي أنا، ثم وجدتُ بقعةً نائية من العشب البرّي والنباتات العنبريّة بجانب حقل الشعير، فاستلقيتُ عليها، شممتُ رائحة جذور العشب الترابية والرطبة. واستمعتُ لأصوات أزيز ذباب الصيف، وفجأةً بدأتُ أبكي دون سبب.

في ذلك الصباح، اصطحبتُ تشارلي إلى الحضانة، وعدتُ إلى المنزل لأفكر بالطريقة التي سأساعد بها النحلة الصغيرة. عندما دخلت، وجدتها تتابع نشرة الأخبار دون أن ترفع صوت التلفاز، بدى وجهها حزيناً للغاية.

ـ ما المشكلة؟

«لم ترد على سؤالي . . .»

هل هناك مشكلة بينك ولورانس؟

«أبعدت نظرها عني . . .»

إذاً! ما المشكلة؟

ـ لا شيء!

ـ ربما تشتاقين إلى وطنك! أنا لا ألومك! أخبريني، هل هذا صحيح؟

«التفتت ونظرت إلي، كانت عيناها وقورتان...»

ـ ساره؟ أعتقد أنني لم أغادر بلادي! يبدو أنها قَدِمَت معي!

«التفتت النحلة الصغيرة إلى شاشة التلفاز ثانيةً، . . . حدثتُ نفسي، لا بأس! سيكون لدي الكثير من الوقت كي أعتاد عليها».

قمت بترتيب المطبخ بينما كان لورانس يستحم، ثم حضّرتُ لنفسي فنجاناً من القهوة، وأدركتُ للمرة الأولى منذ وفاة آندرو بأنني أخذتُ فنجاناً واحداً فقط من الخزانة بدلاً من اثنين، حرّكتُ الحليب،كان صوت الملعقة يبدد الصمت... بدأتُ أفقد إحساس أنني كنت زوجة لآندرو. . . يا للعجب! فكرتُ للحظة... ثم ابتسمت، شعرتُ بأنني استعدتُ قوتي كي أعود إلى عملي في المجلة.

عادةً، يكون قطار الركاب مزدحماً بالأشخاص وحواسبهم المحمولة، لكن اليوم، رغم أن الساعة تجاوزت العاشرة والنصف صباحاً، كان القطار شبه فارغ. يجلس أمامي فتىً يحدق في سقف القطار، بقميص إنكليزي وجينز أزرق مبيض من غبار الجص. لاحظتُ وشماً على ذراعه مرسوماً بالأحرف القوطيّة، «هذا وقت الأبطال». حدقتُ بتمعن لأتستشف الكبرياء في ذلك الوشم والأخطاء القواعدية في كتابته. عندما انتهيت ورفعتُ رأسي، رأيتُ الفتى ينظر إليّ بعينيه الهادئتين بلون الكهرمان،

فخجلت منه وأدرتُ نظري نحو النافذة، حيث الحدائق الخلفية للمنازل.
فرمل القطار عندما اقتربنا من واترلو، شعرتُ وكأنني بين عالمين منفصلين. أصدرت الفرامل صوتاً حاداً في العجلات المعدنية للقطار، وفجأةً شعرتُ مرةً أخرى بأنني في الثامنة من عمري. ها أنا ذا أعود إلى مجلتي برباطة جأش، قريباً سأصل لآخر محطةٍ، وسأثبت للجميع أنني سأنزل من هذه الحافلة وأعود إلى عملي كامرأةٍ راشدة.
عندما توقف القطار، التفتُ لأقول شيئاً للفتى، لكني لم أراه. . . يبدو أنه رحل واختفى عبر حقل الشعير محتمياً تحت ظلال الغابات.

صعدتُ إلى طابق فريق التحرير عند الساعة الحادية عشرة والنصف. عندما دخلت، خيم هدوء على المكان، حدقنَّ الفتيات بي باستغراب، ابتسمتُ وصفقتُ بيديّ. «هيا...الجميع إلى العمل! بسرعة! لو فقدت مئة ألف امرأة عاملة من محطة، **إي بي سي** الأولى، تركيزها، عندها سنكون فاشلات، لكن هذا لن يحدث طبعاً»
في عمق الغرفة، كانت كلاريسا تجلس وراء طاولة مكتبي. عندما رأتني وقفت وتقدمت نحوي. كانت تضع ملمع شفاه بلون الخوخ. . . أمسكت بيدي.
ـ أووواا، ساره! أيتها المسكينة! كيف كان وقع الخبر، كيف تعاملتِ مع الأمر؟
«كانت كلاريسا ترتدي قميصاً باذنجاني اللون وحزام أسود ناعم،مزخرف كحراشف السمك، وحذاء أسود ناعم يصل إلى الركبة، لاحظتُ أنني كنت أرتدي الجينز ذاته الذي ارتديته عندما اصطحبت بات مان إلى الحضانة».
ـ أنا بخير!
«نظرت كلاريسا نحوي باستغراب، وقطبت جبينها...»
ـ هل حقاً أنت بخير؟
ـ حقاً!
ـ حسناً. . . ممتاز!
«ألقيتُ نظرةً على مكتبي، كانت كلاريسا تضع حاسبها المحمول في مركز الطاولة، بجانب حقيبتها. وأوراقي مركونة في آخر الطاولة».
ـ لم نتوقع أنك ستحضرين الآن! أنت لا تمانعين جلوسي على عرشك! أليس كذلك؟

«كانت كلاريسا تشحن جهازها البلاك بيري بشاحني»

ـ لا بالطبع... لا أمانع!

ـ اعتقدنا أنك ستكونين سعيدة لأننا بدأنا نحضّر لإصدار شهر تموز.

«كان الجميع في المكتب يراقبنا باهتمام. فابتسمت . . .»

ـ جيد! هذا عظيم! ما الذي قمتن به إلى الآن؟

ـ أتقصدين بما يخص هذا الإصدار؟ لما لا ترتاحين أولاً ؟ سأحضر لك بعض القهوة! ربما لا زلت تشعرين بالتعب!

ـ توفي زوجي، كلاريسا! لكنني ما زلتُ حيّة! ولدي طفل عليّ الاعتناء به، ورهن عقاري، أدفع أجوره! ما أحتاجه، هو العودة للعمل كما في السابق فقط!

«تراجعت كلاريسا خطوةً للوراء . . .»

ـ هذا جيد! لدينا الكثير من الموضوعات المهمة. بما أن إصدار هذا الشهر يتعلق ب « هينلي» طبعاً، فقد اخترعنا موضوعاً ساخراً بعنوان « ماذا عليّ ألا أرتدي» من أجل سباق الزوارق، كذريعة ماكرة بهدف التقاط الصور الفوتوغرافية لبعض المجدفين الوسيمين. أما بالنسبة لصفحة الأزياء فقد خطر ببالنا عنوان « إغراء العشيق» حيث سنعرض صوراً لفتيات يضربن الرجال بالسياط وهن يلبسن الفساتين البنية! وفيما يخص صفحة « أحداث الحياة اليومية»لدينا خيارين، إما أن ننشر هذا النموذج بعنوان « الجمال والميزانية» والذي يتحدث عن امرأة وابنتيها القبيحتين، حيث تستطيع الأم أن تغطي مصاريف الجراحة التجميلية لواحدة منهن فقط، شيءٌ مقزز، أعرف ذلك! أو سيكون أمامنا الخيار الآخر والذي أميل لتفضيله طبعاً، بعنوان « اهتزازات فعالة»...صدقيني يا ساره، هذا الموضوع لافتٌ للانتباه...أووو يا إلهي! يمكنك بهذا العنوان شراء بعض الألعاب الجنسية المُرضية للغرائز على الإنترنت، لم أكن أتصور أنه موجود! فليرحمنا الرب جميعاً!

«أغمضتُ عينيَّ واستمعتُ لصوت دندنة مصابيح الفلورسنت، وطنين جهاز الفاكس، وثرثرة فتيات قسم التحرير وهن يتكلمن مع دور الأزياء على الهاتف. فجأة... بدى كل شيءٍ جنونياً، كمن يذهب إلى حرب أفريقية مرتدياً بكيني ضيق

أخـضر اللون. تنفسـتُ بهـدوء، وفتحـتُ عينيَّ».

والآن... أيهما تفضلين، ساره؟ لغز مستحضرات التجميل؟ أم الوفرة الجسديّة؟

«توجهتُ إلى النافذة، وبدأتُ بدحرجة جبيني فوق زجاجها البارد . . .»

أرجوك، لا تفعلي ذلك يا ساره، أصاب بالتوتر عندما أراك تفعلين ذلك!

ـ أنا أفكر فقط . . .

ـ أعـرف يـا عزيـزتي! وهذا بالضبط سـبب توتـري! لأنني أعلـم بمـاذا تفكرين! هذا مـا نتجـادل فيه كل شـهر! لكـن تذكري أنه علينـا أن ننشر الموضوعـات التي تجذب اهتـمام القـرّاء! تعلمـين ذلك عـلى ما أظن!

ـ يظن تشارلي أنه سيفقد كل قوته إذا خلع زي بات مان!

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أننا نصاب أحياناً ببعض الغرور...وقد تكون معتقداتنا خاطئة في بعض الأحيان!

ـ هل تعتقدين بأنني مخطئة؟

ـ لا أعرف بماذا تفكرين بما يخص المجلة يا كلاريسا! ما أعنيه هو أن كل الأشياء تبدو زائفةً فجأةً!

ـ طبعاً يا عزيزتي المسكينة ساره! لا أعرف حتى كيف استطعتِ القدوم إلى العمل اليوم! عليكِ أن تتعافي من الصدمة أولاً!

ـ هذا ما قاله لورانس أيضاً!

ـ كان عليك أن تُنصتي إليه!

ـ أعلم ذلك! أنا محظوظة بأنه معي! لولاه، لم أعلم ما كان سيحدث لي!

«اقتربت كلاريسا ووقفت بجانبي عند النافذة . . .»

ـ أكنتِ ترافقينه كثيراً منذ وفاة آندرو؟

ـ إنه في منزلي الآن! جاء ليلة أمس!

ـ هل قضى الليلة عندك؟ فهو متزوج حسب علمي!

ـ لا تفكري بهذه الطريقة! إنه متزوج من قبل وفاة آندرو!

ـ أعلم ذلك! لكن الوضع حالياً مخيفٌ قليلاً... أقصد، متسرعاً بعض الشيء!

ـ على كلٍ... لم تكن تلك فكرتي!

ـ أظن أنني سأتراجع عن كلمة «مخيف»!

«ارتكت كلاريسا هي أيضاً بجبينها على زجاج النافذة البارد.. لنلقي أنا وهيَ نظرةً على حركة المرور!»

ـ في الحقيقة، جئت كي أتحدث عن العمل!

ـ جيد!

ـ أرغب أن نعود كالسابق، عندما كنا نكتب المقالات التي ساهمت في شهرتنا. دعينا ولو لمرةٍ واحدة، نكتب مقالةً خاصة عن أحداث واقعية! هذا كل ما أريده! لن أسمح لكِ بمنعي هذه المرة!

ـ مقالة خاصة؟ عن ماذا؟

ـ أريد كتابة مقالةٍ عن اللاجئين القادمين إلى المملكة المتحدة! لا تقلقي...سنكتبها بإسلوبٍ يُناسب المجلات! ربما ستكون عن النساء اللاجئات لو أحببتِ!

ـ أستشف من نبرة صوتك أنكِ لن تكتبي، عن النساء اللاجئات اللواتي تعبثن بالألعاب الجنسية!

«ابتسمتُ لها . . .»

ـ ماذا لو لم أوافق على ذلك يا ساره؟

ـ لا أعرف! ربما سأطردك عندها!

«فكرت كلاريسا لبعض الوقت . . .»

ـ النساء اللاجئات؟ ألأنك مازلت غاضبة لأننا لم نعر اهتماماً لقضية تلك المرأة العراقية في إصدار شهر حزيران؟

ـ أعتقد أن هذا الموضوع لن يضيع سدىً...سواء في أيار أو حزيران،أو في أي وقت لاحق!

ـ ممتاز! هل ستطردينني حقاً يا عزيزتي؟

ـ لا أدري! هل ستوافقين على هذه المقالة؟

ـ لا أدري!

«وقفنا لفترةٍ طويلة ونحن ننظر من النافذة، هناك في أسفل الشارع، ولدٌ إيطالي يقود دراجته وسط حركة المرور، يبدو أنه في منتصف العشرينات، عاري الصدر ومسمرّاً من شدة الحرارة في الخارج، يرتدي سروالاً أبيضاً قصيراً من النايلون».

ـ خمسة يا ساره!

ـ خمسة من عشرة؟

ـ لا...خمسة من خمسة يا عزيزتي!

«ضحكتُ لها . . .»

ـ قد يأتي اليوم الذي نتبادل فيه حياتنا بكل رحابة صدر! ما رأيك، كلاريسا؟

«التفتت كلاريسا نحوي، لاحظتُ أثراً لكريم البشرة قد التصق بزجاج النافذة بعد أن أبتعدت بجبينها عنه. كانت بقايا الكريم البيضاء تحلق كسحابة خفيفة فوق برج كنيسة سبيتالفيلدز الواضحة من بعيد».

ـ أووووا، ساره! سنتراجع كثيراً إن خذلنا بعضنا البعض! إنك المديرة طبعاً! وبالتالي سأساعدك على تحضير مقالٍ خاصٍ باللاجئات إن كنتِ حقاً ترغبين بذلك! لكنك ستلاحظين عدم اهتمام الناس بموضوعٍ كهذا! قضية كهذه لا تؤثر في حياة أحد! تلك هي المشكلة!

«شعرتُ ببعض الدوار، وتراجعتُ خطوةً للوراء . . .»

ـ عليكِ فقط الحصول على وجهة نظر . . .

«حدقت كلاريسا في وجهي»

ـ إنكِ مشوشة، ساره! طريقة تفكيرك غير سليمة! أنت غير مستعدة للعودة إلى العمل بعد!

ـ هل تريدين منصبي يا كلاريسا؟

ـ ماذا قلتِ ...؟

«جلستُ على حافة المكتب ودلكتُ صدغي بإبهامي . . .»

ـ لا. لم أقل شيئاً! يا إلهي! أنا أسفة! على أية حال...ربما عليكِ أخذُ وظيفتي! فأنا أفقد السيطرة! لم يعد لدي هدف كي أستمر بها!

ـ لا أسعى لاحتلال وظيفتك، ساره!

«أشارت كلاريسا بأظافرها الطويلة إلى قسم التحرير . . .»

لكن هناك الكثيرون ممن يتوق لاحتلالها، ساره! يمكنك تسليم أحدهم هذه الوظيفة!

ـ هل تعتقدين بأنهم يستحقونها؟

ـ هل كنا نستحقها عندما كنا في مثل سنهم؟

ـ لا أدري! كل ما أذكره هو أنني كنت بحاجة ماسةٍ إليها! ألم يكن ذلك مثيراً؟ في ذلك الوقت...ظننتُ بأنني سأحتل العالم عندما أنشرُ قصصاً واقعية مثيرة! كنت مفعمة بالتحدي...أتذكرين؟ هل تذكرين يا كلاريسا لماذا اخترنا « نيكسي» ليكون اسم لمجلتنا؟ لم نكن نسمح لأحدٍ بتعليمنا كيف ندير المجلة! كنا نحن من يعلم الناس . . . أتذكرين؟ ماذا كان ينقصنا؟

ـ ما كان ينقصنا يا ساره...هو أننا لم نحقق إلا القليل مما كنا نسعى إليه!

«ابتسمتُ وجلستُ على مكتبي، تصفحتُ صفحات السخرية على شاشة جهاز كلاريسا . . .»

ـ في الحقيقة...هذه الصفحات جيدة جداً!

ـ طبعاً جيدة يا عزيزتي...فقد كنت أنشر ما يشبه هذا شهرياً، لمدة عشر سنوات ...الجراحة التجميلية وألعاب الجنس...يمكنني تحضير هذه الموضوعات وأنا مغمضة العينين.

«استرحتُ على الكرسي وأغمضتُ عينيَّ أرخت كلاريسا يدها على كتفي . . .»

ـ أتريدين الحقيقة يا ساره؟

ـ امممم؟

ـ أرجوكِ...فكري جيداً بالمقالة الخاصة باللاجئات...أقصد، أنت في حالة سيئة الآن! لم لا تأخذين إجازة غداً؟ لتتأكدي من أنك تريدين موضوعاً كهذا! وعندما تتأكدين، سأساعدك على القيام بذلك! لكن إن لم تكوني متأكدة، لا داعي لأن نضيع وقتنا سدىً! أليس كذلك؟

ـ حسناً! سآخذ إجازة!

«شعرت كلاريسا ببعض الراحة»

ـ شكراً يا حلوتي، لأن ما نفعله ليس سيئاً...فالجميع يشعر بالنشوة عندما نكتب عن الموضة!

«ألقيتُ نظرةً على طابق التحرير، فرأيتُ الفتيات يحدقن بي بتأمل وتحمس وجشع...»

استقليتُ قطار شبهُ فارغٍ مرةً أخرى في طريق عودتي إلى كينغستون، وصلتُ في الساعة الثانية بعد الظهر...كان الطقس حار وغائم، إضافة لسكون وتعب اليوم. قد ينفعنا بعض المطر.

عندما وصلت...كان لورانس يجلس في المطبخ. وضعتُ الغلاية على الغاز. . .

ـ أين النحلة الصغيرة؟

ـ في الحديقة . . .

«نظرتُ إلى الخارج، فرأيتها مستلقيةً على العشب في آخر الحديقة بجانب شجيرة الغار».

ـ هل تبدو لك بحالة جيدة؟

«لم يعر لورانس اهتماماً لسؤالي . . .»

ما الأمر؟ أما زلتما غير متفقين؟

ـ لا...لا شيء!

ـ رغم ذلك أشعر بوجود بعض التوتر بينكما!

«كنتُ ألعب بأحد أكياس الشاي إلى أن انفتح بقوة، فاضطررتُ لتفريغ الفنجان في الحوض، ثم بدأتُ من جديد. وقف لورانس ورائي وأحاط خصري بذراعيه»

ـ يبدو أنك أنت هي المتوترة! هل كان نهارك متعباً؟

«أسندتُ رأسي على كتفه وتنهدت . . .»

ـ كان النهار شنيعاً! بالكاد تحملتُ أول أربعين دقيقة فقط! ربما يجب أن أتقاعد!

ـ كنت أعرف هذا!

«نظرتُ من النافذة إلى النحلة الصغيرة مستلقية على ظهرها، تحدق في السماء الغائمة.

ـ هل تذكر عندما كنا في مثل سنها؟ هل تذكر عندما كنا في مثل سن تشارلي؟ ألم تكن تسعى لجعل هذا العالم أفضل مما يبدو؟

ـ إنك تسألين الشخص الخطأ يا ساره! فأنا أعمل لدى الحكومة المركزية كما تعلمين! والقيام بالأفضل،خطأ تدربنا على تجنبه!

ـ كفى يا لورانس . . . أنا لا أمزح!

ـ تريدين أن تعرفي إن فكرتُ مرةً واحدة في حياتي بتغيير هذا العالم؟

ـ أجل . . .

ـ ربما قليلاً...كان ذلك عندما انضممت إلى الخدمة المدنية! أظن أنني كنت مثالياً نوعاً ما!

ـ ومتى تغيرت؟

ـ تغيرتُ عندما أدركتُ أننا لن نستطيع تغيير العالم! خاصةً إذا انطوى ذلك على تنفيذ أي نظام حاسوبي...كان ذلك في اليوم الأول، عند وقت الغداء.

«ابتسمتُ وهمستُ في أذنه»

ـ أما بالنسبة لي . . . فقد غيرتَ عالمي!

ـ أجل . . . بالتأكيد . . . أظن أنني فعلتُ ذلك!

«سمعنا صوت مكعب الثلج وهو يسقط من الآلة...ثم نظرنا إلى النحلة الصغيرة في الخارج . . .»

ـ أنظر إليها، لورانس، أشعر بالخوف، هل تظن أن بإمكاني مساعدتها؟

ـ ربما تستطيعين! لا تسيئي فهمي ولكن ماذا بعد ذلك؟ ساعديها وستجدين المئات مثلها تقفن في الدور، خلية كاملة من النحل ستأتي إلى هنا لتقتات.

ـ أو للتلقيح . . .

ـ إنه تفكير ساذج . . .

ـ اعتقد أن زميلتي في العمل توافقك الرأي!

«بدأ لورانس بتدليك كتفي، استرخيت وأغمضتُ عيني...»

ـ ما الذي يخيفك؟

ـ يبدو أنني سأستعين بالمجلة لأحدث فرقاً! هذا بالضبط ما كنا نتصوره! يجب أن يكون لدينا أحد ما ليحدث الفرق! و لا يجب أن تكون المجلة مجرد وسيلة لعرض الأزياء!

ـ إذاً ما الذي يمنعك؟

ـ كل مرةٍ ننشر فيها أمراً حساساً وهادفاً. . . نجد ضعفاً في الترويج!

ـ هذا طبيعي! فحياة الناس صعبة بما فيه الكفاية! ولا يحتاجون لمن يذكرهم بأن هناك الكثير ممن يعيشون حياةً بائسة!

ـ أظن ذلك! ربما آندرو كان محقاً! عليّ أن أنضج وأحصل على وظيفة تناسب الراشدين!

ـ أو ربما تسترخي لبعض الوقت وتستمتعي بوظيفتك!

«ألقيتُ نظرةً على الحديقة، تلبدت السماء بالغيوم أكثر الآن، يبدو أنها على وشك أن تمطر...»

ـ لقد غيرتني النحلة الصغيرة، لورانس! عندما أنظر إليها، أتذكر كم هي ضحلة الحياة التي أعيشها!

ـ ساره؟ ما هذا الهراء الذي تقولينه؟إننا نشاهد مشاكل العالم يومياً على شاشة التلفاز! لا تقولي أنك لم تشاهدي مصائب الناس من قبل؟ ولو استطاعوا تبديل حياتهم بحياتك، لما تقاعسوا عن فعل ذلك! صحيح أن حياتهم تعيسة، لكن جعل حياتك أنتِ تعيسة أيضاً لن يساعدهم...صدقيني!

ـ لكنني لا أساعد أحداً الآن... ألا ترى؟

ـ فعلتي أكثر من ذلك يا ساره، لقد قطعتِ إصبعك كي تُنقذي حياة تلك الفتاة، كما أنك تؤينها عندك الآن وتقدمين لها الطعام والسكن ومحامي أيضاً! ما تفعلينه ليس سهلاً. فأنتِ تقبضين راتباً جيداً وتنفقينه في سبيل مساعدة الآخرين!

ـ لقد قدَّمتِ لها عشرة في المئة فقط...إصبعٌ واحدٌ يساوي عشرة في المئة، عشرة جنيهات في كل مئة...عشرة في المئة نسبة ضئيلة جداً يا لورانس . . .

ـ أعيدي تقييم ذلك...عشرة في المئة تغطي تكاليف العمل، وعشرة في المئة لشراء عالم مستقر يسمح لك بالعيش بسلام هنا في الغرب. هكذا يتم تقييم الأمور. لو أعطى الجميع عشرة في المئة، لما اضطررنا لتقديم حق اللجوء السياسي.

ـ يبدو أنك ما زلت ترغب أن أطردها . . . أليس كذلك؟

«وجهني لورانس برفق كي أنظر في وجهه، كانت نظرته توحي بالقلق، ضايقتني تلك النظرة لأسباب لم أفهمها...»

ـ لا...لا أبداً! استبقيها عندك واعتني بها، لكنني أتوسل إليك ألا تدمري حياتك! حياتك تهمني كثيراً، بل تهمنا جميعاً.

ـ أووواا! لا أدري. أنا حقاً لا أدري، أفتقد كثيراً لآندرو . . .

«أبعد لورانس يديه عن خصري وتراجع خطوةً إلى الوراء . . .»

ـ أووواا! لا، أرجوكَ لا تسئ فهمي! ما كنت أقصده فقط أنه كان جيداً في الأمور الحياتية! لم يكن كلامه فارغاً! لو كان هنا الآن، لقال لي، «لا تكوني حمقاء، ساره. بالطبع عليكِ الحفاظ على وظيفتك!» عندها سأشعر بالفزع من طريقة كلامه، لكنني سأحافظ على وظيفتي كي يرتاح زوجي، أعرف أن الوضع لن يصبح أفضل، لكنني أفتقده برغم ذلك، لورانس. من المضحك أن تفتقد شخصاً بهذه الطريقة.

ـ والآن، ماذا تريدين مني أن أفعل؟ هل تريدين أن أتصرف معك كما كان يفعل آندرو؟

«ابتسمتُ له»

ـ أووواا! تعال هنا!

عانقته بحرارةٍ وتنفستُ رائحة جسمه الناعم النظيف...

ـ يبدو أنني أصبحتُ لا أطاق من جديد! أليس كذلك؟

ـ أنتِ مشوشة، ساره! تحتاجين لبعض الوقت كي تستجمعي قواك! من الجيد أن تنظري في حياتك! لكنني أطلب منك ألا تتسرعي! إن كنتِ تفكرين بالاستقالة في غضون ستة أشهر، افعلي ذلك مهما كلف الأمر. لكن حالياً ، تذكري أن وظيفتك تُدرُ عليكِ مبلغاً يساعدك على القيام بأشياء تستحق الجهد. من الجيد القيام

بأمور مفيدة في الأوقات الحرجة. فالله وحده يعلم ذلك.

ـ الحل الوسط، أليس كذلك؟ أليس من المحزن أن نكبر من جديد؟ أن نبدأ مثل تشارلي؟ نحارب الأشرار معتقدين بأننا سننقذ العالم؟ ثم نكبر قليلاً لنصبح بعمر النحلة الصغيرة مثلاً. وبعد ذلك نلاحظ أن الشر موجود في داخلنا وأننا جزء لا يتجزأ منه! وبعدها نكبر في السن أكثر فأكثر...حتى نشعر بالرضا، لأننا سنبرر كل ذلك الشر وسندعي أنه لم يكن موجوداً في الأصل، وبالتالي سنبدأ بالتحدث عن «عشرة في المئة».

ـ ربما هذا الشعور يتطور مع نمو الإنسان يا ساره!

«تنهدتُ ونظرت من النافذة إلى النحلة الصغيرة . . .»

ـ أو ربما ذلك ما يسمونه بالعالم النامي . . .

الفصل التاسع

سأخبركم ما حدث في اليوم الذي تغيرت فيه مجريات قصتي. كان ذلك في الصباح الباكر، حيث قضى لورانس ليلة أخرى في منزل ساره. لا يزال الظلام حالكاً. وكنت أنا مستيقظة طوال الليل في غرفتي التي أعطتني إياها ساره. أتنبأ بمستقبلي، لكنني لم أرَ شيئاً واضحاً.

دخلت ساره إلى الغرفة عند طلوع الفجر. . .

ـ هل نمت جيداً؟

ـ سمعتُ صوت البوم يأتي من الخارج!

ـ ممتاز! فهذه إحدى الميزات الجيدة عندما تعيشين خارج المدينة!

قمت عن السرير وفركتُ عينيَّ . . .

ـ سآخذ اليوم إجازة من العمل! ما رأيك أن نتفسح في لندن؟

ـ لا... يعجبني الوضع هنا!

ـ إنها مجرد الضواحي هنا! لا شيء يلفت الانتباه فيها!

ـ لأجل ذلك يعجبني هذا المكان!

ـ لا تكوني سخيفة! لنذهب جميعاً ونقضي وقتاً ممتعاً في لندن! إنه يوم جميل! سنجلس في الضفة الجنوبية ونشاهد المناظر الخلابة! فتشارلي يحب ذلك المكان! هيا بنا! ستكون مغامرة شيقة تقضينها معنا!

ـ حسناً!

ـ ما هي المغامرة؟ هذا يعتمد على نقطة البداية... فالفتيات هنا يختبئن بين جلاية

الصحون والثلاجة ويتظاهرن بأنهن في الأدغال، بين القرود والأفاعي الخضراء. بينما كنا أنا وشقيقتي نختبئ عادةً داخل فجوة في الأدغال بين القرود والأفاعي الخضراء من حولنا. حيث كنا نتظاهر بأننا نملك جلاية صحون وثلاجة. يعيش الناس هنا في عالم التكنولوجيا ويحلمون بأشياء تنبض بالحياة. بينما في قريتي، يحلم الناس بالآلات لأنهم رأوا ما الذي حدث للقلوب النابضة هناك.

عندما كنا أطفالاً، كنا نذهب أنا وشقيقتي إلى مكان سرّي في الأدغال، قريب من القرية، حيث كنا نلعب لعبة البيوت. كانت آخر مرة ذهبنا فيها إلى هناك وعمر شقيقتي عشر سنوات وأنا في الثامنة. عندها كنا قد كبرنا على لعبة كهذه، لكننا لم نمانع أن نحلم ولو لمرة أخيرة، ليبقى الحلم راسخاً في ذاكرتنا، قبال أن نصحو منه إلى الأبد.

زحفنا بهدوء خارج القرية عند منتصف الليل. كان ذلك قبل عام من حرب النفط، وقبل عامين من بلوغ شقيقتي سن الرشد. كانت تلك فترة سلام وأمان بالنسبة لقريتنا التي تتسم بالتفهّم. لم يكن هناك أحد يحرس المنازل. ولم يكن هناك من يسألنا إلى أين المسير. في الحقيقة، لم نخرج إلا بعد أن تأكدنا أن جميع من في القرية كانوا نياماً. كان ذلك يأخذ وقتاً طويلاً، لأن القمر كان مكتملاً، وكان نوره يضيء السطوح المعدنية للمنازل، ويعكس لمعانه على وعاء الماء الذي كنا أنا وشقيقتي نضعه داخل غرفتنا كي نغسل وجهينا فيه. كان ضوء القمر يقلق المسنين والكلاب، حيث كان التذمر والنباح يأخذ ساعات طويلة قبل أن يخيم الهدوء على آخر كوخٍ في القرية.

كنا أنا ونكيروكا، نراقب القمر وهو يأخذ شكله الكامل، بحيث غطى انعكاسه إطار النافذة. كما كنا نستطيع رؤية وجه أي شخص يقف في الخارج، فقد كان القمر يجعل كل شيء يتوهج بإشراق وكأنه ضوء النهار. كان نوره يجعل يومك مذهلا . . . مميزاً . . . غير اعتيادي . . . يوماً إضافياً كإصبع القطة السادس أو كرسالة سرّية موضوعة بين صفحات كتاب قرأته لمرات عديدة، لكنك لم تكتشف وجودها من قبل. كان بريق القمر يغطي شجرة الليمبا الضخمة وسيارة البيجو والمرسيدس.

كان كل شيءٍ يتوهج في أعماق الظلام الشاحب. هنا...خرجنا أنا ونكيروكا بحذر من البيت في منتصف الليل.

كانت الحيوانات والطيور تتصرف بغرابة. فالقرود لم تكن تصرخ، وطيور الليل كانت صامتة. كنا نمشي بهدوءٍ شديد، وكأن الغيوم الفضية الصغيرة التي كانت تنجرف فوق وجه القمر، تنحني نحو الأرض وتهمس في آذاننا كي نلزم الصمت.

عندما كانت نكيروكا تنظر إليّ، كانت عيناها توحيان بالخوف والإثارة في آنٍ معاً.

أمسكنا بأيدي بعضنا ومشينا ميلاً عبر حقول المنيهوت، حتى وصلنا إلى أول الأدغال. كانت ممرات التربة الحمراء بين صفوف نبات المنيهوت، تلمع في ضوء القمر كعظام أضلاع العمالقة. وعندما وصلنا إلى الأدغال، بدى كل شيءٍ ساكناً ومظلماً.

لم ننبس ببنت شفة. كنا نمشي فقط لنتجنب الخوف. مشينا لوقتٍ طويل، ثم أصبح الطريق أضيق، فأطبقت علينا أوراق الشجر والأغصان، مما اضطرنا للسير خلف بعضنا. وعندما بدأت الأغصان الضخمة تسد الطريق، بدأنا نمشي ونحن ننحني للأسفل. وبعد فترة، شعرنا بالإرهاق ولم نعد قادرات على المتابعة.

فقالت نكيروكا، ليس هذا هو الطريق الصحيح! علينا أن نعود أدراجنا! لكن عندما حاولنا العودة، لاحظنا أننا لسنا في الطريق الصحيح مطلقاً. لأن الأغصان والنباتات كانت تغطي الفراغ من حولنا. بدأنا بشق طريقنا بين النباتات لبعض الوقت، لكننا أدركنا لاحقاً أننا أضعنا طريقنا.

كانت الأدغال مظلمة لدرجة أننا لم نستطيع رؤية أيدينا. كنا نتمسك ببعضنا بقوة خشية أن نتوه. ثم بدأنا نسمع أصوات حيوانات الغابة وهي تتحرك بين الأشجار المتشابكة، كانت صغيرة الحجم...مجرد جرذان وفئران وبعض الخنازير. لكن أحجامها تبدو أكبر في الظلام. وكلما ازداد خوفنا، كانت أحجامها تزداد ضخامة. لم نعد نفكر بجلاية الصحون أو الثلاجة في تلك الليلة الموحشة.

بدأتُ بالبكاء لأن الظلام أصبح دامساً، وبدى لي أنه لن ينتهي أبداً، لكن نكيروكا عانقتني بقوة وهمست في أذني، لا تحزني يا أختي الصغيرة! قولي لي . . . ما

اسمي؟ فقلت لها وأنا أبكي، اسمك نكيروكا . . .

ـ نعم...هذا صحيح! ومعناه« المستقبل المشرق» أترين؟ ما كان أبوك وأمك ليسمياني به لو لم يكن ذلك صحيحاً! وطالما أنت برفقتي يا أختي الصغيرة، لن يدوم هذا الظلام طويلاً ! سترين!

توقفتُ عن البكاء، وغرقتُ في النوم، حالما وضعتُ رأسي على كتف نكيروكا. استيقظتُ عند الفجر، قبل أن تستيقظ شقيقتي. كما استيقظت طيور الأدغال. كان البرد شديداً. يحيط بنا ضوء رمادي شاحب، وكمية كبيرة من نباتات السرخس المنخفضة والزواحف الأرضية. كانت أوراق الشجر منتشية بقطرات الندى. وقفتُ ومشيت بضع خطوات إلى الأمام، لأن الضوء بدى لي أكثر إشراقاً في ذاك الاتجاه. أبعدتُ غصناً منخفضاً يعيق طريقي، ثم رأيتُ سيارة « جيب» قديمة بين الأشجار المتشابكة. كانت إطارات دواليبها مهترئة، والزواحف والسراخس تنمو من بين أقواس العجلات. وكانت المقاعد البلاستيكية السوداء ممزقة، حيث الينابيع الصدئة القصيرة تخرج وتتسرب من خلالها. وكان الفطر ينمو على أبوابها أيضاً... كانت السيارة بعيدة عني قليلاً ، فاقتربتُ منها. لاحظتُ أن الأدغال وسيارة الـ « جيب» قد كبرتا سوياً. لم أتبين من كبر قبل الآخر. . . الغابة قبل أم السيارة. لاحظتُ وجود الكثير من أوراق الشجر المتعفنة من جميع المواسم. كما أصبح معدن السيارة أسوداً كسواد الأوراق المتساقطة والتراب. وفي المقعدين الأماميين، رأيتُ هيكلاً عظمياً لأحدٍ ما. في البداية، لم ألاحظ وجوده، لأنه مغطى بثياب بلون أوراق الشجر السوداء. لكنها كانت ثياب ممزقة ومهترئة، مما سمح ببروز العظام إلى الخارج ووضوحها تحت ضوء الصباح الباكر. بدى وكأنه تعب من قيادة السيارة، فاستلقى على المقعدين الأماميين كي يستريح قليلاً. كانت جمجمته قرب لوحة عدادات السيارة، تبعد قليلاً عن الهيكل العظمي، تنظر إلى فسحة من السماء العالية عبر فجوة بين الأغصان. أدركتُ ذلك لأنها ترتدي نظارات شمسية، وكانت السماء تنعكس على إحدى العدسات. رأيتُ حلزونة تزحف فوق العدسة وتأكل كل القذارة والعفن الأخضر الذي يغطي النظارة. كان الدرب اللزج الذي رسمته تلك

الحلزونة هو ما سبب انعكاس صورة السماء على العدسة. بينما الحلزونة تشق طريقها فوق النظارة، تقدمت قليلاً لألقي نظرة عن قرب. كانت النظارة بإطارٍ ذهبي اللون، على زاويتها، حيث وصلت الحلزونة كان مكتوب عليها ماركة النظارة « ري بان». اعتقدتُ في البداية أنه اسم الرجل الميت، لأنني حينها كنت صغيرة كمشاكلي، ولم أكن أدرك أن هناك أسباباً قد تجعلنا نحمل أسماءً غير أسمائنا.

وقفتُ وحدقتُ لفترة طويلة بجمجمة «ري بان»، كنت أشاهد انعكاس وجهي على عدسات النظارة الشمسية، فرأيت صورة لفتاة صغيرة تقف وسط أشجار عالية ومظلمة تحت بقعة من أشعة الشمس. بقيت أحدق لفترة طويلة. لم ألتفت لا يميناً ولا يساراً، وكذلك الجمجمة. فعرفت أنني سأكون هكذا طيلة حياتي.

بعد بضع دقائق، عدتُ إلى شقيقتي. لم أفهم سبب وجود سيارة الـ «جيب» هناك، وبالتالي لم أكن أعلم بأن الحرب قائمة في بلادي منذ ثلاثين عاماً. الحرب... الطُرق...الأنظمة... كل هذه الأشياء ساهمت في بقاء سيارة الـ «جيب» في ذلك المكان، تتضخم في تلك الأدغال. كنت في الثامنة من عمري وأعتقدت أن تلك السيارة قد نمت من تحت الأرض كالأشجار والسراخس التي تحيط بنا. اعتقدتُ أنها نمت بشكل طبيعي نتيجة البذور المزروعة في تربة بلادي الحمراء، مثلها مثل نبات المنيهوت.

لكنني لم أرغب بالبوح لشقيقتي عن مكان تلك السيارة، كانت نكيروكا لاتزال نائمة، فداعبتُ خده، استيقظي، حل النهار، يمكننا إيجاد طريق العودة الآن...

ابتسمت نكيروكا في وجهي، وقفت وفركت عيناها، ألم أقل لك أن الليل لن يدوم طويلاً؟.

ـ هل كل شيءٍ على ما يرام؟

«صحوت من حلم اليقظة، ونظرتُ من حولي إلى الجدران البيضاء النظيفة والستائر المخملية الخضراء. بدأت صورة زواحف الأدغال تتلاشى من أمامي، لتختفي عند الزوايا المظلمة لغرفة النوم».

يبدو أنك تفكرين بشيءٍ ما؟

ـ أنا آسفة! يبدو أنني لم أصحو بعد!

«أمسكت ساره بذراعي، ثم ذهبنا إلى تشارلي، شعر بالفرح عندما أخبرته ساره أننا سنذهب في مغامرة . . .»

ـ هل سنذهب إلى مدينة «غوثام»؟

ـ أجل يا بات مان، سنذهب إلى مدينة غوثام!

ـ هل سنركب سيارة الوطواط؟

وقبل أن تنطق سارة وتقول «نعم»، قاطعها لورانس من المطبخ...

ـ لا، سنركب قطار الوطواط، فمن الصعب ركن سيارة الوطواط في زحمة يومٍ ليس يوم عطلة.

شعر تشارلي بخيبة أمل، لكن عندما خرجنا من المنزل، بدأ يسابقنا على الرصيف، وكانت قبعة الوطواط تطير وراءه.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أركب فيها قطاراً. كان تشارلي يشعر بالفخر وهو يعلمني كيف أجلس على المقعد، ويشرح لي كيف يقود القطار. بدى الأمر معقداً قليلاً، فكان يتكلم عن أزرار ومقابض ومفاتيح غير مرئية. وصل تشارلي إلى محطة تدعى واترلو. ثم فتحت الأبواب وسمعنا صوتاً يقول، تفضلوا رجاءً. . . لقد وصلنا!

كان تشارلي يحرك شفتيه ويتظاهر بأنه هو من يتكلم.

كانت المحطة مزدحمة بالأشباح الذين رأيتهم أول مرة دخلت فيها إلى لندن. كان هناك الآلاف منهم. لم يكن أحد ينظر إلى أحد، والجميع يتحرك بسرعة كبيرة، دون أن يلمس الآخر. يبدو أن الأشباح كانت تعرف طريقها تماماً، وكأنها تتسابق في طرق غير مرئية، وسط الليل وفي الأدغال المحيطة بنا . . . تخيلتُ فجأةً صوت صراخ الرجال في القرية، وتذكرتُ منظر الدخان المتصاعد من الأكواخ المحترقة حينها...أغمضتُ عينيَّ وشددتهما جيداً كي أتخلص من تلك الذكريات المؤلمة.

سارت ساره أمامنا وهي تمسك بيد تشارلي. مشينا خلفها أنا ولورانس. غادرنا المحطة، وتوجهنا إلى جسر على شارعٍ مكتظ. كانت الشمس مشرقةً. جعلتني حرارتها وضجيج حركة المرور ورائحة البنزين أصاب بالدوار.

ـ يوم جميل! أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد . . .

ـ هل تحبين أن أعرفك على أسماء الأماكن؟ انظري هناك، تلك قاعة الحفلات الملكية، وإلى اليمين على قمة ذلك البناء، أترين تلك المجسمات التي تشبه الكبسولات المائلة، تلك هي عين لندن.

«كانت الشمس تلمع من خلال الكبسولات . . .»

ـ لا أشعر برغبة في رؤية معالم المدينة! كيف تتظاهر بأن كل شيء طبيعي بيننا؟

ـ وكيف تريدينني أن أتصرف؟ فأنت تمسكينني من يدي التي تؤلمني، وأنا أمسكك من يدك التي تؤلمك. أعرف أن هذا يبدو مزعجاً! لكن علينا أن نتكاتف ونعتاد على الأمر.

ـ لا أستطيع التظاهر بأن الأمور بيننا طبيعية!

ـ حسناً! إن لم تستطيعي التظاهر في لندن، أين ستتمكنين من ذلك؟

«وضع لورانس نظاراته الشمسية على عينيه، وأشار بإصبعه إلى المشاة في الشارع» ما أقصده هو...انظري، هناك ثمانية ملايين شخص هنا يتظاهرون بهدوء الأعصاب... هذا ما يسمى بالشعوب المتحضرة!

ضغطتُ راحتي بأظافري التي كانت حادّة أكثر من غضبي. ومشينا بصمت لفترة وجيزة. كنت أنظر في كل الوجوه التي تمر أمامي. تخيلتُ للحظة أنني لمحتُ والدتي، لكن عندما اقتربت أكثر، أدركتُ أنها لم تكن هي. لم أعرف لماذا كنت أشعر بالبرد في يومٍ حارٍ ومشمس.

بدأنا نسرع بالمشي الآن، فقد كان تشارلي متحمساً، يسحب ساره من يدها كي تسرع في المشي. خرجنا من ممر مظلم بين مبنيين اسمنتيين ضخمين، إلى أن وصلنا إلى نهر التايمز الذي تصطف على آخر ضفافه مباني لندن الضخمة. كنا نتدافع بين الحشود عبر الممشى الحجري الأبيض،فور وصولنا استندنا على السور الحديدي لنلقي نظرة على النهر. كانت الرياح هادئة، , وأمواج النهر صغيرةً وعذبة. وبما أن

الشمس مشرقة، لاحظنا بعض المسافرين يتشمسون على قوارب المتعة التي كانت تبحر بين الجسور.

قالت سارة، ألا يبدو المنظر جميلاً؟

«تسلق تشارلي السور الحديدي ووقف بجانبها، وبدأ يصوب مسدسه الوهمي على المسافرين في القوارب. مصدراً صوت « بيف . . . بيف . . . بيف». كان صوته يبعث شعور الاسترخاء في المسافرين المستلقين على مقاعدهم البيضاء، بوجوههم المبتسمة، ينظرون للسماء الزرقاء، ويشربون زجاجة الماء البارد العذب. وقف لورانس بجانب ساره واضعاً يده على كتفها. كان تشارلي وساره ولورانس يستمتعون بمشاهدة النهر، لكنني أدركتُ ظهري له وأنا غاضبة.

لم يكن الناس الواقفون بجانب النهر، يشبهون أشباح محطة القطار. فقد كانوا يمشون بهدوء ويقضون وقتاً ممتعاً، يبتسمون ويأكلون الهوت دوك والآيس كريم. هناك رجلٌ يبيع بالونات فضية وبطاقات بريدية تذكارية وأقنعة بلاستيكية لأفراد العائلة المالكة في بريطانيا. يرتدي السياح هذه الأقنعة ليلتقطوا صوراً فوتوغرافية لأنفسهم، أمام مجلسي البرلمان الشهيرين على الجانب الآخر من النهر. وكان ذلك يجعلهم ضاحكين مبتهجين. والبعض منهم يرفع إشارة النصر أثناء التقاطهم للصور، مما يثير ضحكهم أكثر فأكثر.

كان الممشى واسعاً جداً، ويتوقف الناس ليشاهدوا فناني الشوارع وهم يؤدون عروضهم. حيث رأينا امرأةً بثوبها الذهبي وتاجها الذهبي أيضاً، يُغطي وجهها طلاء ذهبي، تقف فوق صندوق ذهبي بثبات، كالتمثال، حيث أنها لا تتحرك إلا عندما يضع أحدٌ ما قطعةً نقدية داخل القبعة التي أمامها. كان بجانبها رجلٌ متنكر بزيّ سحلية. يختبئ داخل صندوق أسود كبير، عندما يضع أحدهم قطعة نقدية فوق سطح الصندوق، يخرج الرجل السحلية وهو يصفر ويقضم يديه ليرعب ويضحك الأطفال. رأيتُ طفلاً صغيراً يحاول وضع قطعة النقود فوق سطح الصندوق. فكان يقترب من الصندوق بحذر وارتياب، يمسك قطعة النقود بقبضته الصغيرة. ربما هكذا تكون طريقة الاقتراب من صندوق ضخم يحوي

سحلية عملاقة لاحمة. وقد تأتي في ذهن تلك السحلية فكرة ذكية بأكل الولد والعودة إلى المنزل بمعدة ممتلئة، بدلاً من العمل يوماً كاملاً من أجل الحصول على بعض القطع النقدية الصغيرة.

كان الطفل ينظر إلى أبيه وأمه متردداً. وأبواه يبتسمان له ويشجعانه على وضع القطعة النقدية فوق الصندوق، فكانوا يرددون عليه، هيا...يمكنك ذلك، هيا يا عزيزي!. كنت أراقب تلك العائلة بتعجب. فلون بشرة الأب أسوداً أكثر من بشرتي، بينما والدة الطفل امرأة بيضاء. كانا يمسكان بأيدي بعضهما ويبتسمان لطفلهما ببشرته البنية الفاتحة. . . أي بين بين! وهو لون الرجل والمرأة الممزوج بالسعادة والحب. كان اللون جميلاً مما جعل دموعي تنهمر. لو التقيت بفتيات قريتي، لن أستطيع تفسير ما رأيت، لأنهن لن يصدقنني. فلو أخبرتهن أنني رأيت في هذه المدينة أطفالاً من أب أسود وأم بيضاء، يمسكون بأيدي بعضهم البعض ويسيرون في الشارع، ويبتسمون بفخر. . . عندها سينظرن في عيون بعضهن ويقلن، يبدو أن هذه الفتاة عادت لتختلق قصصها الخيالية من جديد!

لكنني رأيتُ ذلك بأم عيني. فقد وصل الولد أخيراً إلى الصندوق الأسود الضخم، ووقف على رؤوس أصابعه ليسقط القطعة النقدية اللامعة بفعل الشمس الصافية في السماء. تخيلتُ هنا صورة ملكة إنكلترا المطبوعة على قطعة النقود، وهي تحرك شفتيها وتقول، يا إلهي . . . يبدو أننا على وشك السقوط!

هنا، قفز الرجل السحلية من الصندوق، فركض الولد من الفزع وهو يصرخ ويضحك بانفعال. حمله والداه، وأصبحوا ثلاثتهم يتعانقون بحرارة ويضحكون بسعادة أمام الحشد الذي كان يضحك ويبتهج معهم.

كنت أرى كل ذلك بوضوح. وعندما نظرتُ من حولي، رأيت الكثير من الناس يفعلون الشيء ذاته. فهناك أناسٌ من كل الأعراق والجنسيات. أكثر بكثير مما رأيته داخل مركز احتجاز المهاجرين. أسندتُ ظهري على السور الحديدي ورأيت الكثير والكثير منهم يتجولون أمام ناظري. كنت مندهشة للغاية. بعد ذلك

أدركتُ وحدثت نفسي، أترين أيتها النحلة الصغيرة هذا الموكب الضخم من الناس الذي يسير على امتداد هذا النهر الكبير؟ هؤلاء الناس هم أنت أيتها النحلة . . .

كنت أقضي وقتي في مركز احتجاز المهاجرين محاصرة بين الجدران. وعندما انتقلت للإقامة في منزل ساره في شارعٍ مليءٍ بالسكان البيض، شعرتُ بأنني محاصرة مرة أخرى حيث أدكتُ أنه لا يمكنني أن أمر مرور الكرام. لكن في المقابل، بدأتُ أفهم أخيراً أنه بامكاني الاختفاء في الجنس البشري، كما اختارت إيفيت أن تكون. ببساطة مثل نحلةٍ تختفي وسط خلية. لم أستطع حتى أن أسيطر على قدميَّ، فقد كانتا ترقصان من شدة الفرح، فبدأتا تخطوان الخطوة الأولى بكل جرأةٍ وثبات.

لكن، توقفتا فجأةً، فحدثتُ نفسي، أيتها النحلة الصغيرة، حاولتي ذلك من قبل، وهربتِ عدة مرات، لكن مشاكلك لحقت بكِ، فكيف ستمنعينها من الاقتراب منك مجدداً هذه المرة؟ كيف ستوقفينها عن الصراخ أثناء الليل؟

فتراجعتُ خطوةً للوراء، واستندتُ على السور مرةً أخرى لأُعيد التفكير قليلاً. كانت الشمس بدفئها تلامس رقبتي من الخلف. وكان لورانس يوضح أمراً لتشارلي، قائلاً له، هل ترى تلك الأعمدة فوق الجسر؟ هل تلاحظ كيف تدور المياه من حولها؟

مازال الناس يتوافدون أمامي في الممشى، الكبار يسيرون على أقدامهم، بينما الأطفال ينزلقون مستخدمين السكوتر والدراجات والأحذية ذات العجلات. ابتسمتُ لامرأةٍ جميلة ترتدي ثياباً زاهية الألوان، وسمعتُ أصوات الأمهات وهنّ يندهن أولادهن بأسماءٍ منيعة محمية من السحر، صوفيا، جورج، جاك . . .

لن تفارقني مشاكلي في هذه المدينة المبنية بالحجر والحديد إن احتفظتُ باسمي السخيف الذي اخترته عندما كنت مع شقيقتي في الأدغال. لذلك سأتخذ اسماً جديداً يناسب هذه المدينة. أختلط بهذا المجتمع، وأصطنع ابتسامةً عريضة وأرتدي ثياباً زاهية الألوان، وسأنسى كل ما يتعلق بتشارلي وساره

ولورانس وآندرو. مع اسمي الجديد، لن أعترف بقصة النحلة الصغيرة بعد الآن. عندها ستنتهي حكايتها كالتالي:

في بداية الصيف، وفي أحد الأيام المشمسة، شعرت النحلة الصغيرة بالضجر من مشاكلها، فقررت أن تسافر إلى ضفاف نهر كبير، برفقة ثلاثة سحرة، ولد بقوة وطواط . . . وساحرة طيبة أنقذت حياة تلك النحلة ذات مرة ومشعوذ شرير. وبينما كان الثلاثة يحدقون بالنهر الكبير، التفتت النحلة الصغيرة ونطقت بعض الكلمات السحرية. وعندما التفت الجميع إليها، كانت النحلة قد طارت بعيداً. فقاموا جميعاً بالبحث عنها، لكنهم لم يجدوا أثراً لها. سوى القميص الملوّن الذي كانت ترتديه عندما جاءت إلى هذه البلاد، فقامت الساحرة الطيبة بغسله وكيه ووضعه في درج الخزانة، لأنها لم تعد قادرة على التخلص منه.

ابتسمتُ عندما رأيت الناس وهم يمشون أمامي. وبدأت قدماي تخطوان الخطوة الأولى للانضمام إليهم. وازداد فرحي عندما شعرتُ بقوة تلك الخطى. كانت طاقة المدينة تتدفق عبر الأحجار الدافئة من تحت قدميَّ، وتتغلغل في كامل جسدي. فحدثت نفسي، والآن . . . جاءت اللحظة الحاسمة! فقد آن الأوان كي تتوقف هذه الفتاة عن الصراع من أجل البقاء، لتبدأ عيش حياة حقيقة. لتبقى حيّاً، عليك التكلم بلباقة أو يكون مظهرك لائقاً. لكن إن كنت تريد أن تنهي قصتك بطريقة جيدة. في الحقيقة، عليك أن تفعل ذلك بنفسك ولوحدك. بعد ست خطوات، أصبحت أمشي بين الناس، فكان يدفعني الجميع من الأمام ومن الخلف. سمحتُ لنفسي بالانجراف مع ذلك النهر الغزير من الناس الذي كان يتدفق بجانب المياه. شعرتُ بالسعادة. استنشقتُ رائحة الطين المركون على ضفاف نهر التايمز، ورائحة تراب أجنحة الطيور الرمادية والأبنية الحجرية القديمة. كما شممتُ رائحة النفس الساخن للسجائر والعلكة التي كانت تتطاير بين الحشد. كان الجميع يتحدثون ويصيحون بكل اللغات. كانت الكلمات تمتزج في هواء لندن الذي يستوعبها كلها. كنت أستمع باهتمام إلى صوت المدينة، وأتساءل ما هو الاسم الجديد الذي سينادونني به؟

وصلت مع الحشد إلى جسرٍ طويل وبدأتُ بعبوره. من الممتع رؤية قوارب المسافرين وهي تمر تحت قدميّ. فرأيتُ الناس مسترخين على الكراسي. كانت رؤوس الرجال الصلع تُصبح ورديةً من أشعة الشمس. وكان الأطفال يصرخون تحت البرج كي تتردد أصداء أصواتهم. كما كان الدليل السياحي يستخدم مكبرات الصوت ليرحب قائلاً « أهلاً وسهلاً بكم» بجميع اللغات.

عند منتصف الجسر، شاهدتُ صبياً يبيع المجلات، برأسه الحليق، ويضع حلقةً فضية في أنفه كالثور، ويرتدي معطفاً أخضر من الفرو، في هذا الطقس الحار. كان لون بشرته بنياً فاتحاً، وقد ابتسم لي عندما رآني أحدق به . . .

ـ ماذا؟

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ لا شيء!

ـ قضية هامة...؟

ـ لا، . . . أظن أنني سأكون بخير الآن!

«ضحك الصبي وتكلم بهدوء وهو يريني المجلة. لا، ما قصدته هو، هل تريدين شراء هذه المجلة؟ أترين؟ اسمها « قضية هامة».

«ضحكتُ وخجلت من نفسي»

ـ أنا أسفة! فأنا جديدة في هذه المدينة!

ـ وأنا جديد أيضاً! ما اسمك؟

«نظرتُ من خلفه إلى المدينة الضخمة الباسقة بعظمة وإشراق من أعماق النهر، ثم التفت ونظرتُ في عينيه».

ـ اسمي هو « شمس لندن»

«ابتسم الصبي»

ـ ما هذا الاسم...!؟

ـ يبدو هذا الاسم ثقيلاً في البداية، لكنه يصبح خفيفاً في النهاية!

«غمزني الصبي وبدأنا نضحك معاً. كانت تلك خدعةً جيدة. في تلك اللحظة، شعرتُ بأنني عدتُ إلى الحياة مع هذا الاسم الجديد».

لكن وبينما كنت أضحك، نظرتُ للنهر من خلفي، ووقع نظري على مشهدٍ لم أستطع تجاهله. كانت ساره وتشارلي ولورانس مستندين على السور، ويحدقون في النهر. لم يلاحظوا وجودي، لكنني لم أبعد نظري عنهم. اختفت فجأةً الابتسامة المرسومة على وجهي. فسألني الصبي، ما المشكلة؟

كان لورانس يحضن سارة من كتفها. بينما كان تشارلي يجلس وحيداً وبدى عليه الحزن. لاحظته يحدق بالوحل المركون على ضفة النهر. ويصوب سلاحه الوهمي باتجاه الوحل. فجأةً، كممتُ فمي بيديَّ.

سألني الصبي مرةً أخرى، هل أنتِ بخير؟ تبدينَ شاحبة!

لم أعلم بماذا أجيبه! فكيف لي أن أفسر له بأنني لا أثق بلورانس؟ كيف أخبره بما حصل لي؟ هل أبدأ قصتي بـ جاء الرجال إلى القرية ومن ثم...

عندما أدركت أنه لن يفهم سبب عدم ترك تشارلي يجلس وحيداً هكذا . . . استأذنته. «يجب أن أذهب»!

فتركتُه وعدتُ أدراجي لأمشي فوق الجسر بخطىً ثقيلة، عندما وصلتُ إليهم، التفتت ساره وابتسمت لي.

ـ أين اختفيت؟

ـ لم أذهب لأي مكان!

عندما نظرتُ إلى النهر، رأيتُ شيئاً ما يسبح بهدوء، لم أعرف ما هو، نظرتُ إلى ساره، فنظرت هي أيضاً في عينيّ. عندها لم نعد قادرات على الابتسام أكثر من ذلك.

ـ ما المشكلة؟ أنا آسفة، هل منظر هذا النهر يذكرك بالشاطئ؟

ـ لا، إنها مجرد مياه!

كان تشارلي يسحبني من يدي ليلعب، فتقدمنا لخطوات قليلة عند أسفل النهر، حيث الرمل الأصفر وبعض المزروعات عند حافة النهر. وكان هناك بعض الأطفال يلعبون أيضاً. يقفون بثيابهم الداخلية فقط بسبب حرارة الشمس، يبنون قلعة من الرمل بمساعدة أهلهم. بنينا أنا وتشارلي بعض القلاع أيضاً، كما بنينا أبراجاً وجسور وطرق عامة وسكك حديدية ومدارس. ثم بنينا مستشفى للأبطال المصابين والمرضى

من الخفافيش. لأن مدينة تشارلي المتخيلة تتطلب ذلك. فقد كان بكامل تركيزه أثناء مرحلة البناء بالرمل.

ـ هل تريد خلع زي بات مان يا تشارلي؟

ـ لا!

ـ أنا قلقة عليك! ستشعر بالتعب من شدة الحرارة! هيا بنا، لما لا تخلع ثيابك كباقي الأولاد؟

ـ لأنني لو خلعتها، لن أكون بات مان بعد الآن . . .

ـ هل تريد أن تكون بات مان طيلة الوقت؟

ـ نعم، لأنني إن لم أكن بات مان طيلة الوقت...عندها سيموت بابا!

«كان تشارلي يحدق في الرمل. ويُحكم شدَّ قبضة يده بقوة، لدرجة أنني رأيت عظام مفاصله البيضاء الصغيرة عبر جلده الرقيق».

ـ تشارلي؟ هل تظن بأن بابا قد مات لأنك لم تكن ترتدي زي بات مان؟

«نظر تشارلي في عيني عبر قناع بات مان الأسود الذي كان يرتديه، ولاحظتُ الدموع تترقرق من عينيه الصغيرتين».

ـ كنتُ في الحضانة ولم أكن في البيت، فجاء الأشرار وقتلوا بابا!

«بدأت شفته السفلية ترتجف، فسحبته وعانقته بحرارة عندما بدأ يبكي. حدقتُ من وراء كتفه إلى أنفاق الصرف الصحي المظلمة المتوارية عند القاعدة الحجرية للجسر. كانت إحدى الفتحات المظلمة عريضة ككتفاي. هنا تخيلتُ آندرو وهو معلق على حبل المشنقة الكهربائي، وجثته تدور وتدور دون توقف، في كل دورة، كانت تلتقي عينيه بعينيَّ، كان يرمقني بنظرةٍ مخيفة لا نهاية لها».

ـ اسمع يا تشارلي! لم يمت والدك لأنك لم تكن في البيت! فذلك لم يكن خطأك! أتفهم ذلك؟ أنت ولد طيب يا تشارلي! ولم يكن لك ذنب في ذلك أبداً!

«ابتعد تشارلي قليلاً وحدق في وجهي . . .»

ـ لماذا مات بابا؟

ـ لقد قضى عليه الأشرار يا تشارلي! لكن بات مان لا يستطيع القضاء على ذلك

النوع من الأشرار! لأنهم كانوا يعيشون في مخيلة والدك، وفي مخيلتي أنا أيضاً. «فذلك النوع من الأشرار يستوطن الروح يا تشارلي»!

ـ هل هناك الكثير منهم؟

ـ الكثير من ماذا؟

ـ من الأشرار الذين يعيشون داخل الروح!

ـ إنهم يعيشون في داخلنا جميعاً!

ـ هل سنتغلب عليهم؟

ـ طبعاً يا تشارلي!

ـ لن يستطيعوا النيل مني! أليس كذلك؟

ـ طبعاً يا تشارلي! لن يستطيع أحد النيل منك، أبداً!

ـ ولن يستطيعوا الاقتراب منكِ أنت أيضاً! أليس كذلك؟

ـ تشارلي، لا يوجد أشرار هنا عند النهر! فنحن نقوم بمغامرة الآن، أليس كذلك؟ ربما تستطيع أن تقضي يوماً واحداً فقط دون أن تكون بات مان، ما رأيك؟

«عبس تشارلي وكأن ما قلته، يشبه إحدى خدع أعدائه. بات مان سيبقى دائماً بات مان . . .»

ضحكتُ، وعدتُ لأبني معه المدينة الرملية. وضعتُ حفنة من الرمال فوق الكومة التي قال أنها ستكون موقف سيارات متعدد الطوابق لبات مان.

ـ أتمنى أحياناً أن أقضي يوماً واحداً فقط دون أن أكون النحلة الصغيرة!

«نظر تشارلي إليّ وكان العرق يتصبب من تحت القناع».

ـ لماذا؟

ـ حسناً! من الصعب أن تصبح نحلةً صغيرة! فقد تعرضتُ للكثير من المشاكل! فقد وضعوني في السجن، وكان عليّ أن أكون قوية. عندها تعلمتُ لغتكم وكيفية النطق بها. لأنني لم أكن سوى فتاة قروية. ليتني أعود لأكون تلك الفتاة القروية من جديد، لأفعل ما تفعله الفتيات القرويات! أود أن أبتسم لرجال القرية، وكم أتمنى أن أقوم بأمور حمقاء عندما يكتمل القمر. والأكثر من كل هذا، أتمنى أن

أستعمل اسمي الحقيقي مرةً أخرى!

«توقف تشارلي وهو يحمل مجرفته عالياً في الهواء»

ـ لكن النحلة الصغيرة هو اسمك الحقيقي!

ـ امممممممم، إن النحلة الصغيرة، اسم من أسماء الأبطال الخارقين كاسم بات مان! فأنا لدي اسم حقيقي مثلك يا تشارلي!

ـ ما هو اسمك الحقيقي إذاً؟

ـ سأقول لك اسمي الحقيقي إن خلعت زي بات مان الآن!

«عبس تشارلي»

ـ في الحقيقة، لن أخلع زي بات مان أبداً!

ـ حسناً يا بات مان . . . ربما في وقتٍ آخر!

«بدأ تشارلي يبني حائطاً رملياً بين البراري وضواحي المدينة»

ـ امممممممم

«بعد فترةٍ وجيزة، جاء لورانس إلينا».

ـ سآخذ مكانكِ . . . اذهبي إلى ساره وحاولي التفاهم معها!

ـ لماذا؟ ما الخطب؟ لما لم تأتِ معك؟

«أخذ لورانس نفساً عميقاً، يبدو عليه الضيق نوعاً ما»

ـ فقط اذهبي إليها لو سمحت!

«عندما ذهبتُ إليها، كانت ماتزال مستندةً إلى السور. . .»

ـ ذلك الرجل اللعين!

ـ أتقصدين لورانس . . . ساره؟

ـ صحيح إنني أشعر بالراحة أحياناً، عندما يكون برفقتي، لكن ألا يحق لي التحدث عن آندرو قليلاً؟

ـ هل كنتما تتشاجران؟

ـ لايزال لورانس منزعجاً لوجودك هنا! يشعر بأنه مهمش!

ـ ما الذي قلته عن آندرو؟

«نظرت ساره عبر النهر»

ـ أخبرته أنني كنت أرتب مكتب آندرو ليلة أمس. فتصفحتُ بعض ملفاته. كنت أريد التحقق من الفواتير التي يجب سدادها فقط. لأتأكد من أننا لا ندين لأحد بأي مبلغ من المال...شيئاً من هذا القبيل! وقد تبين لي بأن آندرو لم يتوقف عن التفكير بما حصل على الشاطئ، فقد ظننتُ بأنه قد نسي كل ذلك، لكن يبدو أنه لم ينسى شيئاً. اكتشفت بأنه يقوم ببحثٍ دراسي، لا بد أنه كان يملك عشرين مجلداً في مكتبه حول نيجيريا وحرب النفط والأعمال الوحشية! لا أعرف حتى كم منكم لجأ إلى المملكة المتحدة بعدما حصل لقريتكم! إن آندرو يملك حقيبة كاملة من الوثائق حول قضايا اللجوء والاعتقال . . .

ـ هل قرأتها؟

ـ ليست جميعها، فلديه ما يستغرق شهرٍ كامل لقراءته تقريباً! كان يترك ملاحظاته الخاصة على كل وثيقة! كانت ملاحظات شديدة الدقة . . . يكتب الكثير من التفاصيل. قرأتُ فقط بعض الأوراق. وكان ذلك كافياً لمعرفة ما الذي كان يشغل تفكيره. لقد قرأتُ تقرير المفتشين حول مراكز احتجاز المهاجرين. ذكريني، كم من الوقت بقيت محتجزةً عندهم؟

ـ عامين كاملين!

ـ أووووا يا عزيزتي المسكينة! لم أكن أدرك أنهم كانوا يعاملونك بتلك الوحشية! كنت أعتقد أنكم تقيمون في مكان يشبه فندقاً شديد الحراسة. هل صحيح أنهم كانوا يجعلون غرفكم باردة عن عمد؟ هل صحيح أنكم كنتم تقدمون طلباً خطياً للحصول على حبة باراسيتامول؟

ـ عندما كنا نشعر بأننا على وشك أن نصاب بالصداع...كنا نقدم طلباً قبل أربع وعشرين ساعة من بداية الألم!

ـ هذا صحيح إذاً! فقد ألقى آندرو الضوء على هذه الفقرة التي تقول، « لقد كانت أساليب الإذلال مهينة. لم نرَ في حياتنا أسوأ من هذه الطريقة في تسليم المناشف الصحية!».

هل كنتم تقدمون طلباً لتحصلوا عليها أيضاً؟

ـ كانوا يعطوننا إياها بالدور، كان علينا أن نملأ استمارة قبل ذلك!

«تمسكت ساره بالسور الحديدي»

ـ أعتقد إنني أعلم لماذا آندرو سلط الضوء على تلك الفقرة. أقصد، ربما كان يعتقد بأن الناس يستخلصون زبدة الشيء، لكنهم لا يعيرون اهتماماً إن كنت تقدمين طلباً خطياً لتحصلي على فوط صحية! ألا أقول الحقيقة؟.

«توقفت ساره عن الكلام ونظرت إلى تشارلي ولورانس اللذان كانا يضحكان ويركلان بعضهما بالرمل. وعندما بدأت تتكلم من جديد، كان صوتها هادئاً»

أظن أن آندرو كان يؤلف كتاباً! هذا ما أخبرت لورانس به!

ـ هذا ما سبب غضبه؟

ـ أخبرته بأنني قد أكمل ما بدأه آندرو! فوضحتُ له أنني قد أدرس ملاحظاته، وأقوم ببعض البحوث حول مراكز الاحتجاز! وربما أقوم بتأليف الكتاب بنفسي!

ـ هل قلت كل ذلك للورانس؟

ـ لقد جن جنونه، أعتقد أنه يغار من آندرو . . .

«كنا نحدق في النهر لفترةٍ طويلة، هبّ نسيمٌ خفيف فوق سطح الماء . . . تشبثت بالسور الحديدي بقوة وحاولت أن أدفع شجاعة هذه المدينة للتدفق إلى عظامي مرةً أخرى . . .»

ـ ساره؟ أريد البوح لك بمشاعري اتجاه لورانس!

«نظرت سارة في عينيّ بحدّة»

« أعرف ما تودي قوله، ستقولين بأن لورانس يهتم بنفسه أكثر من اهتمامه بي. ستطلبين مني أن أكون حذرة منه، عندها سأقول لك بأن كل الرجال هكذا، لكنك لا زلت صغيرة وتنقصك الخبرة الكافية لإدراك ذلك!. بعدها سنتشاجر نحن الاثنتان، وبعد ذلك سأصبح بائسةً تماماً، لذلك أتوسل إليكِ ألا تتكلمي عن هذا الأمر بعد الآن... اتفقنا؟».

ـ أرجوك يا ساره!

ـ لا أريد سماع أي شيءٍ آخر! لقد اخترتُ لورانس، وأبلغ من العمر اثنان وثلاثون عاماً يا عزيزتي! إن كان عليّ أن أوفر حياةً مستقرة لتشارلي، فعليّ أن أبدأ بالتشبث بآرائي! لم أكن متشبثة بآندرو! والآن لدي لورانس! وأعرف أنه ليس مثالياً. . . أنت محقة! لكنني لم أعد قادرة على الهروب أكثر من ذلك!

«أخذت ساره نفساً عميقاً وبدأ لسانها يرتجف»

في بعض الأحيان، عليكِ أن تواجهي حياتك وجهاً لوجه!.

«حدقت ساره في وجهي لفترةٍ طويلة، ثم اقتربت مني وتعانقنا بحرارة . . .»

أووووا يا نحلتي الصغيرة . . .

«تعانقنا لفترةٍ طويلة، وبعد فترة وجيزة من التزام الصمت التام، استرجعت ساره قواها ومسحت رأسها براحة يديها كي تربط شعرها . . .»

اذهبي والعبي مع تشارلي ولورانس . . . عليّ إجراء مكالمة هاتفية!

«ابتسمت ساره في وجهي . . . ثم ذهبتُ إلى تشارلي ولورانس اللذان كانا يلعبان ويجمعان الحجارة المستديرة الصغيرة عند الحافة المليئة بالوحل. ليقوما بقذفها في النهر بعد ذلك. عندما اقتربتُ منهما، استمر تشارلي بقذف الحجارة، بينما التفت لورانس نحوي . . .»

ـ هل أقنعتها بالتخلي عن ذلك؟

ـ تتخلى عن ماذا؟

ـ عن فكرة تأليف الكتاب! الكتاب الذي كان آندرو يعده، وهي قررت أن تكمله . . . ألم تخبرك بذلك؟

ـ بلى، أخبرتني! لم أقنعها بالتخلي عن الكتاب، لكنني لم أقنعها أيضاً بالتخلي عنك !

«ابتسم لورانس»

ـ أحسنت . . . أترين؟ يبدو أننا نتفهم بعضنا بشكل لا بأس به! هل ساره لا تزال منزعجة؟ لما لم تأتِ معك إلى هنا؟.

ـ إنها تجري مكالمة هاتفية ضرورية . . .

ـ هذا عادل بما يكفي . . .

«حدقنا ببعضنا لفترةٍ وجيزة . . .»

ـ ما زلت تظنين بأنني نذل . . . أليس كذلك؟

«لم أجبه . . .»

أنا لست كذلك . . . صدقيني . . . سأساعدك إن ساعدتني!

ـ وكيف تريدني أن أساعدك؟

ـ ارحلي فقط أيتها النحلة الصغيرة، ارحلي بهدوء وبدون مشاكل . . .

ـ فكرتُ بذلك من قبل . . .

ـ ما الذي منعك إذاً ؟ النقود...؟ سأزودك بها!

ـ ستدفع لي نقوداً كي أرحل؟

ـ لا تسيئي فهمي! ليس سهلاً، أن تبدأي حياتك هنا من دون مال، ستحتاجينه من أجل الطعام والسكن! لا أريدك أن تعيشي في الشارع! هذا كل ما في الأمر!

«كان لورانس يمسك بحجرٍ صغير، فأخذته من بين أصابعه، كان حجراً ناعماً ودافئاً...قلبتة بين أصابعي وصقلته برطوبة راحة يدي . . .»

ـ ما اسم زوجتك، لورانس؟

ـ ليندا . . .

ـ وأولادك؟

ـ سونيا . . . ستيفن . . . وطفل رضيع اسمه سيمون!

ـ امممم

كنت ألعب بالحجر بأصابعي، ثم ألقيتهُ على الرمل . . .

ـ عليك أن تعود إلى زوجتك وأولادك!

نظر إليّ . . . فشعرتُ ببعض الأسى لأنني لم ألاحظ أي معنىً في نظرته. حدقتُ في مياه النهر، لفتني الانعكاس الأزرق للون السماء فيها، وشردتُ بعيداً، حينها أدركتُ بأني عدتُ للتحديق في عيون الموت من جديد. يبدو أن الموت يلاحقني أينما ذهبت.

سمعتُ فجأةً صوت نباح كلاب قريب، فقفزت من الرعب. لكنني شعرتُ بالاسترخاء عندما التفت إلى الوراء، فقد كانت مجرد كلاب بدينة مدللة تتجول مع صاحبها. ثم رأيتُ ساره قادمة نحونا، تحمل هاتفها النقال، وعند وصولها... أخذت نفساً عميقاً وابتسمت:

ـ اتصلتُ بالمجلة . . . أودكما أن تعلما بأمرٍ مهم!

«كانت ساره على وشك إخبارنا بأمرٍ ما...،لكنها ترددت فجأةً ونظرت حولها، مستطلعة...»

ـ أين تشارلي؟

سألتنا بهدوء في البداية، ثم أعادت السؤال مرةً أخرى بصوتٍ عالٍ، كانت تنظر إلينا وهي تصرخ...

بحثتُ بين الأولاد اللذين كانوا يبنون قلاعاً من الرمل بجانب النهر. وبالرغم من انخفاض ارتفاع مستوى المياه، وضيق ضفة النهر . . . لم أستطع إيجاد تشارلي.

كانت ساره تناديه وتصرخ، تشارلي . . . تشارلي . . . أووووا يا إلهي! تشارلي!

هرعنا نبحث جميعاً تحت أشعة الشمس الحارقة . . . ونحن نناديه مراراً وتكراراً بصوتٍ عالٍ.

لقد اختفى تشارلي . . .

ـ أووووا يا إلهي! لا بد أن أحداً قد اختطفه . . . يا إلهي . . . تشارلي!

استولى الرعب على قلبي تماماً، لم أستطيع الحراك وبينما ساره تصرخ متأثرة بفقدانها لطفلها...اتسعت عينيَّ دهشةً، حين نظرتُ إلى أنفاق الصرف الصحي المظلمة عند جدار الجسر، حدقتُ للعمق، ولفترةٍ طويلة. وجدتُ أن كوابيس الليل جميعها اجتمعت هناك في ذلك المكان المخيف، فلم أعد قادرة على تحديد بداية ونهاية كل كابوس. ترى؟ هل خرجت الأدغال من سيارة الـ « جيب» أم خرجت الـ « جيب» من أعماق الأدغال؟

الفصل العاشر

عانقتُ النحلة الصغيرة لوقتٍ طويل. ثم طلبتُ منها الذهاب لتلعب مع تشارلي ولورانس، لأنه كان يجب أن أجري مكالمة هاتفية. بعد أن ذهبت، تمسكتُ بالسور الحديدي للجسر، كتمسكي بذكرياتي مع آندرو، وهاتفي النقال الذي كان يرتج في يدي. كانت التغطية ممتازة في مركز المدينة. فنحن نادراً ما نستخدم الهاتف الأرضي عندما نكون هناك. فالاتصالات تتم بسرعة البرق، كالفكرة التي يتم استيعابها بوضوح جلي. شعرتُ بترنحٍ في بطني، فحدثتُ نفسي، حسناً...سأقوم بذلك الآن قبل أن أغير رأيي . . . اتصلتُ برئيس المجلة وأخبرته برغبتي في التخلي عن وظيفتي كمحررة في المجلة بعد الآن. أجابني بأنه ما من مشكلة في ذلك.

استفسرت منه.

ـ يبدو أنك لم تسمعني جيداً! حدث أمرٌ مهم في حياتي، ويجب أن أنهيه بسرعة! لذلك يجب أن أستقيل!

ـ أجل، أجل . . .، سمعتك جيداً، لا بأس، سأعين أحداً آخر غيرك!

«أغلق الخط في وجهي . . . فقلتُ أووووووا.»

صُدمتُ لمدة دقيقة، ثم ابتسمت...، كانت أشعة الشمس لطيفةً. في البداية ...أغمضتُ عينيَّ وسمحتُ للنسيم الخفيف بمسح آثار السنوات السابقة عني. تطلب مني الأمر مكالمة هاتفية واحدة فقط. بكل بساطة، قد يحتار الناس أحياناً بطريقة تغيير حياتهم...لكن ذلك بدى سهلاً للغاية.

كنت أفكر بالطريقة التي سأكمل فيها كتاب آندرو. والبراعة تكمن طبعاً في

جعل الكاتب مجهولاً. فقد كانت تلك مشكلة آندرو الدائمة، كان يكره أن يُذكر اسمه في القصة. لكن ماذا لو كنا إحدى الشخصيات الرئيسية في هذه القصة؟ بدأتُ أفهم كيف كان آندرو يناضل من أجل كتابتها. لا عجب أنه كان يقوم بذلك في السر.

عزيزي آندرو...كم أشعر بأنني قريبة منك الآن أكثر مما كنت في يوم زواجنا؟. بعد أن أخبرتُ النحلة الصغيرة بأنني لا أريد سماع رأيها بعلاقتي مع لورانس، لأنني كنت أعرف مدى حاجتي له، همس اللسان المتشعب من الحزن في أذني الأولى، عودي للقيام بكل ما كنت تحبين فعله، ثم همس في أذني الثانية،استمري!

«رنّ هاتفي، فاتسعت عينيَّ من الدهشة، إنها كلاريسا . . .»

ـ ساره؟ أخبروني للتو أنك قدمت استقالتك...هل جننت؟

ـ أخبرتكِ أنني كنت أفكر بذلك منذ فترة . . .

ـ ساره! قضيتُ وقتاً طويلاً وأنا أفكر بإقامة علاقات عابرة مع لاعبي كرة القدم!

ـ ربما عليك أن تجربي ذلك!

ـ أو ربما عليك أن تأتي إلى المكتب حالاً وتخبري رئيس المجلة بأنك متأسفة جداً لأنك تمرين بفترة صعبة، اطلبي منه أن العودة إلى العمل، أتوسل إليك يا ساره أن تعودي!

ـ لكنني لم أعد أرغب بتلك الوظيفة! أريد أن أعود صحفية كما في السابق! أريد أن أحدث تغييراً في هذا العالم!

ـ الجميع يريد تغيير هذا العالم يا ساره، لكن هناك وقت ومكان مناسب لفعل ذلك. هل تدركين مدى خطورة تركك للعمل بهذه الطريقة؟ إنك تمرين بأزمة منتصف العمر فقط، فأنت مثل رجل في منتصف العمر، اشترى سيارة حمراء وعاشر جليسة الأطفال...

«شعرتُ بالقشعريرة عندما فكرتُ بما قالته كلاريسا. أصبح النسيم أكثر برودةً الآن ... ساره...؟

ـ أووووو كلاريسا، معك حق، فأنا مشوشة. هل تظنين أنني رميتُ حياتي في القمامة؟

ـ أريدك فقط ألا تتسرعي في اتخاذ قراراتك!

ـ حسناً!

ـ اتصلي بي . . .

ـ سأفعل . . . كلاريسا . . .

ـ عزيزتي . . .

ـ شكراً لك . . .

أقفلتُ هاتفي، ونظرتُ إلى النهر. فعندما وصلنا، كانت مياهه تتدفق باتجاه المصب البري حيث المياه الجامحة للبحر الشمالي. بينما أصبح الآن يندفع عائداً باتجاه أوكسفورد والمنازل الهشة البيضاء لبلدة هينلي. من الصعب معرفة ما نريده من الحياة، خصوصاً عندما نصل إلى الاختيار الفعلي.

نزلتُ للضفة الضيقة من النهر، وأخبرت النحلة الصغيرة ولورانس بأنني اتصلتُ بالمجلة وهناك أمر مهم عليهم معرفته، لكن بدى عليهما البأس. فكان كل منهما يقف بعيداً عن الآخر. فأدركتُ أن صداقتهما شبه مستحيلة...فحدثتُ نفسي، أووا يا إلهي! كم كنت حمقاء عندما ظننت بأنهما قد يتفهمان بعضهما!

دائماً ما كنت أعتبر نفسي امرأةً عملية، بإمكانها التكيف بسهولة. ففكرتُ فوراً بالاتصال برئيس المجلة لأخبره بأنني كنت مخطئة، وقد تسرعت. سأخبره بأنني ارتكبتُ خطأً فادحاً، خطأً عظيماً قد يدمر حياتي. لقد نسيتُ تماماً بأنني كنت مجرد فتاة حساسة من مدينة "سريي". وقد جعلتني قوة وابتسامة النحلة الصغيرة أقع في حبها. وكما تعلمون، فالحب يجعل منا مغفلين أحياناً. ظننت لمدة أسبوع كامل بأنني شخص أفضل... قادر على إحداث بعض التغيير. وغاب عن ذهني تماماً أنني كنت امرأةً عاملة، هادئة وحكيمة، توجه كل تركيزها على وظيفتها . . . أليس ذلك غريباً؟ أنا متأسفة للغاية! هل أستطيع الآن أن أستعيد حياتي السابقة؟كنت أمسك بيد كلٍ من لورانس والنحلة الصغيرة، لكنني انتبهتُ فجأةً أن تشارلي ليس معهم . . .

ـ أين تشارلي؟

«كانت لحظةً مؤلمة بالنسبة لي...أتريدون معرفة ما فعلته؟ قمتُ بالبحث عنه

طبعاً...عند أعلى وأسفل النهر...كنت أناديه باسمه بصراخٍ عالٍ...وأحدق بوجه كل طفل كان يلعب هناك، على أمل أن يتحول أيٌ منهم إلى تشارلي...صرختُ وصرخت... لقد ضاع ولدي.

سيطر عليّ الهلع، وفقدت القدرة على التفكير. شعرتُ أن جريان الدم قد توقف عن التدفق في دماغي وتحول إلى عينيّ وساقيّ ورئتاي. كنت أركض محدقةً بالناس وأصرخ كالمجانين. فكرة مخيفة نمت في قلبي لم أستطيع اقتلاعها، وهي، «لا بد أن أحداً ما قد اختطف تشارلي».

عند نهاية الحافة الضيقة للنهر، وجدتُ هناك بعض الدرجات التي تقود إلى حائط السد. فصعدتُها، لأرى عائلة صغيرة تخيم عند أول الدرج. كانت الأم بشعرٍ طويلٍ أسمر محمر مهترئ عند نهاياته، تجلس القرفصاء، حافية القدمين، محاطة بقشور وبقايا الطعام. تقرأ مجلة «بي بي سي» الموسيقية، حيث كانت تمدها فوق الحصيرة، وتضع إحدى قدميها فوق زاوية المجلة كي لا تطير صفحاتها بفعل الرياح. رأيتُ خاتماً فضياً رفيعاً يُحيط إصبع قدمها، وبجانبها طفلتان ترتديان فستانين مخططين من القطن، وتأكلان شرائح جبنة «كرافت» مباشرةً وبدون خبز. كان زوجها أشقراً قصيراً، قوي وممتلئ الجسم. يجلس على مسافة تبعد قليلاً عن زوجته. مستنداً على السور وهو يتكلم عبر هاتفه النقال، «لا أنصحكم بزيارة جزيرة ـ لانزاروت ـ في هذه الأوقات. عليكم الذهاب إلى مكان أكثر أماناً ككرواتيا أو مراكش...فأموالكم ستحقق مكاسب أفضل هناك!»

كنت مرهقةً من الركض...فنظرت الأم في وجهي . . .

ـ هل أنت على ما يرام؟

ـ لقد فقدتُ ولدي . . .

«حدقت بي بذهول...فابتسمتُ ابتسامةً غبية، لم أستطيع التحكم بتعابير وجهي... كان عقلي وجسدي يتصارعان حول فكرة مفادها أن تشارلي قد تعرض لاعتداء من أحد الشواذ محبي الأطفال. يبدو المشهد سخيفاً للغاية، امرأة مرتبكة يحيط بها حشد من السياح. بدى حزني فظيعاً وفظاً، فكنت في صراع بين منزلتي الاجتماعية وخوفي الشديد، شعرتُ بالخجل. وأدركتُ أنه عليّ التحدث بهدوء

مع تلك السيدة، فإن كنت أريد الحصول على معلومات تساعدني على إيجاد تشارلي في وقت قصير، يجب التواصل معها بوضوح وبدون انفعال. فأنا أكافح طيلة حياتي كي أحقق التوازن بين الهستيريا والسلوك السليم.

ـ إنني متأسفة كثيراً...لكنني فقدتُ ولدي . . .

وقفت المرأة على قدميها ونظرت من حولها. كانت حركاتها بطيئة للغاية. شعرتُ بنفسي كمن يتحدث إلى الهواء، كانت منشغلة بنفسها كثيراً.

لابد أنك لمحته...، فهو يرتدي زي بات مان، هل مر من هنا؟

ـ «ببلادة» أنا آسفة . . . لم أرَ أحداً . .

كل كلمة تخرج من فمها تحتاج لوقت طويل كي تنتهي. بدى الوضع وكأنها تحفر جملها على الحجر، كنت قد نزلتُ نصف الدرج قبل أن تنتهي من إجابتي. ومن خلفي سمعتُ زوجها يقول، «يمكنك الذهاب في رحلة منظمة وبسعر مخفض عن طريق الرحلات الجماعية، وعندما تصل يمكنك الحصول على إقامة مريحة». أكملتُ نزول الدرج وأنا أصرخ بحثاً عن تشارلي. وصلتُ للمكان، حيث كان تشارلي يبني فيه قلعته الرملية. ركلتُ المبنى الرملي بقدمي وأنا أصرخ باسمه. فتملك الناس والأطفال الذعر. بحثتُ عنه تحت كومة الرمال، مع أنني أعرف بأنه لن يكون مختبأً هناك، كنت أحفر في كل مكانٍ بارزٍ أجده. وجدتُ علبةً هشة، ودولاب مكسور لكرسي نقال. كانت أظافري تنزف من شدة الحفر.

كانت النحلة الصغيرة ولورانس يحدقان بي باندهاش، فتذكرتُ آخر فكرة منطقية خطرت في بالي، بما أنه ليس تحت الرمل، ولم يصعد الدرجات، فلا بد أنه...يا إلهي...لابد أنه وقع في النهر!

عندما راودتني فكرة سقوطه في النهر، شعرتُ بدماغي قد توقف عن العمل، وأن هلع استولى على صدري ليبتلع جسدي بالكامل. نزلت إلى النهر، كانت المياه قد وصلت إلى خصري، حدقت للأسفل، حيث المياه الموحلة البنيّة...أصرخ على طيور النورس المشدوهة وعلى الأكياس البلاستيكية العائمة، وأنادي تشارلي... تشارلي....

لاحظتُ شيئاً مستلقياً تحت الماء...فوق الوحل...لم يكن واضح بسبب التموجات بدى وكأنها عظام لوجه أبيض اللون. فتوغلت يدي وسحبته إلى الأعلى، لم يكن سوى قناع مطاطي مكسور، يبدو أنه قذف بقوة في النهر. عندما حملته في يدي، كان يقطر بقطرات من الماء الموحل، والأسوأ من ذلك أنني سحبتُ القناع من الماء باليد التي كنت أحمل فيها هاتفي النقال، خسرتُ هاتفي، خسرتُ حياتي التي ضاعت في أعماق النهر أو وسط الرمال.

كنتُ أقف مبللةً وسط النهر، أحمل في يدي قناعاً، لم أعرف ماذا أفعل الآن ...انتبهتُ لصوت صفير أتى من فتحات محجر عيون القناع...كان ذلك بتأثيرٍ من النسيم الخفيف. هنا، بدأتُ فعلاً بالصراخ الحقيقي. . .

تشارلي أورورك . . . عمره أربعة سنوات . . . بات مان . . . ما الذي كان يدور في ذهني؟ تشارلي صاحب الأسنان المثالية الصغيرة البيضاء، ونظرته الثاقبة وهو يحارب الأشرار. . . تشارلي من كان يعانقني بحرارة عندما أكون حزينة. . . منذ رحلة أفريقيا، بدأتُ أتنقل بين عوالم عديدة، آندرو ولورانس. . . النحلة الصغيرة ومهنتي. . . لكنني لم ألجأ إلى العالم الذي أنتمي إليه! لما لم أزر عالم تشارلي؟ كنت أوبخ نفسي، ولدي . . . طفلي الجميل . . . لقد اختفى . . . اختفى . . . لقد اختفى وكأنه لم يكن في هذه الحياة، شغلتني عنه مشاكلي. كنت أنظر إلى الأيام الخالية أمامي، يبدو أنها لن تنتهي أبداً. . .

تحول صراخي فجأةً إلى همس، فتنفستُ اسمه بعمق، تشارلي... بعدها أحسست بأن أحد ما قد وضع يده على كتفي...كان ذلك لورانس . . .

ــ علينا أن نكون منظمين في عملية البحث...ساره؟ ابرحي مكانك وتابعي الصراخ عالياً كي يعرف طريق العودة في حال سمعك. سأذهب وأطلب المساعدة من الناس. أما أنت أيتها النحلة، فخذي هاتفي النقال واصعدي إلى الجسر كي تتصلي بالشرطة، عندها انتظري قدومهم لترشديهم على مكاننا عندما يصلون...، اتفقنا؟

سلم لورانس هاتفه للنحلة الصغيرة، ثم التفت إليّ...فحدقتُ به بصمت...

أعرف أن ذلك مبالغ فيه، لكن الشرطة جيدون في ذلك! أنا متأكد من أننا سنعثر عليه قبل أن يصلوا! لكن في حال لم يتحقق ذلك، ربما يقومون بما يمكن أن يفي بالغرض!

«طلبتُ من النحلة الصغيرة»

ـ هيا إذاً، اتصلي بهم بسرعة . . . الآن!

«كانت النحلة الصغيرة واقفةً، وهي تمسك هاتف لورانس بيدها. تحدق بي وبلورانس بعينين مشدوهتين من شدة الخوف. لم أفهم لما التلكؤ في الذهاب لتطلب مساعدة الشرطة».

هيا . . . اذهبي بسرعة!

«حدقت بي وقد ازداد خوفها»

ـ ماذا؟ الشرطة؟

«تذكرتُ أنها لا تعرف رقم الطوارئ»

تريدين الرقم؟ أووووا طبعاً! طبعاً! الرقم هو، ٩٩٩

«لم تتحرك من مكانها . . . لم أعرف ماذا حصل لها . . .»

ـ تريدينني أن أتصل بالشرطة، ساره؟

حدقتُ في وجهها، كانت عيناها تتضرعان...بدت خائفة، بعد ذلك تغيرت ملامح وجهها، حيث أصبحت قوية، متينة وعازمة، فأخذت نفساً عميقاً وأومأت برأسها لي. وعندما التفتت، مشت ببطء في البداية، ثم ركضت بسرعةٍ كبيرة وصعدت إلى الجسر. وضع لورانس يده على فمه . . .

ـ أووا تباً. . الشرطة!

ـ ماذا؟

ـ لا، لا شيء . . . لا يهم!

هرع لورانس للبحث عن تشارلي، وتابعت أنا الصراخ من جديد . . . تشارلي... تشارلي...كان السياح ينظرون إليّ باستغراب، وهبّ النسيم فشعرتُ بالبرد يخترق ثيابي المبللة. في البداية بدأتُ أنادي تشارلي كي يسمع مصدر الصوت ويحضر إلى هنا. لكنني أصبحتُ أنادي اسمه الآن كي أسمعه أنا، لأتأكد من استمرارية وجوده، أدركتُ أن صاحب هذا الاسم هو كل ما أملك في هذا العالم. ثم جاءني صوت لورانس من الخلف . . .

ـ ساره؟ لا تقلقي...لقد وجدته!

«كان لورانس يحمله بين ذراعيه. يبدو متسخاً وكانت قبعة بات مان ثقيلة من الماء. ركضتُ إليه وحملته بين ذراعي وعانقته بحرارة. غامرةً وجهي في رقبته، وأتنفس رائحة عرقه المالح وقذارة خزان الصرف الصحي، فانهمرت دموعي . . .»

ـ تشارلي! أنت عالمي! أنت كل دنيتي!

ـ اتركيني ماما...أنت تؤلمينني!

ـ أين كنت أيها الشقي؟

«أشار بإصبعه إلى أنفاق الصرف الصحي المظلمة»

ـ كنتُ في كهف بات مان!

«ابتسم لورانس وأشار إلى الجدار حيث السد . . .»

ـ لقد كان موجوداً داخل إحدى أنابيب الصرف الصحي!

ـ أووووا تشارلي! ألم تسمع صوتنا ونحن ننادي عليك بصوتٍ عالٍ؟ ألم ترانا من بعيد ونحن نبحث عنك؟

«ابتسم تشارلي من تحت قناع بات مان . . .»

ـ كنت أختبئ!

ـ لماذا...؟ لما لم تخرج...؟ ألم تدرك كم كنا قلقين عليك؟

«أطرقَ بحزن إلى الأرض . . .»

ـ كانت النحلة الصغيرة ولورانس غاضبين ولم يلعبا معي، لذلك ذهبتُ لألعب في كهف بات مان!

ـ أووووا تشارلي! أمك كانت حائرة قليلاً! كم كنت مغفلة وأنانية! أعدك تشارلي، لن أكون مغفلة بعد اليوم! أنت العالم بأكمله بالنسبة لي! لن أنسى ذلك ما حييت! هل تعرف كم كنت تعني بالنسبة لي؟

«انتهز تشارلي الفرصة وابتسم ابتسامته الماكرة . . .»

ـ هل نأكل الآيس كريم؟

عانقتُ ولدي بحنان وشعرتُ بأنفاسه الدافئة، كان قد نام وألقى برأسه الصغير على رقبتي...أحسستُ ومن تحت القماش الرمادي الرقيق لزي بات مان، بضغط العظام الناعمة تحت جلد تشارلي، فنظرتُ إلى لورانس بامتنان . . .

ـ شكراً لك . . .

الفصل الأخير

بعد خمس دقائق . . . وصلت الشرطة. كانوا ثلاثة رجال في سيارة فضية ذات خطوط برتقالية وزرقاء لامعة مرسومة على الجانبين، وشريط طويل من الأضواء على السطح. يقودون السيارة بين الحشود، ثم توقفوا بجانب الدرجات التي تؤدي إلى حافة الرمل. عندما خرجوا، اعتمروا قبعاتهم. يرتدون قمصاناً بأكمام قصيرة وسترات سوداء سميكة ذات شريط أبيض وأسود. كانت السترات مليئة بالجيوب. فكانت تحتوي على الهراوات وأجهزة راديو وأصفاد وأشياء أخرى لم أعرف أسماءها. قلتُ في نفسي، ربما سيحب تشارلي ذلك . . . فهؤلاء الرجال من الشرطة لديهم أدوات أكثر بكثير من بات مان.

«لو قلتُ ما رأيت لفتيات قريتي في نيجيريا، عندها عليّ أن أوضح لهم بأن رجال الشرطة في المملكة المتحدة لا يحملون البنادق».

عندها سيقولون:

ـ واووو! لا مسدس؟

ـ لا مسدس!

ـ واااووو! هذه المملكة مقلوبة رأساً على عقب! حيث تستطيع الفتيات فيها أن تعرض صدورهن، لكن رجال الشرطة فيها يخفون بنادقهم!

«هنا...عليّ أن أوافقهن الرأي وأقول لهن»

ـ أنتن على حق...قضيت معظم أوقاتي في هذه البلاد وأنا مشوشة!

«أغلق رجال الشرطة أبواب السيارة بعنف، فبدأتُ أرتجف...عندما تكون

لاجئاً، ستولي انتباهاً مفرطاً للأبواب...متى تُفتح...ومتى تُغلق...صوتها أثناء الفتح والإغلاق...وقوفك بقرب إحدى جوانبها!

شعرتُ برغبة كبيرة في الهرب. لكن بدلاً من ذلك، أشرتُ بإصبعي أمامهم وقلتُ لهم:

ـ هذا هو المكان!

اقترب مني أحد الرجال، بينما نزل الرجلان الآخران أسفل الدرج. لم يكن الشرطي الذي اقترب مني يكبرني في السن كثيراً. كان طويلاً بشعرٍ برتقالي اللون. حاولتُ الإبتسام له، لكنني لم أستطع. فقلبي ينبض بسرعة كبيرة. كنت خائفة أن تخذلني لغة الملكة التي تعلمتها. فجأة حدث أمرٌ بغاية الروعة. رن الراديو في جيب الشرطي، سحبه من جيبه، سمعت صوت رجل منه. . . كان يخبره، لقد وجدوا الطفل! ابتسمتُ ابتسامةً مشرقة كالشمس. لكنه عبس في وجهي، فتلاشت ابتسامتي.

لو كان ذلك الشرطي يشتبه بي، كان بامكانه الاتصال بمسؤولي الهجرة. بعد ذلك، سيقوم أحدهم بضغط زر على الكمبيوتر للبحث عن ملفي الخاص. . . عندها سيتم نفيي من هنا. سأكون ميتة. لكن دون أن يطلق أحدهم عليّ النار. لذلك أدركت لماذا لا يحمل الشرطي بندقيةً هنا. في الدول المتحضرة، يقومون بقتلك بضغطة زر واحدة. حيث تتم عمليات القتل في أماكن بعيدة عن مركز البلاد، داخل بناء مليء بالأجهزة الحديثة وفناجين القهوة الفاخرة.

حدقتُ في الشرطي، لم تكن ملامح وجهه قاسية، لكن وجهه لم يكن لطيفاً أيضاً. يبدو شاباً، فلم يكن لديه تجاعيد على وجهه. وتبدو عليه قلة الخبرة. يشبه البيضة التي لم تفقس بعد. لو فتح لي هذا الشرطي باب سيارة الشرطة، وطلب مني أن أدخل إليها، سيكون الوضع في الداخل طبيعياً بالنسبة له، لكنني سأرى أشياءً لن يراها هو. حيث سأرى تربة الأدغال الحمراء تغطي المقاعد. سأرى نبات المنيهوت المجفف المرمي في قعر الآبار. كما سأرى الجمجمة البيضاء عند لوحة عدادات السيارة. ومن ثم سأرى نباتات الأدغال وهي تنمو من بين الشقوق الصدئة لأرضية السيارة، وتخرج من خلال الزجاج الأمامي المكسور.

بالنسبة لي... عندما يفتح باب هذه السيارة، سأكون قد خرجتُ فوراً من إنكلترا، ودخلتُ مباشرةً إلى المشاكل التي تنتظرني في نيجيريا. هذا هو ما يقصدونه عندما يقولون، في هذه الأيام «أصبح العالم قريةً صغيرة».

نظر الشرطي باتجاهي بتعابير لم أفهمها . . .

ـ ما علاقتكِ بالطفل الذي تلقينا بلاغاً أنه مفقود؟

ـ لا شيء مهم . . .

ـ إنه إجراء تقليدي سيدتي . . .

«اقترب مني خطوةً، فتراجعتُ خطوةً... لم أستطع تمالك أعصابي...»

تبدين متوترة إلى حد كبير سيدتي!

«قال ذلك ببرودة أعصاب كبيرة وهو يحدق في عينيّ».

ما اسمك، قولي لي، ما اسمك الآن؟

كنت أقف بثبات وعزم بقدر ما أستطيع، ثم أغلقتُ عينيَّ للحظة، وعندما فتحتهما نظرتُ في وجهه ببرود وتكلمتُ معه بنبرة الملكة اليزابيث الثانية. . .

ـ كيف تجرؤ؟

بدى ذلك ذو نفع في البداية، حيث تراجع الشرطي نصف خطوة إلى الوراء، وكأنني ضربته. وجه نظره نحو الأرض وقد احمر وجهه لثانية واحدة. ثم لاحظتُ القوة تعود إليه من جديد. . .

«هنا . . . بدأتُ بأول خطوة للهرب . . .»

ما حدث معي يختلف تماماً عن الفيلم الذي حدثتكم عنه من قبل «الرجل الذي كان على عجلة من أمره». لم أكن أملك دراجة نارية أو طائرة لأهرب بها. في عقلي، تخيلتُ كيفية هروبي بين الحشود، حيث رأيتُ الشرطي وهو يطاردني بأقصى سرعة ويصيح، أوقفوا تلك الفتاة! عندها سأعبر الشارع وسأسمع صوت زمور وفرامل السيارات الغاضبة، وسألمح رجلاً بديناً يصيح، ماذا تظنين نفسك فاعلة؟

بعد ذلك، سأركض وأركض وسأصادف بائع فواكه طازجة. وطبعاً سيتبعثر التفاح

والبرتقال في جميع أنحاء الطريق. وسألتقي برجلين يحملان لوحاً زجاجياً ضخماً، وسأتدحرج من تحته، بينما سيرتطم رجال الشرطة به. وعندها سأنفد بريشي وأقول، أووا . . . كان ذلك وشيكاً!

هكذا تشكلت القصة في مخيلتي الواسعة. لكن في الواقع لم يكن هناك أية مطاردة. فعندما بدأت ساقاي بالتحرك، مد الشرطي يده وأمسك بذراعي. لو كانت حياتي فيلماً سينمائياً، لن يكون هناك مشهد مطاردة مثير. حيث سيتذمر المشاهدون وسيلقون بأكياس الفشار على الأرض، ويقولون لبعضهم، تلك الفتاة الأفريقية الغبية . . . لم تستطع حتى أن تصل إلى حافة الشاشة!

فتح الشرطي الباب الخلفي للسيارة، ووضعني في الداخل. بينما ترك الباب مفتوحاً وهو يتكلم بالراديو الذي بحوزته. كان شاباً نحيلاً ذو معصمين نحيلين وكرشٍ صغير. جسده يشبه جسد ضابط الاعتقال في مركز احتجاز المهاجرين الذي قابلته في ذلك الصباح حين أطلقوا فيه سراحنا. كانت السيارة تفوح برائحة السجائر والنايلون.

ـ سنبدأ باسمك . . . ما اسمك؟

شعرتُ بحزن شديد لأنني لم أستطع إعطاءه اسمي الحقيقي، لأنه بذلك سيكتشف من أكون. لكنني لم أكن أملك أيضاً اسماً زائفاً مثل . . . جينيفر سميث أو أليسون جونز . . . لا تكون أسماءٌ كهذه حقيقة بدون وثائق رسمية تثبت وجودها. فلا شيء حقيقي بدون شاشة موضوعة داخل بناء ضخم يحوي أجهزة كمبيوتر حديثة وفناجين قهوة فاخرة في مركز المملكة المتحدة.

جلستُ باعتدال على المقعد الخلفي لسيارة الشرطة، وأخذتُ نفساً عميقاً وأنا أنظر مباشرةً في عينيه . . .

ـ اسمي النحلة الصغيرة!

ـ أرجو أن تهجيه لي . . .

ـ ا-ل-ن-ح-ل-ة ا-ل-ص-غ-ي-ر-ة . . .

ـ هل هو اسمك الأول؟ أم لقب العائلة سيدتي؟

ـ إنه اسمي الكامل . . .

تنهد الشرطي ثم التفت وتحدث مع شخص ما عبر الراديو . . .

ـ ألو . . . سيرا رقم أربعة تحت السيطرة . . . أرجو أن ترسلوا وحدة إلى هنا... لدي امرأة غريبة الأطوار، بحاجةٍ لفحص بصمات الأصابع!

ثم التفت إليّ... لم يكن يبتسم... قال لي:

انتظري هنا!.

أُغلق باب السيارة، وبقيتُ جالسةً لفترة طويلة. كان الجو حاراً في المقعد الخلفي. أنتظرتُ إلى أن جاء فريق آخر من الشرطة وأخذوني معهم. ثم وضعوني في شاحنة صغيرة. لمحتُ ساره وتشارلي ولورانس من الشباك الخلفي للشاحنة. كان لورانس يعانق ساره بذراعه، وكانت ساره تتكئ عليه.

حضر لورانس وساره لزيارتي تلك الليلة. كنت أجلس في زنزانة مؤقتة في مخفر الشرطة في «فوكسهول». فتح الحارس باب الزنزانة بعنف، فدخلت ساره حاملة تشارلي وهو نائمٌ بين ذراعيها، مسنداً رأسه على كتفها. كنت سعيدة لأنني رأيت تشارلي سالماً. بكيتُ وقبلتُ خده، فانتفض في نومه، ثم تنهد. استطعتُ رؤية ابتسامته البريئة عبر فتحات قناع بات مان على وجهه. جعلني ذلك أبتسم أنا أيضاً.

خارج الزنزانة...سمعتُ لورانس يتجادل مع ضابط الشرطة.

ـ إنها مبالغة! ألا تظن ذلك؟ لا يمكنك ترحيلها! فلديها منزل تقيم فيه هنا! ولديها كفيل أيضاً!

ـ لست أنا من يضع القوانين هنا يا سيد! مسؤولو الهجرة هم من يحدد ذلك!

ـ لكن بالتأكيد يمكنك أن تعطينا بعض الوقت كي نحل القضية! فأنا أعمل لدى وزارة الداخلية! يمكنني الحصول على طلب بالتعاون معك!

ـ أرجو المعذرة يا سيد! فلو كنتُ أعمل في وزارة الداخلية، وعلى علم طيلة الوقت بأن إقامة تلك الفتاة غير قانونية. . . عندها سأبقي فمي مغلقاً!

«هذا بالضبط ما فعله لورانس. فلم أعد أسمع صوته بعد ذلك».

مد الحارس رأسه داخل الزنزانة،

ـ لديك خمس دقائق فقط . . .

«كانت ساره تبكي»

ـ لن أسمح لهم بترحيلك! سأجد وسيلةً ما! لا تخافي!

«حاولتُ الابتسام بصعوبة . . .»

ـ لا تتعبي نفسك، ساره! فهذا قد يؤثر على علاقتك مع لورانس!

«ضغطت ساره وجهها على رأس تشارلي، وأخذت نفساً عميقاً...»

ـ ربما يستطيع لورانس العناية بنفسه الآن. . .

ـ ساره؟ أنا لا أستحق مساعدتك! فأنت لا تعرفين كل شيء عني . . .

ـ أظن أنني أعرف عنك ما يكفي . . .

ـ أرجوكِ استمعي إليَّ، ساره. فقد كنتُ موجودة عندما قتل آندرو نفسه . . .

ـ ماذا تقولين؟

ـ أجل، ولو حاولتُ قصارى جهدي، لتمكنتُ من إنقاذ حياته . . .

«حدث صمتٌ طويل بيننا. كان الصوت الوحيد الذي سمعته هو تنفس تشارلي أثناء نومه . . .»

«دخل الحارس إلى الزنزانة»

ـ انتهى الوقت...اخرجي من فضلك سيدتي، سنبقيها عندنا هذه الليلة . . .

«سقطت دمعةٌ على الأرضية الإسمنتية للزنزانة، فنظرتُ في وجه ساره . . .»

ـ أتعلمين ما الأسوأ من ذلك؟ لو حاولتُ أنا بذل قصارى جهدي، لاستطعتُ إنقاذ آندرو أيضاً!

عندما خرجت . . . أغلق باب الزنزانة، أحدث صوتاً عنيفاً كصوت الرعد في أول أيام الموسم الماطر.

حضر الرجال إلى الزنزانة في الساعة الرابعة صباحاً. كانوا ثلاثة ضباط من مسؤولي الهجرة، رجلين وامرأة واحدة. يرتدون لباساً موحداً، وسمعتُ صوت أحذيتهم فوق مشمّع الرواق. كنتُ مستيقظةً طيلة الليل منتظرة قدومهم. كنتُ ما زلت بالثوب الصيفي المزين بشريط حول الرقبة، والذي أعطتني إياه ساره.

نهضت واقفة عندما فتحوا باب الزنزانة، فخرجنا جميعاً، أغلق الحارس الباب

بعنف مرةً أخرى. كانت تمطر في الخارج. وضعني الضباط في الشاحنة الصغيرة. الطريق مبلل والمصابيح الأمامية للسيارة تسلط الضوء عليه. الشباك الخلفي نصف مفتوح، ورائحة القيء تفوح من الجزء الخلفي للشاحنة. بينما كان الهواء الخارجي يفوح برائحة لندن.

على طول الشوارع، كانت نوافذ الشقق السكنية هادئة ومكسوة بالستائر المغلقة. ها أنا، اختفيتُ دون أن يلاحظني أحد. كما قيدتني الضابطة بالجزء الخلفي للمقعد الأمامي.

ـ ما من داعٍ لتقيدني . . . أين سأهرب برأيك؟

«نظرت الضابطة متعجبة...»

ـ إنكِ تتكلمين الإنكليزية بطلاقة! معظم اللاجئين الذين نعتقلهم لا ينطقون بكلمةٍ واحدة!

ـ اعتقدتُ لو تعلمتُ لغتكم! عندها سيكون بإمكاني البقاء هنا!

«ابتسمت الضابطة . . .»

ـ لا يهم إن تعلمتِ لغتنا أم لا، المشكلة أنك لا تنتمين إلينا!

انعطفت الشاحنة عند الزاوية في نهاية الشارع. نظرتُ من النافذة الخلفية للشاحنة إلى البيوت الصغيرة الشبه منفصلة وهي تختفي من بعيد. خطر ببالي تشارلي وهو غارق في النوم تحت لحافه... تذكرتُ ابتسامته الشجاعة، وأصابتني الحسرة لأنني لن أراه ثانيةً. فبدأت دموعي تنهمر.

ـ أخبريني أرجوكِ . . . ماذا يعني أن أنتمي إلى هنا؟

«التفتت الضابطة ونظرت إليّ مرة أخرى . . .»

ـ حسناً...يجب أن تكوني بريطانية! كما يجب عليك أن تشاركينا قيمنا. . .

«أدرتُ وجهي نحو النافذة ونظرتُ إلى المطر في الخارج . . .»

بعد ثلاثة أيامٍ، حضر فريق جديد من الضباط وأخرجوني من زنزانة أخرى مؤقتة، ثم وضعوني داخل حافلة صغيرة مع فتاة أخرى. أخذونا إلى مطار هيثرو. عندما وصلنا، وقفنا عند طابور الانتظار في محطة المطار، ثم وضعونا في غرفة

صغيرة. كنا جميعاً مقيدين من معاصمنا. طلبوا منا الجلوس على الأرض، فلم يكن هناك مقاعد. جلست أنا وعشرون شخصاً في الغرفة . . . رجال ونساء. كان الجو حاراً جداً داخل الغرفة. كان الهواء خانقاً، وجدتُ صعوبةً في التنفس. تحرسنا امرأة شرطية عند باب الغرفة، تحمل بيدها هراوة وعلبة من رذاذ الفلفل حول حزامها. سألتها:

ـ ما الذي يحدث هنا؟

ـ ما يحدث هو، أن عدداً كبيراً من الآلات الجوية التي نسميها «طائرات»، ستنطلق من هنا، ثم ستهبط على امتداد طويل من مدرج المطار، نسميه «المهرب». لأن هذا المكان اسمه «المطار»، وقريباً جداً ستنطلق إحدى هذه الطائرات لتهبط في البلاد التي جئتِ منها. باختصار . . . ستكونين على متن الطائرة، أجل...، سواء أحببت ذلك أم لا. هل لديكم أية أسئلة أخرى؟.

انتظرنا لفترةٍ طويلة. أُخذ بعض الأشخاص من الغرفة...أحدهم كان يبكي بشدة، وكان الآخر نحيلٌ وغاضبٌ، يحاول مقاومة الحارسة، فضربته بالهراوة مرتين على معدته، مما جعله يتوقف عن المقاومة. استغرقتُ في النوم. وحين استيقظت، رأيتُ فستاناً أرجوانياً وساقين بنيّتين تقفان أمامي . . .

ـ إيفيت؟

وعندما التفتت المرأة لتنظر، أدركتُ أنها ليست إيفيت. شعرتُ بالحزن في البداية لأنها لم تكن هي، لكن تحول حزني إلى فرح، لأنني أدركتُ أنها ربما تكون حرّةً الآن. تخيلتها وهي تسير في شوارع لندن مرتدية شبشبها الأرجواني وترسم حاجبيها، وتشتري رطلاً من السمك المملح وتضحك ضحكتها المعروفة، رافعةً رأسها نحو السماء الزرقاء الصافية.

«عندما ابتسمت . . . عبست المرأة في وجهي»

ـ ما مشكلتك؟ هل تعتقدين أنك ذاهبة في إجازة؟

ـ أجل . . . أعتقد أنها ستكون إجازة العمر . . .

ـ لا تمزحي في أمور كهذه . . .

أدارت ظهرها ولم تكلمني مرة أخرى. وعندما استدعوها كي يسفروها،

خرجت من الغرفة بكل هدوء، دون أن تلقي نظرةً أخيرةً عليّ.
عندما رأيتها تخرج، أدركت بأن الموقف أكثر جديةً الآن. فبدأتُ أشعر بالخوف الآن. للمرة الأولى أحسستُ بالرعب من فكرة العودة إلى بلادي. بدأتُ أبكي بشدة، ورأيتُ دموعي تنهمر على البساط البني القذر المفروش في الغرفة.

لم يقدموا لنا الطعام أو الماء، فشعرتُ بالدوار. وبعد بضع ساعاتٍ، حضروا لأخذي من الغرفة. وجعلوني أصعد مباشرةً إلى الطائرة. وطلبوا من الركاب المرموقين أن يفسحوا لي الطريق. كانوا جميعاً يحدقون بي. دخلت إلى القسم الخلفي للطائرة، حيث المقاعد الأخيرة في الصف الأخير قبل المراحيض. وجعلوني أجلس في مقعدٍ قرب النافذة، برفقة حارس بجانبي. كان رجلاً ضخماً حليق الرأس، يضع قرطاً ذهبياً، ويرتدي قميص «نايك» أزرق وبنطال «أديداس» أسود. فك الرجل قيودي، ففركتُ معصمي كي يعود جريان الدم إلى يديّ.
ـ أنا آسف، أعرف أن ذلك مزعج لكِ، فأنا أيضاً لا أحب هذا التصرف!
ـ إذاً لماذا تقوم به؟
«وضع الرجل حزام الأمان»
ـ هذه وظيفتي...، ألا تدركين ذلك؟
«أخرج مجلةً من جيب المقعد الموجود أمامه، ثم فتحها. كانت المجلة تحوي صور ساعات يد رجالية وموديلات من الطائرات الاسفنجية التي يشترونها للأطفال».
ـ عليك أن تعمل في وظيفة أخرى إن لم تعجبك هذه الوظيفة . . .
ـ لم أختر هذه الوظيفة بنفسي يا حلوتي، فأنا ببساطة لا أملك المؤهلات الكافية... ألا ترين؟. كنت أعمل بشكل متقطع. وطبعاً لا يمكن منافسة شركة «بولسكيس» الآن. فالبولنديون يعملون نهاراً كاملاً في سبيل الحصول على مديحٍ عابر وعمل مرهق. وها أنا ذا أرافق فتاةً مثلك إلى رحلة العمر، خسارة... أليس كذلك؟ أراهن على أنك مؤهلة للتوظيف أكثر مني. عليكِ أن ترافقيني عندما نصل إلى ذلك المكان الذي سنذهب إليه . . . ما اسمه؟

ـ اسمه نيجيريا . . .

ـ أجل، بالضبط، الطقس حار هناك. أليس كذلك؟

ـ أكثر حرارةً من إنكلترا . . .

ـ اعتقدتُ ذلك، فتلك الأماكن تكون حارةً في العادة . . .

عاد الرجل لتصفح مجلته. يلعق إصبعه ليقلب الصفحة. رأيتُ وشماً مرسوماً على مفاصل أصابعه، نقاط صغيرة زرقاء. ساعة يده ذهبية وضخمةً. لكن لونها الذهبي بدى باهتاً. لاحظتُ أنها تشبه إحدى الساعات المعروضة على صفحات المجلة.

وبعد أن تصفحها جيداً، التفت إليّ مرةً أخرى وقال . . .

ـ يبدو عليك عدم الاكتراث . . . أليس كذلك؟

«تجاهلته . . .»

ـ لا مشكلة، فهذا لا يزعجني أبداً. على الأقل هذا أفضل بكثير من العمل في محطات المياه!

ـ محطات المياه؟

ـ عادةً، يبكي الكثيرون من الأشخاص الذين أرافقهم في طريق العودة إلى ديارهم. ليس النساء فقط، بل الرجال حتى . . . صدقيني! في إحدى المرات، كنت أحرس رجلاً قادماً من زمبابوي. كان يبكي كالطفل مدة ست ساعات متواصلة. كانت دموعه في كل مكان . . . أنا لا أمزح. كنت في موقفٍ محرج حينها. وبدأ المسافرون يحدقون بي وبه طيلة الوقت. كنتُ أواسيه، لكن دون جدوى. فقد استمر في بكائه وهو يتمتم بلغةٍ لم أفهمها. أنا حزين من أجلكم يا عزيزتي، لكن بالنسبة لذلك الرجل، لم أصدق متى وصلنا إلى بلاده، كي أرتاح من نحيبه. كم كانت وظيفةً مربحة! بعدها حظيت بإجازةً لمدة ثلاثة أيام، نزلتُ فيها في فندق الشيراتون. لم أمل مشاهدة فريق سكاي سبورتس وأنا أحك مؤخرتي مدة ثلاثة أيام، ودفعوا لي أجري مرة ونصف. فقد كان كبار المقاولين يجنون المال. وأنا أعمل لديهم الآن. إنها شركة هولندية تدير كل شيء، فهم يديرون مراكز الاعتقال وعمليات الترحيل إلى الوطن أيضاً. وبالتالي يكسبون المال في الحالتين.

إن حبسوكِ أو أعادوكِ إلى وطنك. إنهم الرابحون في النهاية، أليس هذا لطيفاً؟

ـ أجل بالتأكيد . . .

«بدأ ينقر صدغة بأطراف أصابعه . . .»

ـ على ما يبدو، هذه هي طريقة العيش في هذه الأيام، هذا ما يسمونه بالاقتصاد العالمي!

بدأت الطائرة تبتعد عن مدرج الإقلاع. ورأيتُ بعض شاشات التلفاز تهبط من السقف. عرضوا لنا فيلماً يتحدث عن وسائل الوقاية والأمان. حيث علمونا ماذا نفعل في حال امتلأت الحجرة بالدخان. كما أرشدونا إلى مكان سترات النجاة في حال اضطررنا للهبوط في مياه البحر. لكنهم لم يدلونا على طريقة للنجاة في حال تم نفينا إلى بلاد قد نُقتل فيها بسبب أحداث دامية شهدناها في الماضي. ثم قالوا لنا بأن هناك معلومات إضافية حول وسائل الأمان، مكتوبة على بطاقة السلامة الموجودة داخل جيب المقعد الأمامي لكل راكب.

«سمعتُ صوت هدير عالٍ، فقلتُ في نفسي»

لابد أننا خدعنا! اعتقدتُ أننا ذاهبون في رحلة، لكن في الحقيقة، بدى وكأنهم على وشك تدميرنا! حدث بعض التسارع وبدأ كل شيءٍ بالاهتزاز، مما زاد من إحساسنا بالرعب. وفجأةً توقف الاهتزاز بالكامل وهدأ الضجيج، فشعرتُ بألم فظيع في معدتي. نظر إليّ الحارس الذي كان يجلس بجانبي، ثم ضحك . . .

ـ استرخي يا حلوتي، فقد أصبحنا فوق السحاب!

بعد الإقلاع . . . سمعنا الطيار يقول عبر نظام الاتصال الداخلي، الطقس مشمس وجميل اليوم في أبوجا!

أدركت حينها أنني الآن لا أقيم في أي بلد. فقلتُ في نفسي، وأخيراً أيتها النحلة الصغيرة . . . أنت تحلقين في السماء، ضغطتُ أنفي على زجاج نافذة الطائرة، ونظرتُ إلى الغابات والحقول والشوارع المليئة بالسيارات والناس وقد بدو أصغر حجماً من بعيد. شعرتُ بأن حياتي قد انتهت بالفعل. فقد استطعتُ أن أرى منحنى العالم من مكانٍ عالٍ في السماء وأنا جالسة وحدي.

ثم سمعتُ صوتاً لطيفاً ومألوفاً يناديني . . .

ـ نحلتي الصغيرة؟

التفتُ إلى الوراء ورأيتُ ساره تقف في الممر وتبتسم لي. وكان تشارلي يمسك بيدها ويبتسم لي هو أيضاً. كان يرتدي زي بات مان وكانت نظرته توحي بأنه قد انتصر على كل الأشرار.

ـ نحن داخل السماء . . . أليس كذلك؟

ـ كلا يا تشارلي . . . نحن في السماء . . .

«لم أصدق ما رأيته. اقتربت ساره مني ووضعت يدها على يدي . . .»

ـ لقد اكتشف لورانس الرحلة التي حددوها لك! إنه ليس سيئاً كما كنت تتخيلين! لم نستطع تركك تسافرين لوحدك يا نحلتي! أليس كذلك يا بات مان؟

«هز تشارلي رأسه موافقاً وتكلم برسميّة»

ـ نعم بالتأكيد . . . لأنك صديقتنا!

«لم يفهم الحارس ما الذي يجري . . .»

ـ يبدو أن كل شيءٍ يبدو واضحاً الآن . . .

أفسح الحارس مجالاً لساره وتشارلي كي يجلسا بقربي. فتعانقنا نحن الثلاثة، وبدأتُ أبكي. استدار المسافرون للوراء كي يحدقوا في تلك المعجزة. وحلقت الطائرة بنا نحو المستقبل بمسافة خمسمئة وخمسون ميلاً في الساعة.

بعد فترة . . . قدموا لنا بعض الفول السوداني وعلب كوكا كولا صغيرة. شرب تشارلي علبته بسرعةٍ كبيرة، حيث كانت الكوكا كولا تخرج من أنفه. وبعد أن نظفت ساره وجه تشارلي، التفتت إليّ:

ـ كنت أسأل نفسي دائماً لما لم يترك آندرو أية ملاحظة لي؟ وبعد أن أمعنتُ التفكير في ذلك، أدركتُ أن هذا ليس من عادته، فهو لم يكن يحب أن يكتب عن نفسه! على كل حال، لقد ترك لي شيئاً أفضل بكثير من الملاحظة!

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لقد ترك لي قصة . . .

عندما وصلنا إلى « أبوجا»، فتحوا لنا أبواب الطائرة، فتغلغلت الحرارة والذكريات

في داخلي. مشينا عبر مدرج الإقلاع حيث الهواء العليل. وفي مبنى المطار، سلمني حارسي إلى السلطات.

ـ وداعاً. . . حظاً موفقاً يا حلوتي . . .

كانت الشرطة العسكرية تنتظرني في غرفةٍ صغيرة. يرتدون لباساً موحداً ونظارات شمسية ذات إطار ذهبي. لم يستطيعوا اعتقالي لأن ساره كانت معي. فقد بقيت بقربي طيلة الوقت . . .

ـ إنني صحفية بريطانية! إن فعلتم سوء بهذه المرأة، سأرفع تقريراً في ذلك!

تردد فريق الشرطة العسكرية، فاتصلوا بقائدهم. دخل القائد بلباسه التمويهي الموحّد وقلنسوته الحمراء. كانت وجنتاه مليئتان بالندوب(الوشوم) العشائرية. وعندما نظر في وثيقة ترحيلي، حدق في وجوهنا أنا وساره وتشارلي. بعد ذلك وقف لفترةٍ طويلة وهو يحك بطنه ويهز برأسه . . .

ـ لماذا يرتدي هذا الطفل زياً كهذا؟

«نظرت ساره مباشرةً في عينيه»

ـ يظن أن لديه قوىً خارقة . . .

ـ «ابتسم القائد» حسناً، بما أنني مجرد إنسان عادي، لن أعتقل أحداً منكم في الوقت الحالي . . .

عندها ضحك الجميع. لكن الشرطة العسكرية تعقبت سيارة التاكسي التي جئنا بها من المطار. كنت خائفة كثيراً، لكن ساره أمسكت يدي بقوة . . .

ـ لن أتخلى عنك!. طالما أنا وتشارلي هنا، فأنت بأمان . . .

بقي رجال الشرطة ينتظرون خارج الفندق، حيث نزلنا هناك مدة أسبوعين ونحن تحت المراقبة.

كانت نافذة غرفتنا تطل على «أبوجا» بكامل روعتها. الأبنية الطويلة تمتد لأميال. كم كانت نظيفةً وضخمة! بعضها مكسواً بالزجاج الفضي الذي كان يعكس صورة الجادات الطويلة. كنت أشاهد الغروب الذي انعكسَ على الأبنية لتبدو حمراء

اللون. بقيت أشاهد هذه المناظر طيلة الليل . . . ولم أستطيع النوم!

عندما حل الصباح، أشرقت الشمس بين الأفق ومستوى الغيوم. كما توهجت فوق القبة الذهبية للجامع، بينما بقيت الأبراج الأربعة الطويلة مضاءة بالمصابيح الكهربائية. كان المنظر جميلاً. خرجت ساره إلى الشرفة ورأتني أحدق في الأفق . . .

ـ انظري . . . إنها مدينتك، هل أنت فخورة؟

ـ لم أكن أعرف أن بلادي تحوي جمالاً كهذا! لا زلتُ أحاول إقناع نفسي بأن هذه بلادي فعلاً!

بقيتُ واقفةً طيلة الصباح، حيث اشتدت حرارة الطقس أكثر، وبدأت الشوارع تزدحم بسيارات الأجرة وعربات السكوتر والبائعين المتجولين المحملين بصناديق متأرجحة من القمصان والحجابات والأدوية.

كان تشارلي يجلس في الداخل، يشاهد الرسوم المتحركة تحت تبريد المكيف. وكانت ساره تنشر كل أوراق آندرو فوق طاولة عريضة منخفضة. كنا نضع فوق كل كومة من الأوراق حذاءً أو مصباحاً أو كأساً كي لا تتطاير بسبب الهواء القادم من المراوح الماهوغانية المعلقة في السقف. كانت ساره تشرح لي كيف ستؤلف الكتاب الذي بدأه آندرو. . .

ـ أحتاج إلى جمع قصص أخرى، كقصتك! هل تعتقدين أننا قادرات على فعل ذلك هنا، دون أن نذهب إلى الجزء الجنوبي للبلاد؟

لم أجبها على سؤالها. نظرتُ إلى بعض الأوراق، ثم عدتُ وخرجتُ إلى الشرفة مرةً أخرى . . . جاءت ساره ووقفت بجانبي . . .

ـ ماذا بك؟

نظرتُ إلى الأسفل حيث يقف رجال الشرطة العسكرية. كان اثنان منهما يتكئان على السيارة، يرتديان زياً موحداً أخضر اللون، بالإضافة إلى القلنسوة والنظارات الشمسية. نظر واحدٌ منهم إلى الشرفة، وكلمَّ زميله عندما رآنا. فرفع زميله رأسه لينظر إلينا أيضاً. حدق الاثنان في الشرفة لفترةٍ طويلة. ثم أشعلا سيجارة وجلسا في السيارة. . . واحد في المقعد الأمامي . . . والآخر في المقعد الخلفي. وقد تركوا

الأبواب مفتوحة، وأراحوا أحذيتهم العسكرية الثقيلة على الطريق الاسفلتي.

ـ ربما جمع القصص فكرة غير جيدة!

ـ لا أتفق معك في ذلك! أعتقد أنها الوسيلة الوحيدة التي نضمن فيها سلامتك!

ـ ماذا تقصدين؟

«رفعت ساره عيناها عن الشارع . . .»

ـ المشكلة إننا نملك فقط قصةً واحدة، وهي قصتك. وطبعاً. . . قصة واحدة تجعل موقفك ضعيفاً. لكن إن استطعنا الحصول على مئة قصة . . . عندها سيكون موقفك قوياً. لو استطعنا أن نخبرهم بأن ما حصل لقريتك، قد حصل لمئات القرى، عندها ستكون الأمور في صالحنا. نحتاج أن نجمع قصصاً لأناس تعرضوا لنفس الظروف التي تعرضت لها. على أن تكون قصصاً لا يمكن إنكارها. ثم سنحيلها إلى محامي، وسنخبر السلطات بذلك. ولو حدث شيءٌ ما لك، سنرسل هذه القصص مباشرةً إلى وسائل الإعلام. أترين؟ أعتقد أن هذا ما كان آندرو يسعى إليه في كتابه! كانت هذه هي طريقته في إنقاذ فتاةٍ مثلك.

ـ ماذا لو لم تهتم السلطات بما ستنشره وسائل الإعلام؟

ـ هذا محتمل! لا أدري.! ما الحل برأيك؟

نظرتُ إلى أبراج « أبوجا» العالية. كانت الأبنية الضخمة تلمع تحت أشعة الشمس الحارقة. وكأن أحداً أيقظها من نومها بدفقة من الماء البارد على وجهها، وعاد ليكمل طريقه . . .وكأن هذه الأبراج لا قيمة لها. . .

ـ وأنا أيضاً لا أعرف، لا أعرف كيف تجري الأمور في هذه البلاد! عندما كنتُ في سن الرابعة عشر، كانت بلادي عبارة عن ثلاثة حقول من المنيهوت، وشجرة ليمبا واحدة...وبعد ذلك، جئتُ إلى بلادك! لذلك لا تسأليني كيف تسير الأمور في بلادي . . .

ـ امممممم! إذاً ما الذي تريدين منا أن نفعله؟

نظرتُ من الشرفة إلى المدينة. وأدركتُ للمرة الأولى كم هي واسعة. حيث كان هناك مساحات واسعة بين الأبنية الضخمة. كنتُ أعتقد أن تلك المساحات

الخضراء المظلمة عبارة عن حدائق ومنتزهات. لكنني أدركت الآن أنها مجرد مساحات فارغة لتشييد أبنية جديدة. كانت «أبوجا» مدينة غير مكتملة بعد. وكان من المثير أن أعرف أن عاصمة بلادي فيها مساحات خضراء واسعة تبنى عليها آمال جديدة، وأنا أرى أن هذه البلاد تحمل أحلامها داخل حقيبةٍ ممزقة.

«ابتسمتُ لساره»

ـ دعينا نذهب لنبدأ بجمع القصص . . .

ـ هل أنت متأكدة من أنك ترغبين بذلك؟

ـ أريد أن أكون جزءاً من قصة هذه البلاد،

«ثم أشرتُ بإصبعي إلى المساحات الفارغة»

أترين؟ لقد تركوا مكاناً لي . . .

«أمسكت ساره يدي بقوة . . .»

- حسناً . . .

- لكن ساره؟

- نعم؟

- هناك قصة أخرى عليك أن تكوني على علم بها . . .

قلتُ لها، ما حدث عندما كان آندرو يقتل نفسه؟. كانت القصة صعبة السرد، كما كان من الصعب سماعها.

بعد ذلك، دخلتُ أنا غرفة الفندق، بينما لزمت هي مكانها وحيدة على الشرفة. جلستُ على السرير مع تشارلي الذي كان يشاهد الرسوم المتحركة، بينما كنتُ أنا أراقب ساره من بعيد وهي ترتجف من البكاء.

في اليوم التالي، بدأنا العمل. في الصباح الباكر، نزلت ساره إلى الشارع وقدمت مبلغاً كبيراً من المال للشرطة العسكرية التي كانت تراقبنا. وذلك ما جعل، عيونهم لا ترى سوى الأوراق النقدية التي قدمتها لهم ساره. لم يروا بعد ذلك سوى صندوق القفازات الموجود داخل السيارة، وبطانة جيوب لباسهم الموحّد. لكن شرطهم الوحيد كان هو العودة قبل غروب الشمس كل مساء.

تكمن وظيفتي في البحث عن أشخاص يخشون التكلم مع صحفية أجنبية.

لكنني سأقنعهم بالتحدث مع ساره، لأنني سأوضح لهم كم هي طيبة وحنونة. وطبعاً سيصدق هؤلاء ما أقوله، لأن قصتي ستكون تماماً كقصصهم. فقد اكتشفتُ أن هناك الكثيرون مثلي في هذه البلاد. رأيتُ أُناساً قد شهدوا أحداثاً لم ترغب شركات النفط أن يشهدها أحد، أُناس تفضل الحكومة أن يبقوا صامتين. ذهبنا إلى أنحاء جنوب شرق البلاد. كنا نركب سيارة «بيجو» بيضاء قديمة تشبه تماماً السيارة التي كان والدي يقودها. كنتُ أجلس في المقعد الأمامي، وساره تقود السيارة، بينما كان تشارلي يبتسم ويضحك في الخلف. كنا نستمع إلى الموسيقى التي تبثها محطات الإذاعة المحلية. الغبار الأحمر يهبّ في كل مكان، حتى داخل السيارة. وعندما كنا نجعل تشارلي يخلع زي بات مان في نهاية كل يوم، كانت ترتسم على جلده الأبيض، بقعتين حمراوين حول فتحتي عيني القناع.

أحياناً كنتُ أشعر بالخوف عندما نصل إلى إحدى القرى. كنتُ أراقب الطريقة التي كان الرجال ينظرون إلينا بها. فتذكرتُ كنا مطاردات أنا وشقيقتي. وتساءلتُ إن كانت شركات النفط ما زالت تقدم المال لأي قاتلٍ مأجور كي تتخلص مني. انتابني خوف شديد من رجال القرية، لكن ساره كانت تبتسم قائلةً لي:

ـ استرخي، أتذكرين ما حدث في المطار؟ لن يحدث لك أي مكروه طالما أنا هنا...

ثم بدأتُ فعلاً بالاسترخاء. في كل قريةٍ كنا ندخلها، نسمع قصصاً غريبة تقوم ساره بتدوينها مباشرةً. بدى الأمر سهلاً، وبدأنا نشعر بالسعادة. اعتقدنا بأننا قمنا بما يلزم لضمان سلامتنا. فقلتُ في نفسي، هذه خدعة جيدة . . .

في إحدى الليالي، وبعد أن مضى مدة أسبوعان على وصولنا، حلمتُ بشقيقتي نكيروكا، تخيلتها تخرج من البحر، كان سطح الماء يدور بفعل حركة شيء غير مرئي. فرأيتُ في الغور بين الموجتين، رأس شقيقتي والزبد الأبيض يتراقص من حوله. ثم خرجت بوجهها المشرق من الماء، وسارت ببطء فوق الشاطئ، فتقدمت نحوي مبتسمة مرتديةً قميصي الملون الذي جئتُ به من مركز الاحتجاز. كان القميص منقوعاً بمياه البحر المالحة. ثم نطقت اسمي لمرة واحدة. بعد ذلك لم تقل شيئاً!

عندما استيقظت ساره، قدمتُ إليها قائلة:

ـ أرجوك، علينا أن نذهب إلى البحر، يجب أن أودع شقيقتي!

«حدقت ساره في وجهي لفترةٍ طويلة، ثم أومأت برأسها. . . بعد ذلك لم نتفوه بكلمة».

في ذلك الصباح، منحت ساره مبلغاً أكبر هذه المرة للشرطة العسكرية، ثم انطلقنا بالسيارة نحو الجنوب إلى مدينة «بينن» وصلنا هناك في آخر الظهيرة. نزلنا في فندق آخر حتى صباح اليوم التالي، حيث توجهنا نحو الجنوب مرة أخرى إلى الساحل. غادرنا في وقتٍ باكر، كانت الشمس لاتزال تشرق في السماء، ونورها الذهبي الدافئ ينعكس على شبابيك السيارة. . . تنهد تشارلي في الخلف وركل المقعد الأمامي بكعبه . . .

مكتبة
t.me/t_pdf

- هل سنصل قريباً؟

«ابتسمت له ساره من المرآة الخلفية».

ـ نعم...، قريباً يا عزيزي . . .

كان الطريق يُطل على بعض قرى الصيد الموجودة هناك. وعندما وصلنا إلى الشاطئ، ضحك تشارلي من الفرح وركض إلى الرمل ليبني قلعته الرملية. جلستُ على الشاطئ قرب ساره، وتأملنا المحيط الواسع. لم نسمع سوى صوت الأمواج . وبعد فترة طويلة...التفتت ساره إليّ...

ـ أنا فخورة لأننا وصلنا إلى هذا الحد!

ـ هل تعرفين يا ساره؟ مذ غادرتُ بلادي، وأنا أفكر كيف سأشرح كل ما جرى لي لفتيات قريتي؟

«ضحكت ساره ومدت يديها إلى الأمام في الاتجاهين . . .»

- حسناً؟ كيف ستفسرين كل ما حدث لفتيات قريتك؟ أقصد، هذا سيتطلب وقتاً كبيراً. . . أليس ذلك صحيحاً؟

ـ لن أشرح شيء لفتيات القرية . . .

ـ أبداً؟

ـ بالتأكيد ساره، لأنني قررتُ اليوم نسيان كل ذلك. فنحن فتيات القرية الآن يا

ساره...أنت وأنا...، ليس عليّ تفسير شيء لأي شخص. لن أخبر أحداً بهذه القصة ما حييت . . . شكراً لأنك أنقذت حياتي يا ساره!

بعد أن أنهيت كلامي، بدأت ساره بالبكاء تأثراً. . . وكذلك أنا . . .

أصبح الطقس أكثر حرارةً، وازدحم الشاطئ بالناس. فخرج الصيادون إلى الأمواج يحملون شباكهم، كما جلس بعض المسنين على الشاطئ كي يستمتعوا بمنظر البحر. وجاءت الأمهات بصحبة أطفالهن كي يلعبوا بالماء.

ـ علينا أن نسأل بعض هؤلاء الأشخاص إن كانت لديهم قصصاً تهمنا . . .

«ابتسمت ساره وأشارت بإصبعها إلى تشارلي»

ـ أجل، لكن يمكننا الانتظار قليلاً، انظري فهو يقضي وقتاً ممتعاً!

كان تشارلي يركض ويضحك، والعديد من الأولاد يركضون ويضحكون معه، لأنه من غير المألوف في هذه البلاد أن تجد بطلاً خارقاً لا يتجاوز طوله متراً واحداً، يركض على الشاطئ بقبعته المليئة بالرمال والمياه المالحة...كان سعيداً وهو يلعب ويمرح مع باقي الأولاد.

«كان الطقس حاراً جداً، فغرستُ قدمي في رمالٍ أقل حرارة. . .»

ـ ساره؟ كم من الوقت تظنين أنه بإمكانك البقاء هنا؟

ـ لا أعرف، هل تعودين معي إلى إنكلترا؟ هذه المرة سنحاول أن تكون أوراقك نظامية!

ـ لا أظنهم يحبذون فتاةً مثلي . . .

ـ إنني مواطنة إنكليزية، وأحبذ شخصاً مثلك وبالتأكيد هناك الكثيرون مثلي . . .

ـ عندها سيقول الناس عنك أنك ساذجة . . .

ـ لا أهتم بما سيقولونه عني، دعيهم يقولون ما يشاؤون . . .

جلسنا لوقتٍ طويل ونحن نشاهد البحر . . .

وبعد الظهر، هب نسيم البحر، فغرقتُ في النوم. كانت أشعة الشمس تصل إلى نصف جسدي، بينما كان النصف الآخر محمياً تحت ظلال الأشجار.

شعرت بدفء يطال جسدي مما جعلني أسترخي مغمضة عينيَّ. أستمع لهدير

أمواج البحر، أضبط تنفسي مع حركة الأمواج...، ثم بدأتُ أحلم، حلمتُ بأننا مكثنا جميعاً في بلادي، فغمرتني السعادة لذلك، حلمتُ بأنني صحفية، تكتب تقريراً حول ما يحدث في بلادها...كنا نعيش جميعاً في نفس البيت. أنا وساره وتشارلي، بيت كبير بثلاث طوابق في «أبوجا». كان بيتاً جميلاً. . . كان مختلفاً عن البيت الذي كنتُ أقرأ فيه الكتاب المقدس المنتهي بالفصل السابع والعشرين من إنجيل متّى، كنت سعيدة بهذا المنزل الذي أحلم به، كانت الطباخة ومدبرة المنزل تبتسمان لي وتخاطبنني بلقب الأميرة، وفي كل صباح كان البستاني يقطف لي زهرةً صفراء رائحتها زكية، لأشبكها في شعري، كانت تهتز فوق رأسي بقطرات الندى العالقة من الليل عليها. . .

كان في المنزل شرفة منحوتة من الخشب المكسو بالطلاء الأبيض، وحديقة طويلة مليئة بالزهور الملونة، كنتُ أسافر في بلادي وأسمع قصصاً متنوعة، لم تكن كلها حزينة. بل سمعتُ قصصاً بغاية الجمال. لابد من بعض الخوف أحياناً. لكن في المقابل هناك الكثير من البهجة والسرور، إن أحلام بلادي لا تختلف كثيراً عن أحلام بلادكم، فهي كبيرة كقلب الإنسان... أثناء الحلم، اتصل لورانس بساره ليسأل عن موعد عودتها إلى الوطن . . . تأملت ساره الشاطئ من الشرفة، فرأت تشارلي يبني قلعته الرملية.ثم ابتسمت قائلة له:

ـ ما الذي تقوله، لورانس . . . نحن الآن في الوطن. . .

صحوتُ على صوت الأمواج، كان صوتها يشبه صوت فتح درج الكاشير بعنف، مما يجعل القطع النقدية ترتطم بقوة آخر الدرج، استمر الموج بالذهاب والإياب كمن يفتح درج النقود ويغلقه باستمرار . . .

هناك لحظة مميزة تشعر بها عندما تستيقظ من حلم تحت أشعة الشمس الحارّة. لحظة لا علاقة لها بالزمن، لحظة لا تعرف فيها من أنت، لأنك في البداية تشعر بحريّةٍ تامة، وكأنك قادر على تحويل نفسك إلى أي شيء. كقطعة نقود مثلاً، لكن عندما تشعر بالهواء الحار يلفح وجهك، عندها ستدرك أنك لست مجرد قطعة نقدية، فربما تكون ذلك النسيم الساخن الذي يهب من جهة البحر. يبدو أن الثقل الذي تشعر به في أطرافك ليس سوى وزن الملح في

مهب الريح، كما أن النعاس الحلو الذي يسحرك فجأةً، ليس سوى إرهاق ناجم عن دفع الأمواج عبر المحيط، وبعد ذلك، تدرك أيضاً أنك لست سوى نسيمٍ ساخن. في الحقيقة، يمكنك أن تسمح للرمل بلمس جلدك العاري، عندها ستشعر للحظة أنك أصبحت أنت الرمل، الذي يدفعه النسيم على الشاطئ... مجرد حبة رمل واحدة من بين المليارات.

من الجميل أن يكون المرء غير منطقي، ومن الممتع أن تدرك بأنه ما من أمرٍ ينبغي القيام به، ومن الجميل أن تعود ببساطة إلى النوم، كما تفعل حبات الرمال...، حتى تأتي الرياح لتوقظها من جديد. ثم ستدرك مرة أخرى أنك لست سوى حبة من الرمال، لأن هذا الجلد الذي لمسته الرمال لم يكن سوى جلدك أنت... وبالتالي فأنت مخلوق ذو جلد. . . وماذا في ذلك؟

ليست القصة بأنك أول مخلوق غرق في النوم تحت ضوء الشمس وهو يسمع صوت تلاطم الأمواج... فهناك المليارات من الأسماك التي انزلقت بالصدفة فوق الرمال البيضاء... لكن إن كنت تريد أن تعرف ما الفرق؟

الفرق هو أنك لست مجرد سمكة تحتضر، وفي الحقيقة أنت لستَ نائم بالفعل... وبالتالي ستفتح عينيك وتنظر إلى نفسك، ومن ثم ستقول: آ آ آه...أنا مجرد فتاة... فتاة أفريقية...إذاً، هذا ما أنا عليه... وسأبقى هكذا مدى الحياة... كسحر الأحلام المتحول الذي يهمس مرةً أخرى في هدير المحيط...

عندما استيقظتُ... وقفتُ على قدميّ، ونظرتُ من حولي. كانت هناك امرأة بيضاء تجلس بقربي في الفيء على الشاطئ. وتذكرتُ أن اسم تلك المرأة هو «ساره». كانت تنظر بعينين واسعتين إلى البحر. والخوف واضحٌ عليها . . .

ــ أووا يا إلهي! أعتقد أنه علينا الرحيل من هنا . . .

ابتسمتُ بنعس، وقلتُ في نفسي:

ــ أجل... أجل بالتأكيد! علينا دائماً أن نرحل من هنا! أينما نكون، هناك سبب وجيه يجعلنا نرغب بالرحيل... هكذا هي حياتي منذ الأزل... الرحيل... الهرب... اللجوء... بدون لحظة سلام واحدة... أحياناً عندما أتذكر أمي وأبي وشقيقتي نكيروكا... أشعر بأنني سأستمر في الهرب دائماً حتى يأتي اليوم الذي أجتمع فيه

مع الأموات...

«أمسكت ساره يدي بقوة وحاولت سحبي . . .»

ـ أيتها النحلة الصغيرة؟ استيقظي! عساكر قادمون باتجاهنا!

أخذتُ نفساً عميقاً، وشممتُ رائحة الرمل المالحة...ثم تنهدتُ ونظرتُ إلى الاتجاه الذي تنظر إليه ساره. فرأيتُ ستة عساكر قادمين من بعيد. كانت المسافة بينهم وبيننا بعيدة جداً. الطقس حار للغاية، مما جعل أشكالهم غير واضحة، وكأنهم عائمون فوق سحابة مصنوعة من مواد سحرية، تطفو بحريّة كأفكار فتاة أفريقية استيقظت للتو من أحلامها على شاطئٍ حار.

فركتُ عينيَّ من شدة الوهج، فرأيتُ فوهات بنادق العساكر تلمع تحت ضوء الشمس. كانت البنادق واضحة المعالم أكثر من الرجال الذين كانوا يحملونها. كانت تسير بانضباط وثبات، بينما الرجال يعومون في الهواء. عندها تخيلت أن تلك البنادق تمتطي الرجال كالبغال، وتسير بفخر واعتزاز وهي تلمع تحت الشمس، مدركةً أنه عندما يموت أحد الدواب الذين يسيرون تحتها، ستمتطي حيواناً جديداً بكل بساطة. هذا بالضبط ما فعله القدر الذي جاءني راكباً إلى هذه البلاد. كان ضوء الشمس يتألق فوق البنادق، ويضرب رأسي بقوة من شدة الحرّ. لم أستطع التركيز. فقد كانت الحرارة قاتلة في فترة ما بعد الظهيرة.

ـ لماذا تظنين أنهم قادمون من أجلنا يا ساره؟

ـ أنا آسفة يا نحلتي...لكنني أظن أن رجال الشرطة العسكرية في «أبوجا» قد وشوا بنا! واعتقدتُ أنني دفعتُ لهم ما يكفي كي يتستروا علينا لعدة أيام! لكن أظن أننا خُدعنا! ربما رآنا أحد ما عندما مررنا بمدينة «سابيلي».

«كنتُ أعرف أنها على حق. لكنني تظاهرتُ بعدم الاكتراث. فقد كانت تلك خدعة جيدة لتهدئة الأمور. هذا ما يسمونه، الحفاظ على دقيقة واحدة من الجزء الأكثر هدوءاً في الساعة المتأخرة من فترة ما بعد الظهيرة، في وقتٍ يسير فيه الزمن مباشرةً نحو النهاية . . .»

ـ ربما يقوم هؤلاء الجنود بالتنزه على شاطئ البحر يا ساره! في كل الأحوال...هذا

الشاطئ كبير ومليء بالأشخاص... لن يعرفوا من نكون . . .

«وضعت ساره يدها على خدي، ثم أدارت رأسي لتلتقي عيناي بعينيها . . .»

ـ انظري إلي، انظري كم أن بشرتي بيضاء! هل ترين امرأة بيضاء غيري على هذا الشاطئ؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ ربما أرسلوا من يبحث عن فتاة سوداء وامرأة بيضاء تصطحب صبياً أبيض... أرجو أن تجلسي بعيدة عنا لبعض الوقت يا نحلتي...انظري، إلى تلك البقعة النائية أسفل الشاطئ...اذهبي وانتظري هناك ولا تلتفتي إلى الوراء حتى يرحل الجنود. وإن قاموا بأخذي أنا وتشارلي...لا تقلقي، لن يستطيعوا إلحاق الأذى بنا. . .

«تمسك تشارلي بساق ساره، ثم نظر إليّ . . .»

ـ ماما؟ لماذا ستتركنا النحلة الصغيرة؟

ـ فقط لبعض الوقت يا بات مان، ستتركنا حتى يرحل الجنود من هنا!

«وضع تشارلي يديه حول خصره»

ـ لا أريدها أن تتركنا. . .

ـ يجب عليها أن تختبئ يا تشارلي! فقط لبضع دقائق . . .

ـ لماذا؟

حدقت ساره في البحر... في تلك اللحظة، كانت التعابير على وجهها، أتعس ما رأيته في حياتي. . . كانت تجيب تشارلي وتنظر في عينيّ . . .

ـ لأننا لم نقدم لها بعد ما يضمن سلامتها يا عزيزي! كنت أعتقد أنني فعلتُ ما يكفي! لكن أظن أنه علينا أن نوفر لها حمايةً أفضل! وسوف نقوم بذلك معاً يا تشارلي! لن نتخلى أبداً عن النحلة الصغيرة يا عزيزي! لأنها فردٌ من عائلتنا الآن! إن لم تكن سعيدة وآمنة! لن نكون سعداء يا تشارلي!

ـ إذاً... أريد أن أذهب معها!

ـ لا يا بات مان... أحتاج إليك كي تعتني بي وتحميني من الأشرار!

هز تشارلي رأسه موافقاً، لكنه لم يكن سعيداً... نظرتُ باتجاه الجنود، أصبحوا على مقربة نصف ميل. كانوا يتقدمون ببطء، ويتلفتون يميناً ويساراً، يتفحصون وجوه الناس على الشاطئ. كانوا يتوقفون عن المشي أحياناً، ولا يكملون سيرهم إلا بعد أن يشاهدوا أوراق مَن استوقفوه.

ـ شكراً يا ساره . . .

نزلتُ إلى منحدر الشاطئ، حيث الأمواج المندفعة نحو الصخور القاسية. نظرتُ إلى الأفق الضبابي، ثم اتبعتُ الجزء الأزرق-النيلي من المحيط من خلال ذلك الخط البعيد على طول الطريق نحو الشاطئ، حيث كان ارتطام الأمواج بالحجارة يُفرز زبداً أبيض اللون، لتعود الأمواج أدراجها وتغرق من جديد . . .

وقفت في ذلك المكان، مما جعلني الرمل الرطب، تحت قدميّ أذكر يوم أخذني الصيادون بعيداً أنا وشقيقتي. فشعرتُ بخوفٍ شديد. صحوتُ أكثر الآن...انحنيتُ إلى الماء وغسلتُ وجهي ورأسي كي أستطيع التركيز. ثم ركضتُ بسرعة على طول الشاطئ إلى المكان الذي طلبت مني ساره الانتظار فيه. فهو يبعد مسافة دقيقتين أو ثلاث دقائق. عندما وصلت، رأيتُ قمة صخرية رمادية مظلمة تطل من الأدغال. يصل ارتفاعها إلى ذروة رؤوس الأشجار، غارقة في الرمال، وتنتهي عند حد البحر. كانت الأمواج ترتطم بها بقوة، محدثةً انفجارات من الزبد الأبيض المتطاير في السماء الزرقاء الفضية.

تحت ظل الصخرة... أصبح الطقس أكثر برودةً الآن، فبدأتُ أرتجف عندما لامس جسدي الصخرة المظلمة. رأيتُ بعض نساء المنطقة يسترحن في الفيء. ويجلسن فوق الرمل الصلب ساناداتٍ ظهورهن على الصخرة العملاقة، بينما كان أولادهن يلعبون ويقفزون حولهن، ويركضون نحو حافة الشاطئ، ويضحكون ويشجعون بعضهم البعض للقفز في المياه، حيث رغوة الزبد الأبيض والأمواج المتلاطمة.

جلستُ بجوارهن وابتسمتُ لهن. فابتسموا لي ثم تحدثوا مع بعضهم بلغتهم. لم أستطع فهم ما يقولون، رائحتهن كرائحة العرق ودخان الحطب. التفتُ إلى الوراء، فرأيتُ أن الجنود قد أصبحوا أقرب الآن. كانت النساء الجالسات معي

يراقبن مجيء الجنود أيضاً. عندما اقترب الجنود أكثر ولاحظوا لون بشرة ساره، بدأت خطواتهم تتسارع. ثم توقفوا فجأةً أمامها هي وتشارلي.

وقفت ساره بثبات، فقد رأيتها من بعيد وهي تحدق بالجنود، واضعةً يداها حول خصرها. ثم تقدم رئيسهم خطوةً إلى الأمام... كان رجلاً طويلاً يحمل بندقيته الباسقة على كتفه... رأيته يقف باسترخاء ويحكّ رأسه بأصابعه، استطعتُ رؤية ابتسامته من بعيد. لقد كان يقول شيئاً ما لساره، فرأيتها تهز برأسها. ثم توقف الرجل عن الابتسام، وبدأ يصرخ في وجهها.

سمعتُ صوت صراخه، لكنني لم أسمع ماذا كان يقول. أومأت ساره برأسها ثانيةً، ثم دفعت تشارلي وراء ساقيها. كانت النساء من حولي يشاهدن ما يحدث ويقلن، واووووو... لكن الأطفال لم يلاحظوا ما الذي كان يحدث من بعيد، كانوا منشغلين باللعب.

سحب قائد الجنود بندقيته من وراء كتفه، وصوبها نحو ساره. ثم اقترب الجنديان الآخران وفعلوا مثله. صرخ الجندي في وجهها مرة أخرى، فبقيت تهز رأسها دون أن تتكلم. وعندما سحب فوهة بندقيته إلى الخلف، اعتقدتُ أنه سيطلق النار عليها. وفجأةً انشق تشارلي عن الجميع، وبدأ يركض أسفل الشاطئ، متوجهاً نحو الصخرة المظلمة التي كنت أقف عندها. كان يركض مطأطأً رأسه للأسفل، وقبعة بات مان ترفرف من وراءه. في البداية، ضحك الجنود وهم يراقبونه، لكن قائدهم لم يكن يضحك. حيث صاح في رجاله، فرفع أحدهم بندقيته وصوبها نحو تشارلي. فشعرت النساء من حولي بالانفعال، وبدأت إحداهن بالصراخ. كان صوتاً مرعباً. في البداية، اعتقدتُ أنه صوت إحدى الطيور البحرية، فأدرتُ وجهي كي أرى مصدره، ثم التفتُ مرةً أخرى إلى تشارلي، فرأيتُ قنبلةً رملية تنفجر بالقرب منه. لم أدرك مصدرها في البداية، لكنني عندما سمعتُ صوت إطلاق النار، عرفتُ أنه صوت البندقية. ثم بدأت أصرخ أنا أيضاً... بدأ الجندي يصوب فوهة بندقيته من جديد. هنا، وقفتُ وبدأت أركض نحو تشارلي. كاد قلبي يتوقف

مـن السرعـة، فصرخـتُ عـلى الجنـود ...

ـ لا تطلقوا النار، لا... لا... أنا هي من تبحثون عنها!

كنـتُ أركـض وعينـيَّ نصـف مغمضتـين، واضعـةً إحدى يـدي أمام وجهـي كي أحمي نفسي مـن الرصاصـة. كنـتُ أركـض بتذلـل كالكلـب الهـارب مـن ضربـة السـوط. ولحسـن حظـي لم تصبنـي الرصاصـة. ثـم وجـه قائـد الجنـود رجالـه بتنفيـذ أمـرٍ مـا، حينهـا أنزلـوا بنادقهـم وتوقفـوا عـن الإطلاق. بعدهـا وقـف الجميـع يراقبنا أنا وتشارلي.

حيـث التقينـا عنـد النقطـة الفاصلـة بـين الصخـرة العملاقـة والجنـود. انحنيـتُ وفتحـتُ ذراعـاي . . ، ملامـح الرعـب مرسـومةً عـلى وجـه تشـارلي الـذي اندفـع إلى حضنـي وبـدأ بالبـكاء. انتظـرتُ الجنـود ليقبضـوا عـليّ، لكنهـم لم يتحركـوا. كان قائدهـم يراقـب مـا يحـدث، رأيتـه يضـع بندقيتـه عـلى كتفـه مـن جديـد، ويحـك رأسـه بأصابعـه مـرةً أخـرى.

رأيـتُ سـاره وهـي تضـع يديهـا خلف رأسـها وتصرخ كي يدعوهـا وشـأنها، بينما كان أحـد الجنود يحـاول تقييدها.

بعـد فـترةٍ وجيـزة، توقف تشـارلي عـن البـكاء، نظر في وجهـي. أنزلتُ نصـف القناع عـن وجهـه لأراه. . . ابتسـم لي. . . فابتسـمتُ لـه. . .

فقـد منحنـي قائـد الجنـود لحظـة واحـدة مـن الكرامـة، يمنحها الإنسـان لأخيه الإنسـان، قبـل أن يرسـل جنـوده ليقبضـوا عـليّ . . . وأخـيراً هـذه هـي، اللحظـات الأكـثر هـدوء في السـاعة الأخـيرة مـن فـترة مـا بعـد الظهيرة!

فابتسـمتُ لتشـارلي، وأدركـتُ أنـه قـد أصبح حـرّاً الآن. ومـع أننـي لـن أكـون حرّةً مثلـه بعـد الآن، فأنـا سـعيدة لأن الحيـاة التـي في داخـلي سـتجد طريقها إليـه الآن. لم أشـعر بالحـزن. بـل شـعرتُ بقلبـي يحلق كالفراشـة، وأحسسـتُ أن شـيئاً ما بقي ينبـض حيـاً في أعماقـي، شـيئاً لم يعـد يرغـب بالهـروب أكـثر مـن ذلـك، شـيئاً أثمن بكثـير مـن كنـوز الدنيـا وثرواتها، إنه نعمة العيـش، لا العيش في هـذه البلاد أو تلك بشـكل خـاص، بـل الجوهـر الحقيقـي والرائـع لفكرة العيـش في هـذه الحياة.

عندما ابتسمتُ لتشارلي، أدركتُ أنه يمكن إحياء آمال كل العالم البشري بروحٍ واحدة. وهذه طبعاً خدعة جيدة أخرى. فهذا ما يسمونه بالعولمة. . .

ـ لا تقلق يا تشارلي . . . سيكون كل شيء على ما يرام!

«لم يكن تشارلي ينصت لي. فقد كان يصارع ويركل كي أفلته. ينظر من وراء كتفي إلى أولاد المنطقة وهم يلعبون عند حافة الشاطئ . . .»

ـ دعيني أذهب، قلتُ لك دعيني . . .

ـ لا يا تشارلي، فالطقس حارٌ جداً. . لا يمكنك اللعب وأنت ترتدي هذا الزي، قد تتعرض للأذى من حرارة الشمس وعندها لن تستطيع حمايتنا من الأشرار... اخلع رداء بات مان الآن، أريدك أن تكون نفسك، ثم اذهب إلى الماء كي تبرّد جسمك. . .

ـ لا . . . لا أريد!

ـ أرجوك يا تشارلي، أنا قلقة على صحتك!

«انحنيتُ على الرمال واقتربتُ منه، ثم همستُ في أذنه»

ـ تشارلي؟ هل تذكر عندما وعدتك بأنني سأبوح لك باسمي الحقيقي إن خلعت زي بات مان؟

«أومأ تشارلي برأسه . . .»

إذاً. أما زلت ترغب بمعرفة اسمي الحقيقي؟

«حنى تشارلي رأسه باتجاه واحد، وبالتالي اهتزت أذنا القناع... ثم حناه بالاتجاه الآخر. ونظر إليّ مباشرةً . . .»

ـ ما اسمك الحقيقي؟

«ابتسمتُ له»

ـ اسمي " أووا دوا "!

ـ «أووا دوا» !؟

ـ أجل . . . و «أووا دوا» تعني «السلام» . . هل تعرف ما هو السلام يا تشارلي؟

«هز تشارلي رأسه نافياً. . .»

السلام هو الوقت الذي يكشف فيه الناس عن أسمائهم الحقيقية لبعضهم البعض...

ابتسم تشارلي. ألقيتُ نظرة من وراء كتفه على الجنود وهم يتقدمون باتجاهي. كانوا يسيرون ببطء، ويوجهون بنادقهم نحو الرمال. وبينما كانوا يقتربون، بدأت الأمواج تتدفق واحدة تلو الأخرى، لتختم رحلتها النهائية. كانت تتوالى وتتوالى ...لم يكن هناك من يوقفها...كانت أمواجاً باردة بما يكفي لإيقاظ فتاة شابة من أحلامها...وكان صوتها عالياً بما يكفي ليروي حكاية المستقبل مراراً وتكراراً.

انحنيتُ وقبلتُ تشارلي من جبينه...ثم حدق في وجهي...

ـ «أووا دوا»؟

ـ نعم يا تشارلي؟

ـ سأخلع رداء بات مان الآن . . .

«وصل الجنود إلينا تقريباً. . .»

ـ هيا إذاً، أسرع يا تشارلي . . .

خلع تشارلي القناع أولاً، فاندهش أولاد المنطقة عندما شاهدوا شعره الأشقر. كان فضولهم أكبر بكثير من خوفهم من الجنود. كانوا يركضون بسيقانهم النحيلة، ليتوجهوا نحونا. وعندما خلع تشارلي ما تبقى من لباس بات مان، ورأى الأولاد جسده الأبيض النحيل. . . قالوا باندهاش، واووووووووو . . .

لم يسبق لهم أن رأوا طفلاً كهذا يقف في هذا المكان. ثم ضحك تشارلي وأبعدني عن طريقه. . . فوقفتُ بثباتٍ دون حراك، وسمعتُ من ورائي صوت أحذية الجنود وهي تطأ الرمال. كنتُ أنظر إلى الأولاد وهم يركضون مع تشارلي إلى الأمواج المتلاطمة عند الصخرة العملاقة.

شعرتُ بيد الجندي القاسية فوق كتفي. لكنني لم ألتفت إلى الوراء. كنتُ أبتسم وأشاهد تشارلي وهو يركض مع الأولاد ويرفرف بذراعيه كالمراوح، وبدأت دموع الفرح تنهمر من عيوني عندما رأيتهم يلعبون جميعاً وسط الزبد المتلألئ. كان ذلك جميلاً... وهذه الكلمة ليست بحاجة لأن أفسرها لفتيات قريتي، كما أنني لست بحاجة لأن أفسرها لكم... لأننا أصبحنا جميعاً نتكلم بلغة واحدة الآن . . .

كانت الأمواج مستمرة في اندفاعها الصاخب الرائع... أما أنا، فقد بقيتُ أراقب

مكتبة
t.me/t_pdf

كل أولئك الأولاد وهم يضحكون ويرقصون ويرشون بعضهم بماء البحر المالح تحت ضوء الشمس الساطعة. أصبحتُ أضحك وأضحك حتى أغرقت ضحكاتي صوت البحر...

إن تورّم وجهك من ضربات الحياة المبرّحة . . .
ابتسم وتظاهر بأنك شخص بدين . . .
- قول مأثور من نيجيريا -

النهاية

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة | سُر مَن قرأ
telegram @t_pdf

لا نريد أن نخبرك **الأحداث المثيرة** لهذا الكتاب.
إنها فعلاً **قصة مميزة**، ولا نريد إفسادها عليك
ومع ذلك، من حقك أن تعرف عنها قبل شراءها، لذلك سنعطيك لمحة موجزة عنها:

رواية النحلة الصغيرة، تروي قصة امرأتين، تصطدمان في يوم مشؤوم من حياتهما، وعلى إحداهن اتخاذ قرار رهيب. قرارٌ لا يرغب أحدنا في اتخاذه. وبعد عامين، تتقابلان مرة أخرى، وهنا تبدأ القصة . . .
عندما تقرأ هذه القصة، ستصبح راغباً بأن تخبر أصدقائك عنها، وعندما يتسنّى لك ذلك، لا تخبرهم رجاءً ما الذي سيحدث. فالسحر يكمن في كيفية اكتشاف أحداث القصة.

شهادة الصحافة العالمية **النحلة الصغيرة**

«النحلة الصغيرة واحدة من أكثر الشخصيات الروائية استفزازاً.. شخصيات لا تنسى.. إن كليف يسرد القصة بشكل رائع وينسجها بخفّة ونعومة، حتى في أحلك الظلمات، يرويها ببصيص أمل مشرق»...
- بوستن غلوب

«النحلة الصغيرة، رواية آسرة تماماً ... فقد قام الروائي كريس كليف بعمل مدهش... أعجوبة رائعة مشجعة في هذا الكتاب...»
- سيتل بوست إينتيليجنسر

«النحلة الصغيرة، رواية جريئة وطموحة... إن كليف يزجّ القارئ في عوالم شخصياته بثقة لا تتزعزع»
- الغارديان، المملكة المتحدة

«رواية النحلة الصغيرة ستدهشك ... رواية مثيرة ومفاجئة للغاية... مرضية تماماً ومفطرة للقلب»
- واشنطن بوست

«رواية النحلة الصغيرة، مدهشة»
- بيبول (فور ستارز
اند ا بيبول بيك)

«لكل من يبحث عن رواية مشابهة لـ« عداء الطائرة الورقية»، ما عليه سوى أن يقرأ هذه الرواية المثالية والمدهشة. يتبادل كليف وجهات النظر بكياسة واضحة وعاطفية، مع إضفاء بعض الملاحظات الخفيفة من حين لآخر ... نهاية درامية وموتّرة مليئة بالمعضلات الأخلاقية، تجعل من هذا الكتاب متعة مرضية للقراءة». **لايبرري جورنال (ستارد ريفيو)**

عندما تكون ناشر طري العود، في بداية طريقك المهني، إضافة لأنك ناشر عربي ومن سوريا بالتحديد، تعيش الأوضاع الصعبة منذ عام ٢٠٠٩م لغاية تاريخ إصدار هذه الرواية النحلة الصغيرة عام ٢٠١٧م، ستعلم معنى أن تُقدم وفي ظل تلك الظروف، على طباعة ٢٠٠٠ نسخة من عمل مترجم للمرة الأولى من قبل مترجم شاب، قد يعتبره البعض مغامرة... لكننا سعداء بأننا أول مَن سلط الضوء على هذا العمل في العالم العربي، وثقتنا كبيرة بصواب قرارنا. الناشر

ISBN 978-9933-9174-8-7
9 789933 917487
سوريا - السويداء - الشارع المحوري
هاتف : ١٦١ ٢٣٠ ١٦ ٩٦٣+
تلفاكس : ٠٩٨ ٢٢٢ ١٦ ٩٦٣+
fatenbookshop@yahoo.com
دار فاتن للطباعة والنشر والتوزيع